
بسم الله الرحمن الرحيم

BP193.12.A3 S45 2025

الشيباني، محمد حمزة – مؤلف.

بلاغة الامامة : قراءة معرفية في سيرة الامام الحسن المجتبى عليه السلام / د. محمد حمزة الشيباني. – الطبعة الاولى. – النجف، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية، ٢٠٢٥ / ١٤٤٦ للهجرة.

٢٦٤صفحة ؛ ٢٤ سم.. – (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٥٥٤)، (مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية ؛ ٧٢)

يتضمن ارجاعات ببليوجرافية.

١ . الحسن المجتبى، الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الامام الثاني، ٣-٥٠ للهجرة -- البلاغة. ٢. البلاغة العربية أ. العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية -- جهة مصدرة. ب. العنوان

**تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات**

**التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة**

# بلاغة الإمامة

## قراءة معرفية

### في سيرة الإمام الحسن المجتبى ع

د. محمد حمزة الشيباني




العتبة الحسينية المقدسة

مركز الإمام الحسن للدراسات التخصصية

**جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز**

**العراق- النجف الأشرف**

www.imamhassan.org

info@imamhassan.org

+964 7803358020

## هوية الكتاب

**اسم الكتاب:** ..... بلاغة الإمامة

قراءة معرفية في سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

**المؤلِّف:** ..... د. محمد حمزة الشيباني

**الطبعة:** ..... الأُولى

**سنة الطبع:** ..... ١٤٤٧هـ / ٢٠٢٦م

**عدد النسخ:** ..... ١٠٠٠ نسخة

**الناشر:** ..... مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

**التصميم والإخراج الفني:** ..... وحدة الإخراج الفني

**رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد ١٢١٩ لسنة ٢٠٢٥**

ISBN: 978-9922-745-37-4

## الإهداء

إلى:

من أحيى سيرةَ أبيه عليه السلام

فأحيانا

وسقانا من نمير آثاره

وفيض أسراره

ماء التجلي

أبي محمدٍ الحسن المجتبى عليه السلام

# مقدّمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمّد وآله الطيِّبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، آمين ربَّ العالمين.

أهل البيت عليهم السلام شخوصٌ نورانيَّة وأشخاصٌ ملكوتيَّة، منها ولأجلها وُجِدَ الكَوْن، وإليها حسابُ الخَلق، يتدفَّقون نوراً وينطقون حياةً، شفاههم رحمة وقلوبهم رأفة، وُضِعَ الخير بميزانهم فزانوه عدلاً، ونَمَت المعرفة على ربوع ألسنتهم فغذّوها حكمةً.

أنوارٌ هداة، قادةٌ سادات (ينحدرُ عنهم السيل ولا يرقى إليهم الطير)، ألفوا الخَلق فألفوهم، تصطفُّ على أبوابهم أبناء آدم متعلِّمين مستنجدين سائلين، وبمغانمهم عائدين.

لا يُكرِهون أحداً على موالاتهم ولا يجبرون فرداً على اتِّباعهم، يُقيِّد حبُّهم كلَّ من استمع إليهم ويشغف قلبَ كلِّ من رآهم، منهجهم الحقُّ وطريقُهم الصدق وكلمتُهم العليا، هُم فوق ما نقول ودون ما يُقال من التأليه، هُم أنوار السماء وأوتاد الأرض.

والإمام الحسن المجتبى عليه السلام وأحد هذه الأسرار التي حار الكثير في معناها وغفل البعض عن وجه الحكمة في قراراتها وباع آخرون دينهم بدنيا غيرهم

فراحوا يُسطِّرون الكذب والافتراءات عليه والتي جاوز بعضها حدَّ العقل ولم يتجاوز حدَّ الحقد المنصبِّ على بيت الرسالة.

وقد عُني مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية بكتابة البحوث والدراسات وتحقيق المخطوطات التي تُعنَى بشأن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ونشرها في كتب وكتيّبات بالإضافة إلى نشرها على مواقع الانترنت وصفحات التواصل الاجتماعي التابعة للمركز.

بالإضافة إلى النشاطات الثقافيَّة والإعلاميَّة الأُخرى التي يقوم بها المركز من خلال نشر التصاميم الفنّية وإقامة مجالس العزاء وعقد المحاضرات والندوات والمسابقات العلميَّة والثقافيَّة التي تثرى بفكر أهل البيت عليهم السلام وغيرها من توفيقات الله تعالى لنا لخدمة الإمام المظلوم أبي محمّد الحسن المجتبى عليه السلام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ هو أحد تلك الثمار التي أينعت والتي لا تهدف إلَّا إلى بيان شخصيَّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بكلِّ أبعادها المضيئة ونواحيها المشرِقة، ولرفد المكتبة الإسلاميَّة ببحوث ودراسات عن شخصيَّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ومن الله التوفيق والسداد.

**العتبة الحسينية المقدَّسة**

**مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية**

**كاظم السيد محمد جواد الخرسان**

# مقدمة

ارتبطت حركة الوعي الإسلامي في انعطافات مسارها التاريخي بموجهاتها التراثية، والمحفزات الدينية، والأيدلوجية، والتأويلية التي تغذي تلك الموجهات، وهي تنظر إلى التراث بوصفه مفهوماً متشعباً يعكس في أبلغ مظاهره آليات الخطاب المعرفي في صياغة الذاكرة الجمعية لثقافة الأمة، والتي يمكن أن تنطوي على آليات المسخ، والنسخ، والحذف، والاستنباط، والقياس، والاستدعاء، وتغريب الحقائق عن سياقاتها التاريخية، والفقهية، فيظهر أحياناً على السطح ما يحجب جوهرها الحقيقي، مما يجعلنا نستشعر حجم التناقضات التي تغذي قنوات تلك الثقافة، فتصرفها عن محتواها الذي يسلط الضوء على مضمونها سواء أكان مضمونها القرآني، أم النبوي، أم التاريخي، وتجعلها أسيرة التأرجح بين حقيقة النقل، وقراءة العقل، أو بين ظاهر النص، وشبهة التأويل، وظل هذا التناقض يسوس العقل المنهجي الإسلامي، متحرراً من الضوابط الأصولية في تمثّل المعرفة الحقيقية، وتشخيص مصادرها، حتى تشعبت الحركة في جدلية التباين، والاختلاف، والانقسام إلى اتجاهاتٍ عدة، تدعمها تيارات سياسية منفصلة عن الجوهر الفقهي للحركة راحت تغذي الاستبداد المعرفي، والتناحر المذهبي لتلك

الاتجاهات، بل أمسى التعتيم على تلك المصادر، وتحجيمها، وتغريبها، ومصادرة خطابها، وترويع دعاتها، من موجهاتها العقائدية، وواجباتها الشرعية.

وحتى حين سعى الخطاب المعاصر، وهو يركب موجة الحداثة، وتيار ما بعد الحداثة التي أخذت على عاتقها ثقافة التغريب، واستجلاء الرؤى المضمرة، والمسخ الثقافي إلى بناء أنساق معرفية جديدة تتمكن من خلالها تفكيك ذلك النسيج، وتلك الاتجاهات من رواسب التضليل، ومتاهات التأويل نزوعاً إلى تحرير العقل من الازدواجية الفكرية، والتناحر العقائدي، والأيدلوجي، والانقياد الآلي لهالاتٍ صنعتها بلاغة الوضع، وإضاءة وعي قادر على النفاذ من شبكة هذه التناقضات، والقناعات المخدرة، ولذة الاجترار إلى حيث تكون الحقيقة لم تسعفه آلياته الحجاجية رغم تنوعها، بل ظلّ عالقاً على السطح، وهامش المعنى، لا يريد استنباط الحقائق الدالة على مصداقيتها من العمق، بل ربما انصرف في بعض الأحيان إلى تهميش المتبقي من تلك الأصالة التراثية، أو تحريفها على أن الناتج المعرفي لتلك الرواسب المضللة من موجهاتها الجدلية.

لذا ظل مشروع تنقية هذا التراث مما علق به من تحريفٍ، وشبهاتٍ، وأخبارٍ، ومروياتٍ تجافي حقائقه التي بها يستضيئ، ويسمو، وترتقي في مناخاته النفس الإنسانية هاجساً معرفياً يراودنا بين الحين والآخر، يفرض

علينا العودة إلى أصوله الصافية، وبدايات تشكله، ولأن التراث لفظة جامعة لكل ما خلّفته الأمة من قيم، وأفكار، ومدونات، وبلاغات، وسنن، وموروثات، فقد نجد في رؤية الدكتور أحمد العلوي ما يسعفنا إلى اختزال التراث بأصلين راسخين في منظومة العقل العربي، هما: (القرآن وكلام محمدﷺ لا غير)[1] بوصفهما الطاقة المحفزة، والموجهة لحركة الوعي الإسلامي، وهما متصلان مع بعضهما في مدار الرؤية، والتوجه اتصالاً محكماً، لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر مما يجعل من تلك الحركة حركةً كلية تنطوي على وحدةٍ سياقيةٍ يمكن من خلالها فهم، وتفسير التاريخ في ضوء الناتج المعرفي لذلك الوعي، ومدى اقترابه منهما، علماً إن أول من دعا إلى تنقية ذلك التراث في بدايات تشكله هو النبي الأكرمﷺ بعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافقه أُخِذ به وما خالفه لا يعتد به[2].

وحين نستقرئ ماهية الأصول المعرفية لآل البيتعليهم السلام نجدها تتمثل الجوهر القرآني، والتراث المحمدي تمثلاً حقيقياً لا تشوبه خلةً، أو زلةً، فهم، ودونما أيّ شكٍّ، أو ريبٍ عدول القرآن، وحملة علم النبيﷺ منهم يُستقى رائق علمه، وجوهر حكمه.

---

(١) مناقشة مقال محمد عابد الجابري حول التراث، ومشكل المنهج ـ المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية. دار توبقال. الدار البيضاء. ط١ ١٩٨٦: ٩٧.

(٢) ينظر: معالم السنن للخطابي ٢٩٩/ ٤، إذ ورد عن ثوبان مولى رسول اللهﷺ: (إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن خالفه فدعوه).

وانسياقاً مع عنوان الدراسة (بلاغة الإمامة ـ قراءة معرفية ـ في سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام) فإن التصور النسقي لها انبنى على مقدمةٍ موجزةٍ تستقرئ ماهية العنوان من خلال التداخل المنطقي بين مفرادته الدالة عليه، إذ تنفذ كل مفردة في الأخرى تنافذاً يشكل مادة البحث في حيثيات التصور، والتحليل، والتأويل، والمنهجية التي تقوم عليها تلاها بناء تمهيدي (على هامش التوطئة) قام على عمودين متصلين **الأول**: (صناعة الشبهة على هامش التوثيق)، **والثاني**: (مفهوم السيرة) بوصفها ترجمة لحياة شخصٍ ما.

ثم تداعت الفصول في تعقب السيرة الحسنية بوصفها ذاتاً، وبوصفها موضوعا تفسرها بلاغاتٍ عدة، لذا قامت الفصول على تسميةٍ استعارية، لا تتمثل التمويه بقدر ما تستدرك المداخل المعرفية التي يمكن من خلالها استيعاب المهيمنات التاريخية لتلك السيرة، وتأويلها من منطق أقوالها، وأفعالها، وما يحيط بها من أحداثٍ، وشخوصٍ، ومواقف كانت جزءاً من نسيج ذلك التراث الحي.

فأول هذه الفصول كان (**بلاغة الولادة**) لما تشكله البدايات من منطقةٍ مشعةٍ في نسق السيرة، نتلمسه في الآثار السايكولوجية، والاجتماعية التي يولدها المحيط الخارجي بدءاً من العالم الصغير (الأسرة) وما فيه من صفاء روحاني إلى العالم الكبير (المجتمع) وما فيه من صراعاتٍ دنيوية شتى.

ثم (**بلاغة القيادة**) بوصفها ترجمة عملية لمشروع الإمامة، وتجلياتها،

وآثارها السياسية، والمعرفية في توجيه وعي الأمة، وانخراطها في الفعل الرسالي، وصدور هذا الفعل عن شعورٍ عقائدي يفسره انقياد الذات لحقيقة الإمامة، وتجليها في ولي الأمر، وهي قد تستوعب المرجعيات التي قامت عليها فكرة الخلافة، وتداعياتها في المستقبل، سواء أكان ذلك في التصور السني، أم الإمامي، والعروج على إشكالية الصلح في ضوء القراءة المنطقية للواقع الذي أنتجها.

ثم (**بلاغة العبادة**) بوصفها مظهراً للطاعات الظاهرة، وتجلياً للباطنة في نسق أدائها، وتمثلها في ضوء المدار البياني، والآثار المترتبة للشحنات الروحية، والمعرفية، والعرفانية بما يجعل منها سلوكاً حياً يتجاوز التفسير الشكلي للعبادة إلى المضمون الإنساني في صلة الإمام عليه السلام بالخالق تعالى، والخلق.

وبالنسبة (**لبلاغة الحجاج**) فهي ترصد المقدرة البيانية للإمام بوصفه حجة الله على أرضه في استظهار ملكاته المعرفية، والقدرة على دحض الباطل، ورجاله وتعريته في ضوء الحقائق التي تنطوي عليها سيرهم التاريخية، وإحياء الحق، وتنقيته من مظان الشبهات، حتى تشعر أن كل فعل لديه ينبني على بعدٍ حجاجي، وجوهرٍ أخلاقي، ومضمون عبادي.

أما (**بلاغة الشهادة**) فتستقرئ الشهادة بوصفها مرتبة معرفية اختص بها الائمة، وتوثيق اللحظات التي عانى فيها الإمام عليه السلام من غدر الأُمة به في حياته، حين تركته مضطراً للصلح مع معاوية الذي دبّر مؤامرة بالسم على يد

إحدى نسائه، والمواقف الأليمة التي لاقاها بعد مماته، حتى مُنع من أحقيته في أن يدفن مع جدهﷺ، بل رُميت جثته بالسهام.

وأخيراً ارتأى الباحث أن يخصص لـ(**منطق السيرة**) في نسيج معراجها بلسان الحسن نفسهعليه السلام، وما روي عنه، وسبك هذه المرويات بروابطٍ لفظية تجعل منها نسيجاً فنياً متكاملاً، وترجمةً ذاتية لما مرَّ به الإمام من أحداثٍ جسام، ومواقف عظيمة، ولحظاتٍ أليمة.

والحمد لله الذي منَّ علينا بنور الموالاة للعترة الطاهرةعليهم السلام، وجعلنا نطوف في رحاب كريم أهل البيتعليهم السلام نستنطق ما مرَّ به، ونستشعر إن الأمة التي لم تخلف رسول اللهﷺ في عترته، ولم تنصرهم، وتظهر مودتهم، بل قارعتهم، ومزقت جمعهم، وأذاقتهم المرارة، ما زالت أسيرة ذلك الميراث العدائي، وإذ نلقي بهذه البذرة المباركة بين يدي القرّاء عسى أن تثمر حباً، وموعظة، وتنصر حقاً، وتدحض باطلاً.

## على نية التوطئة

### أولاً: (صناعة الشبهة على هامش التوثيق)

سعى البيان الأموى جاهداً إلى تمثل سياسة التضليل المعرفي، عبر صناعة الروايات الملفقة التي تضرب المرتكزات الإسلامية من العمق، وزج الشبهات في موروث اهل البيتعليهم السلام كافة، ولاسيما شخصية الإمام الحسنعليه السلام التي

نحن بصدد دراستها، ضاغطاً الأحداث، والأحاديث في حبكة استعارية ينطوي نسيجها البلاغي على رؤيةٍ مضللة، بحيث تحشرها في سياقاتها التاريخية العائمة، وتحاول أن تضفي عليها نسقاً درامياً من خلال حوارٍ مختزلٍ أو عبارةٍ مصطنعة تنفذ بوعي الأمّة إلى قراءةٍ خاطئةٍ، يمكن من خلالها تجريد الإمامة من حقيقة الاصطفاء الإلهي، وتهميش فكرة العصمة، وتعظيم الأئمة أيّاً كانوا أئمة حقٍّ، أو أئمة جور، ووجوب الانقياد لهم، وأن تجعل من تلك الشبهات بعد تعميمها، وتضخيمها، وتوثيقها سنداً معرفياً يغذي مشكاة قناعتها، وتستدل به في حجاجها المنطقي، وسلوكها العبادي، لأن للشبهة بلاغةً أخرى تليط بالعقول فهي لم تسمَ شبهة إلّا (لأنّها تشبه الحق)[١]، فراحت هذه الصناعة تستشري، وتنفق المبالغ الطائلة عليها مجنّدةً ذوي الضمائر الميتة لترويجها، وتأجيجها، وقاموا بتلقينها حتى للصبيان، وتوثيقها في المساند، وتصديرها توجيهاً عقائدياً مع الجيوش الزاحفة في أصقاع المعمورة.

فالإمامة كما يقول النبي صلى الله عليه وآله: (أمر الله يضعه حيث يشاء)[٢]، ولطف إلهي لا اختيار بشري وبهذا يقوم الإمام بتكليفٍ رباني، فهو كما يفسره الإمام زين العابدين عليه السلام: (المعتصم بحبل الله، وحبل الله القرآن، لا يفترقان إلى يوم

(١) نهج البلاغة ـ تح السيد هاشم الميلاني. المجمع العالمي لأهل البيت. قم. ط٥ ٢٠١٠: ٩٨.
(٢) السيرة النبوية. ابن هشام ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت ٢٠٠٠م: ج١/ ٢٤.

القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام)[١]، وهذا يتسق مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٢]، والإمامة كما صورها الإمام الرضا عليه السلام (أبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم)[٣]، والإمام في لغة العرب: (المتقدم بالناس، وهو المطمر، وهو التر الذي يبنى عليه الأساس، والإمام هو الذهب الذي يجعل في دار الضرب ليؤخذ عليه العيار، والإمام هو الخيط الذي يجمع حبات العقد، والإمام هو الدليل في السفر في ظلمة الليل..)[٤]، لذا اختص بها الصفوة من ذرية إبراهيم عليه السلام، وحقيقة هذا التوحد بين القرآن والإمام عليه السلام كما تمثلته الإرادة الإلهية في قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٥] كان يقض مضاجعهم، ويزعزع أركان عروشهم، لذا كان المدخل إلى تفكيك هذا التوحد هو ضرب النسيج الأخلاقي، والشعوري، والقرآني، والبلاغي المتماسك بين عرى الثوابت المعرفية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الضرب يجب أن يكون متماسكاً، مشدوداً إلى بعضه البعض، قائماً على محاكاةٍ مدروسةٍ لأحداثٍ وأحاديثٍ مر عليها الوعي، ولكن منها ما رسخ، ومنها ما لم يرسخ،

---

(١) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري:١٣٢.

(٢) الاسراء: الآية ٩

(٣) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري:٩٦.

(٤) م. ن: ٩٦.

(٥) يس. آية (١٢).

وعليهم أن يمهدوا لفعلهم الزائف بمروياتٍ مبسطةٍ تقدح من جهةٍ واحدة، قبل ولوج الذروة الروائية من جهاتٍ عدة، والتي معها يتولد الشك، والجدل، ويستفحل الصدع، لذا أغرى معاوية الوضاعين، ورواة الأخبار بنسج ما ينقص من قيمة الإمام الحسن عليه السلام بلسان أبيه عليه السلام، مما يخلق فجوة معرفية في وعي الأمة تتقبل بعد ذلك ما يردها من أباطيل، فحين تقرأ في الطبقات (إن علياً عليه السلام مر على قومٍ قد اجتمعوا على رجلٍ، فقال: من هذا؟، قالوا الحسن عليه السلام، فقال: طحن ابلٍ لم تعوَّد طحناً، إن لكل قومٍ صُداداً، وإن صُدادنا الحسن)[1]، ينفتح التمثل الدلالي لمفردة صُداد لدى المتلقي على مسوغاتٍ عدة لتفتيت العمق البياني لبلاغة الإمام[2]، وانفتاحها على معان شتى، ثم تلاها بما يكسر الوصف التداولي القائم في أذهان الناس بأنّ الحسن عليه السلام أعبد أهل زمانه، واحلمهم، وأعلمهم، فرُمي بشبهة ميله للملذات بما يخفت من نور عصمته، وعمق حنكته في إدارة المواجهات العسكرية، فقد روى عن المسيب بن نجية، قال: (سمعت علياً عليه السلام يقول: ألا أحدثكم عني، وعن أهل بيتي، أما عبد الله بن جعفر فصاحب لهوٍ، وأما الحسن بن علي عليه السلام فصاحب جفنةٍ، وخوان، فتىً من فتيان قريش، لو قد التقتا حلقتا البطان لم

---

(١) الطبقات الكبرى. محمد بن سعد (ترجمة حياة الإمام الحسن ع). تح: السيد عبد العزيز الطباطبائي. مؤسسة آل البيت عليهم السلام إحياء التراث. قم ط١: ج١/ ٢٧٧ـ ٢٨٧.

(٢) صَدَّدَ الجُرحُ: تقيّح أي صار فيه الصديد، والصديد ماء الجرح الرقيق، وصداد: دابة صغيرة من جنس الجرذان، والصُّداد: سام أبرص، وقيل الوزغ.

يغنِ في الحرب عنكم شيئاً، وأما أنا وحسين فنحن منكم، وأنتم منا)[١]، وهذا لا شك يفضي إلى إثارة شبهة أخرى، تجعل منه (مزواجاً، مطلاقاً)[٢]، إذ انتفخ اللسان الروائي بعدد النساء اللواتي اقترن بهن إلى المائة، أو يزيد، وكاد بهذه الصفة التي يرون أنها أغضبت أبيه عليه السلام أن يورّث أهل البيت عليهم السلام (عداوة القبائل)[٣]، وهذه الشبهات التي تنطوي على صورةٍ سلبية عن الحسن عليه السلام في ذهن أبيه عليه السلام، تبنتها مؤسسة إعلامية محكمة لنشرها على منابر المسلمين في أيامهم وأعيادهم، وفي حلقات العلم والمدارسة، وترسيخها في وعي الأمة، وتوثيقها في الصحاح، مما جعلها أرضاً خصبة لتناسل شبهاتٍ أعتى تنفي إن الإمام علي عليه السلام عهد إلى الإمام الحسن عليه السلام بأمر الخلافة بل ترك الأمر للناس (ما آمركم، ولا أنهاكم أنتم أبصر)[٤]، وهذا بدوره ينفي أن تكون الخلافة اصطفاء إلهياً، بل هي مدار رغبةٍ بشريةٍ تقوم على الاختيار، والمزاج الشخصي، وقد تقتضي الحبكة الروائية إلى توليد شبهة مركبةٍ تجعل من المزاج البشري هو المحرك الشعوري للإمام الحسن عليه السلام في التطاول على أبيه عليه السلام،

---

(١) ن. م: ج١/ ٣٩٧.

(٢) ينظر: لسان العرب ـ ابن منظور (ت ٧١١هـ).نشر أدب الحوزة. قم، ١٤٠٥ هـ: ١٠/ ٢٦٦ (منه حديث علي عليه السلام: إن الحسن مطلاق فلا تزوجوه).

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (ترجمة حياة الإمام الحسن عليه السلام): ج١/ ٣٠١. قال أبو الحسن عليه السلام: (ما زال الحسن عليه السلام) يتزوج، ويطلق حتى خشيتُ أن يكون يورثنا عداوة القبائل).

(٤) البداية والنهاية ـ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ) تح: علي شيري. دار إحياء التراث العربي.بيروت ط١. ١٩٨٨:٧/ ٣٦٢.

نافذاً بها من مشهد الوضوء إلى ترسيم معالم شبهة مبطنة أخرى تصفه عثماني الهوى، فقد روي أن علياً عليه السلام مر بالحسن عليه السلام وهو يتوضأ، فقال له: أسبغ الوضوء يا حسن، فأجابه الحسن عليه السلام: لقد قتلتم بالأمس رجلاً يسبغ الوضوء، فلم يزد على أن قال علي عليه السلام: لقد أطال الله حزنك على عثمان [١]، وقد تتضخم هذه الشبهة بديباجة أخرى لتصفه عليه السلام في رواية أخرى وهو يأمر أباه [٢] ويتجرأ عليه بما يمس عصمتها مشككاً ببيعة أبيه عليه السلام[٣]، وتهافتت بعض الألسنة المزيفة للرواة على سبك المشهد الروائي بلغةٍ حوارية تتبنى قناعاتٍ تاريخية هشة ينسفها اتساق النظام المعرفي لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فما ورد عن طارق بن شهاب لما أتى كتاب معاوية لعلي عليه السلام دخل عليه الحسن عليه السلام محتداً فقال له: (أما والله كنت أمرتك فعصيتني، فقال له علي عليه السلام: وما أمرتني به فعصيتك فيه؟ قال: أمرتك أن تركب رواحلك فتلحق بمكة المشرفة، فلاتُتهم به (أي عثمان)، ولا تحل شيئا من أمره فعصيتني..... إلى أن تتكشف الغواية الدرامية عن نبوءة زائفة تنفذ إلى إحكام دليلها الأيدلوجي الذي يتوارى خلفه نصرة أئمة الجور بالقرآن فبعد ما خاطبه الإمام علي عليه السلام:وأيم الله يا بني ما

(١) انساب الأشراف ـ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ). تح: د.سهيل زكار، و د.رياض زركلي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ط١ ١٩٩٦:ج٣/ ١١٩٥ـ١١٩٦.

(٢) ينظر ـ الإمامة والسياسة ـ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) تح: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاؤه: ١/ ٤٩..

(٣) (وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة)ينظر: م.ن:١/ ٤٩.

زلت مبغياً علي منذ هلك جدك، فقال له الحسن عليه السلام: وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾[١]، ويتناهى في خاتمتها إلى مجاراة ما يوثق الشبهة من جهة السبك والمضمون حين يخاطبه الحسن عليه السلام: (دع عنك هذا حتى يحكم الله بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)[٢].

وبعض الروايات الموضوعة تظهره بصورة تخدش يقينه عليه السلام بالخالق وتوكله عليه، وتثيره الحاجات الدنيوية إلى سؤال المخلوق، فتظهره وهو يفد كل سنة إلى معاوية ليصله بمائة ألف درهم، وحين تأخر عليه دعا بدواة ليكتب إليه فأغفى قبل أن يكتب فرأى النبي صلى الله عليه وآله في منامه كأنه يقول له: يا حسن أتكتب إلى مخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟ ثم يعلمه دعاءً ما لبث إن دعا به حتى ذكره معاوية[٣].

والخلاصة التي ترومها صناعة الشبهات هو تضبيب وعي الأمة حتى لا تستند على أرضٍ صلبةٍ من اليقين المعرفي، وتبقى أسيرة لبلاغة الشكل الخارجي للإمام، وإن انتفى مضمونه، وخالف السنن، وانتهك الأعراف، فكان شيطانا في هيكل إنسان لأن هذا ما صاغه الوضاعون على لسان رسول الله، فقد روي

---

(١) م. ن: ١/ ٤٩.

(٢) ن.م: ١/ ٤٩.

(٣) ينظر: تأريخ مدينة دمشق لابن عساكر ـ أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الدمشقي (ت ٥٧١هـ). مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر. بيروت ط١ ١٩٨٠:

عن حذيفة قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع)[1]، حتى تضمن بذلك أئمة الجور سلامة سلطانها، وتصبح صرخة الثائرين ضدهم خروجاً عن الملة، وجرأةً على أمر الله، ويكون صاحب تلك الصرخة خارجياً، أو مرتداً، أو زنديقاً، أو شعوبياً، ويبقى للفظ الإمام في نسخته الأموية سلطة حضورية فاعلة وإن انقطع سلوكياً عن مضمون عدالته التي تقتضيها الإرادة الإلهية.

وفي مقابل ذلك كان الإمام الحسن عليه السلام يحذر الأمة من أباطيل الحكم الأموي في تحوير معالم الدين، وحقائق الشرع، ومفهوم الإمامة، ولاسيما سامريهم معاوية بن أبي سفيان مضيئاً الصورة الحقيقية له، إذ ينزع عنه سمة الإيمان، و صلته بالإسلام، ورضا الرحمن، ويعريه أمام الأمة ممارساً دوره القيادي في إضاءة بصيرتها حتى تعي الأمة مدى انزلاقها في مأزق التخاذل، والتيه، والترنح وألا تنخدع بهذا الزرع المسموم، فقال: (مع أي إمامٍ تقاتلون بعدي؟ مع الظالم الكافر الزنديق الذي لم يؤمن بالله، ورسوله قط، ولا أظهر الإسلام ومن تقدمه من الشجرة الملعونة في كتاب الله بني أمية إلا خوفاً من

(١) صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري ( ت ٢٦١هـ) دار ابن حزم. بيروت.ط١ ٣:١٩٩٥/ ١٤٧٦.

سيوف الحق، ولو لم يبقَ منهم إلا عجوزاً درداء لبغت دين الله الغوائل)[١].

**ثانياً: (مفهوم السيرة).**

لمّا كانت السيرة في مفهومها اللغوي تعني «الطريقة، أو السنّة، أو الهيئة» لذا أخذ (أصحاب السير) على عاتقهم تمثّل هذا المفهوم بما يظهره من توجيه دلالي يفضي إلى تقصي، وتتبع وترجمة، وسرد سير الأولين، أو حياة إنسانٍ ما، بما يفصح عن سرِّ الهالة التي تنطوي عليها تلك السير، أو تلك الحياة، والمسوغات المعرفية المحفزة لهذا التقصي المشروط بنية الكشف الواعي عن مكنوناتها، وإضاءة مساراتها الاجتماعية، والفكرية، والسياسية في أنساق تحولاتها التاريخية، ومظاهر تميزها سواءً للإقتداء بها، أو تمثلها، والكشف عن أثرها المعرفي، والسياسي، والثوري في تفسير حركة التاريخ، لذا عدها بعضهم (ترجمةً، أو تراجم)، واعتبرها أهل التاريخ (قصةً تاريخية، أو جزءاً من التاريخ)، أو (تاريخ حياة) تنطوي في مفهومها السردي على رؤيةٍ تفسيريةٍ لـ(أدبٍ... يزاوج في أنساقه الدلالية بين حقائق التاريخ، والقوى المتخيلة البارعة في الحذف، والإثبات، والبناء)[٢]، بحيث لا تصرفه هذه المزاوجة إلى التمويه القصدي لوعي المتلقي، بل ولوج جوهر الحقيقة، وهذا يعني إنّ السيرة لم تعد سرداً تاريخياً محضاً لحياة عظيم من العظماء، بل تمثل في تجلياتها تأريخ أمة،

---

(١) إثبات الوصية للمسعودي: ١٢٨.

(٢) فن السيرة ـ إحسان عباس. دار الشروق. عمان. ط٥ ١٩٨٨:٩٠.

أو رسالةً إنسانيةً، خاصةً إذا كان ذلك العظيم إماماً ينطوي في بعده التكويني على علة الإيجاد لهذا الوجود، وعلة الاعتقاد، والتجلي المادي لمظاهر الحكمة الإلهية في تشكيل مشروعها الوجودي على الأرض، وتمثّل فناً سردياً ينفذ إلى محاكاة الحياة التي عاشها ذلك العظيم، واستنباط معالمها الدالة على ماهية هذه الحكمة في مصاديقها الربانية، وتشخيص المنعطفات الحياتية التي جعلت منها ظاهرة متفردة في سياقها التاريخي، والتي تشكل في ترابط أحداثها، ومساراتها الإنسانية، والمنطقية، وانفعالها بحقيقة الوجود، والقيم السماوية تياراً مضاداً لما ينحدر بالنفس الإنسانية، ويشوه فطرتها، ويعطل قواها الخيرة، وتصعيداً درامياً لتأويل الماضي لا بوصفه زمناً ميتاً، أو أرثاً جامداً بل نبضاً حيّاً ممتداً في كينونة الحاضر، وخالقاً للمستقبل بتداعياته الماثلة في الذاكرة الجمعية، وهي تفكر، وتتحاور، وتدون، وتتقصى، وتستنبط الخصائص السياسية، والوجدانية، والأخلاقية، والجمالية التي تهب هذه المحاكاة بلاغةً معرفية تختزل انعكاساتها الجوهرية على حركة الحياة بكلِّ تداعياتها، وفي نسيج ديمومتها، وتتوغل في زوايا خفية طمرتها عوامل شتى تحت ركامٍ هائلٍ من الوضع، والتزييف، والتضليل، لتضيئها من جديد، وتعيد قراءتها بعيداً عن ضغوطات التقليد، والتصورات المسبقة، وتعمل على تمحيصها في ضوء الموجهات التاريخية التي دعت الأيادي المغرضة إلى طمرها، وحجبها بحيث تخلق في حال ظهورها تساؤلاتٍ فاحصة، وجدلاً قائماً، وتتمخض عن قناعاتٍ مغايرة في أصولٍ، ومروياتٍ تشكل في ذاتها تراثاً مقدساً لا يجوز الخوض فيه.

وبما أن ترجمة سير آل البيت عليهم السلام بما فيها من أسرارٍ ربانية، ومواقفِ رساليةٍ ترتكز على ثوابتٍ معرفية، وسننٍ كونية مقرونةً بعنف المواجهة مع من يريد زعزعة هذه الثوابت، وتشويه سننها تشي بسموهم، وعظمتهم، واستمرارية هذا السمو، وهذه العظمة على التوالد، والارتقاء المادي، والروحي، وتكشف عن آثاره القادرة على تقويم، وتنقيح المدونة الروائية العالقة على هامش الوعي الجمعي، والارتقاء بالروح الإنسانية، ألهمت كثيراً من أصحاب السير إلى تقصي، وترجمة حياتهم، ولا شك أن حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بما تمثله من حضورٍ إنساني متفردٍ في الذاكرة البشرية، وفي نسق الوعي الإسلامي، بوصفه الجوهر الروحي، والمعرفي الذي تجذّر في ذات الأمة، وعَلِقَ في وجدانها، كانت الأولى في هذا التقصي السردي لسيرته، فكانت (السير النبوية)، و (كتب المغازي)، و(كتب الشمائل)، و(كتب الأذكار)، وكتب الصحاح، والسنن، تتناول اشراقاتها الروحية، وتجلياتها الإنسانية في محيطها الأسري، والاجتماعي، ومساراتها في ضوء السنن الإلهية، والكونية، والأخلاقية، وهي تسمو بالوعي، وتنهج بالنفس إلى معارج الفضيلة، والنور، وتبعث في الأمةً روح التحرر من غثاء جاهليتها، بحيث لو انقادت لذلك الوعي، وذلك النهج، استطاعت أن تقود العالم إلى شاطئ الأمان، والتآخي، فبنبوته صلى الله عليه وآله كما يقول الإمام علي عليه السلام: (دفن الله الضغائن، وأطفأ بِهِ النوائر، وألّف بِهِ إخواناً، وفرَّق بِهِ أقراناً، أعزَّ بِهِ الذِّلةَ، وأذلَّ بِهِ العِزَّةَ، كلامهُ بيانٌ، وصمتُهُ لسانٌ)[1]، وحين أثمرت شجرةُ

(١) نهج البلاغة. تحقيق السيد هاشم الميلاني. المجمع العلمي لأهل البيت. ط٥ ٢٠١٠: ١٦٨ ـ ١٦٩.

النبوة، وتفرّعت، كانت دوحة الإمامة امتدادها، ومشكاتها السرمدية، التي تنفذ بمضمون السيرة إلى قراءة ذلك الامتداد الوجودي، واستظهاره كنسيجٍ واحدٍ في أصوله التكوينية، والمعرفية، تتمثلة العترة المحمدية في ولاية الأمر من بعده، فهم أصل الشجرة الباقي في أرومتها القرشية بعد قطعها، وهم أهله، وبنوه، والراسخون في العلم، فالأئمة (من قريش غُرِسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم)[1]، وهو نفيٌ قطعي تثبته الأدلة، والأسانيد مرسلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، ومؤيدة بكتاب الله تعالى، وتؤكده السير المنقاة لهم، ولكن بصمات تلك الأيادي المأجورة كانت جليةً، وحادةً، ومؤلمة في محاولة صرف هذه الصلاحية إلى غيرهم، أو مساوتهم من حيث مروياتها التي شكلت في نسقها الأيدلوجي سلطة معرفية تنفي العودة إلى مضمون النصِّ، أو الغور في عمقه الدلالي، أو استنباط المعنى من مظانه المحتجبة، أو التشكيك فيها، لذا أسرفت في شراء الذمم، وتهويل اللمم، وتكميم الأفواه، أو الانحراف بالطريقة، أو طمر الحقيقة، وتغيير الوقائع من حيث السند، والأحداث، والغايات، وبترها عن سياقاتها التأريخية التي تضيء حقيقتها من العمق، وحذف ما يشكل جوهرها الإنساني، وعمقها العقائدي في تأويل الحركة الرسالية، والتجلي بمكنونها، بحيث يشكل هذا الحذف، والبتر فراغاً يقتضي تبريره باسترجاع أنساق مشابهة تنحرف بالرؤية عن مسارها المحض، وعن منطق الدلالة الكامنة فيها، وتتخلخل الأواصر الماسكة

(١) م.ن: ٢٣١.

للأحداث في سياقاتها الواقعية موهمةً باتساق مصطنع، يخلق إشكالاً تاريخياً في وعي المتلقي يمكن السيطرة عليه، وترسيخه.

وعند تقصي المسار التاريخي لسيرة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام بوصفها تنطوي على حقبة حرجة في حياة الأمة، وكونها امتداداً جدلياً لسيرة جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبيه علي بن أبي طالب عليه السلام واستنطاقاً لماضٍ متأزم كان من أقوى الموجهات لحركة المستقبل، بحيث لا ينقضه التفاوت الزمني في نمذجة الرؤية المشتركة لحقيقة الخلافة البشرية على الأرض، ولا يمكن بتر هذا الامتداد، أو تعطيل بعض قواه الفاعلة، لأنّه بتر لحقيقة الرسالة المحمدية في تجلياتها القرآنية التي قامت على مجاهدات العترة الطاهرة عليهم السلام، وهي تنطلق من الجوهر الإنساني لحقيقتها الكونية، فمن مشكاة النبوة أشرقت بلاغة الإمامة، فكانتا إشعاعاً لنورٍ واحدٍ، حاولت تلك الأيادي المغرضة بكلِّ ما أوتيت من قوةٍ فصلهما، والتفريق بينهما شكلياً، ومضمونياً، وأبوا أن تجتمع ( النبوة والإمامة )[1] في نسيجٍ واحدٍ، وفي بيتٍ واحدٍ دون حجةٍ، أو دليل.

فالسيرة في منظورها الدلالي تاريخ ذات، لكنها في سيرة الإمام الحسن عليه السلام تأريخ أمة تستشعر الجوهر الإنساني لهذا الامتداد، وما يضفيه من إرهاصات

(١) (كرهت قريش أن يجمع لكم النبوة والخلافة فتجفخوا الناس جفخاً فنظرت قريش لأنفسها، فاختارت، ووفقت، فأصابت): تاريخ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (ت ٣١٠هـ). مؤسسة الأعلمي. بيروت. ط٥ ١٩٨٩م: ج٢: ٥٧٨.

فكرية، وقراءات تنويرية لواقع المسيرة المحمدية في خطواتها المستقبلية، وهي تجابه أعتى الحركات المضادة لمشروعها الإلهي في الخفاء والعلن، وهذه الحركات متوحدة في توجهاتها الايدلوجية، متباينه في نوع تحركها، تضطرها نوازعها النفسية، والمادية القلقة إلى خلق تصورات عقلية يمكن من خلالها فرض سلطة معرفية، ومنطقة متأزمة من الصراعات المذهبية تشكّل في تناميها جبهةً مترامية الأطراف تتلاقى أحياناً، وتفترق أحياناً أخرى لتتصارع فيما بينها.

وحركة التأريخ في توالي أحداثها، وتداخلها تمثّل وحدة مترابطة، وبنية محكمة لا يمكن تجاهل جزء منها، أو التهاون في سرد مضامينها، والتلاعب في منطق شخوصها، بحيث تتلاقى الفروع في ذرى الأصول، وتتلمس في حقيقة الأصول النسغ المغذي لموجهات الفروع في حركتها الذاتية إلى موضوعها المعرفي، أي نصها الرسالي.

ولأن السيرة فن يجمع بين القصة والتاريخ، لذا فقد يتوحد المؤرخ، والقاص لينتجا معا نصاً معرفيا، يسعى إلى استنباط الحقيقة من مظانها، فتليّن صلابة المؤرخ في دقته التفصيلية، ولغته التوثيقية، ببلاغة القاص الذي يريد تمثل الحقائق الإنسانية، والمعرفية في بعدها الجمالي، والتربوي الذي يحاكي إرادة الله في الأرض.

وبلاغة السيرة الحسنية تنتهج مساراتٍ عدة، لا يمكن تجزئتها، لأنّها تجري على مدارٍ واحد، يتوحد مع النسق الرسالي المحمدي في جوهر حركته،

وغاياته، ويتفرد بمدار أحداثه، وعصره، لذا يمكن قراءة إشراقات ذلك التفرد في ضوء آثاره، واتصاله بالمنحى الرسالي للأمة الإسلامية وهي تشق طريقها في مواجهة الضحالة البشرية لأناسٍ انسلوا بأقنعةٍ شتى للانحراف بهذا المنحى عن مفاهيمه السماوية، ونحن إذ نركز على جملة من البلاغات بغية استخلاص سيرته من جوانبها المختلفة، لا ننسى أن سير العظماء في ضوء ماهية التوحد لا تمثل أمّةً بذاتها، بل الإنسانية جمعاء، لأنّها تتوحد رغم تنوع مشاربها على منهج الحق، وتلتقي في ذروة الدفاع عن مبادئها الإنسانية وأن كلفها ذلك الاغتراب، والتشرد، والموت، فالعظيم المنتمي لأمة ما، يكون دالاً على ماهيتها، وتطلعاتها الروحية، والدينية، والاجتماعية، والفلسفية وإن كان شهيد سذاجتها، وميولها الآنية، وقراءاتها الخاطئة.

والسلطة المضادة سواء أكانت سياسية، أو مذهبية، أو معرفية ترى في تطلعات هذا العظيم سبيلاً لتعريتها، وكشف مثالبها، وتقويمها مرآة صقيلة تنعكس على نقاءها الفطري حقيقتها الخاوية، لذا تجد السبيل إلى تصديعها، وترويعها، وتحجيمها منفذاً ستراتيجياً لتشتيت الرؤية، وتسفيه الوعي، وخلق مسافة من الشك المعرفي مدججة بالتضاد التأويلي، والحجاج المزيف حتى تستظهر مقولة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (كلمة حق يُراد بها باطل) التصور الحقيقي لتوجهاتهم البراغماتية، والصيحة المدوية التي تتلاشى في فوضويتها ترنيمة الحقيقة.

ولاشكَّ ان الأمة الثائرة تمجد ثائريها، والأمة المنحرفة تثأر لمنحرفيها، والأمة العالمة تنحني إجلالاً لمشكاة الحقيقة، والأمة الجاهلة تنبذ المشكاة وراء ظهرها، وتنثني لصدى تلك الصيحة المدوية، وهي تفصم العلاقة بين الذات المدركة، وموضوع الإدراك، بحيث تصبح أفعال اللغة صياغةً استعارية لأفعال النفس تنفذ أصداءها في الضمير الجمعي للأمة، مدبجة متنها التأويلي على أسسٍ بيانية، أو برهانية، أو عرفانية تستحضر أما المظهر السطحي للفكر الحجاجي، أو التصور الباطني القائم على التجليات التجريدية للأفكار المحركة، والمنتجة لهذه الأفعال والتي هي أقرب إلى الابتداع الميتافيزيقي، حتى يشعر الفكر العقائدي بغربته، كما يشعر الإمام عليه السلام بغربته، فيعود الإسلام غريباً كما بدأ غريباً.

فالمحنة التي ابتلي بها أئمة أهل البيت عليهم السلام هي الموجهات المحركة لأفعال الذات الاجتماعية، وهي موجهات باتت تستند إلى هذين المظهرين، فبدأت تظهر حركة من الوعي الفلسفي قام على سجالٍ من الافتراضات حول قدم العالم، أو فرضية حدوث العالم، أو إشكالية خلق القرآن، أو حركة تستهلك في خدرها الصوفي حالة الوعي الثوري، فترد قناعاتٍ جامدةٍ يسبت معها العقل، وشحن النفس بولهٍ ذي نزعاتٍ لا شعورية لإمكانات الحلول، والإشراق، والتجلي بوصفها غاية العبودية لله، وأعلى مرتبةٍ للفعل العبادي، ولغرض إثبات مصداقيتها تتخذ من تأويل السور القرأنية بما يتجانس مع

تصوراتها المنطقية، أو خيالها الهرمسي دليلاً عليها.

وأحياناً يصبح الفصل بين القول والفعل المحور التاويلي للذات، والماضي امتداداً للحاضر وان اختلفت ماهية الفعل والقول، فمعاوية الذي نما، وترعرع عوده، واستغلظ على رنق الجاهلية، وتشرّب قيمها نفس معاوية الذي دخل الإسلام مرغماً حتى شابت على تلك القيم مفارقه، وصبغت بها خلائقه، واستبطنها موجهاً معرفياً لتأويل سلطانه، (فأقبل مزبداً كالتيار لا يبالي ما غَرَّقَ، أو كوقع النارِ في الهشيم لا يحفلُ بما حرَّقَ)[1]، فالإسلام الذي جب ما قبله، جعل معاوية من المنظور الروائي كاتب الوحي، وصحابياً كريماً وهي كلمة تحمل في مدلولها تأويلات عدة، وكأنها ترسم صورة من الاتصال الروحي بينه وبين الوحي تعطي اليد الكاتبة حصانة مستقبلية تسوغ له العبث بمقدرات الأمة، وتوجيه دفتها إلى حيث شاء، وخاصة بعد أن أمسك مقاليد حكمها بيدٍ من حديدٍ، ودهاء، فمثلما لوى أعناق النصوص، لوى أعناق الرجال بميسم الترهيب والترغيب، فاندلقت ألسنة المرائين، لملء الفراغ العقائدي، وترقيع التشوه الأخلاقي، ونمذجة اللهاث الدنيوي الماثل في الشخصية الأموية عامةً، وخاصةً معاوية، وتابعيه بما يجعل من ذلك الدهاء حنكةً تنم عن امتلاءٍ وتسديدٍ إلهي، وذلك اللهاث الدنيوي بما يفرزه من تصوراتٍ خاطئة، وتقولات واهية جهاداً لإعلاء صرح الإسلام، ومجاراة

(١) نهج البلاغة ـ تح: السيد هاشم الميلاني. المجمع العالمي لأهل البيت. قم. ط٥ ٢٠١٠: ٢٣١.

للرقي الحضاري فصار معاوية من أعظم رجالات الإسلام سؤدداً، وسياسة، وحلماً، صحب النبيﷺ، (وروى عنه أحاديث كثيرة، واستكتبه الرسولﷺ منذ أسلم، فكان كاتب الوحي، وشهد حنيناً وأعطاه رسول اللهﷺ..... ودعا لهﷺ، فقال: «اللهم علّمه الكتاب، والحساب، وقه العذاب، وبشره بالملك، فقال له: إذا ملكت فاسجح»)[١]، وهذه الديباجة المرقعة لا تصمد أمام المرويات الهائلة التي تذم بني أمية عامة، ومعاوية خاصة، وتتناقض في مضامينها مع تحذير رسول اللهﷺ في حديثه الذي اتفقت عليه أغلب أسانيد الصحاح (الخلافة ثلاثون سنة، بعدها تكون ملكاً عضوضاً..)، أو حديث الجمل الأحمر حينما لعن رسول اللهﷺ معاوية وأباه وأخاه فقال: (اللهم العن القائد والسائق والراكب)[٢]، أو حين رآهم في منامه وهم ينزون على منبره نزو القردة والخنازير فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[٣]، وما رؤي الرسول بعد ذلك ضاحكاً)[٤]، فكيف يدعو له النبيﷺ بما يخدم الأمة، ثم يشترط عليه ناصحاً مبشراً، على أنه من العواصم لهذه الأمة من القواصم التي تحيط بها، لذا فلا عجب حين يتعجب ابن العربي

---

(١) سؤال في معاوية بن أبي سفيان. ابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. تح: صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. بيروت. ط١ ١٩٧٩: ٥ (مقدمة المحقق).

(٢) الاحتجاج ـ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي. مطبوعات دار الأندلس. النجف / بيروت ط١ ٢٠١٠:ج١/ ٣٥٥.

(٣) الإسراء: ٦٠.

(٤) تأريخ بغداد: ٩ / ٤٤. أسد الغابة: ٣/ ١٤.

(لاستكبار الناس ولاية بني معاوية، وأول من عقد لهم الولاية رسول الله ﷺ فإنه ولّى يوم الفتح عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية مكة... واستكتب معاوية أميناً على وحيه، ثم ولّى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان ـ أخاه ـ الشام وما زالوا بعد ذلك يتوقلون في سبيل المجد، ويترقون في درج العزِّ حتى أنهتهم الأيام إلى منازل الكرام)[١]، فإذا معاوية إماماً في نظر أبي الدرداء، بل هو (أشبه الناس بصلاة رسول الله)[٢]، بل هو أقرب الناس لصورة المهدي، بل هو المهدي[٣]، ورغم البصيرة العلمية لابن خلدون في تفسير حوادث التاريخ، إلّا أنه يأنف، ويسمو أن يكون معاوية ممن دبّر مكيدة قتل الإمام الحسن عليه السلام مسموماً، وعدّه من (أحاديث الشيعة، وحاشا معاوية من ذلك...)[٤]، ولكن مسوغات هذا التصور المصطنع تتهاوى أمام سطوع الحقائق التأريخية، مما يحدث خللاً في التصور الفقهي لمفهوم الإمام، طالما أن الإمام هو (الخيط الذي

---

(١) العواصم من القواصم ـ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الأشبيلي المالكي. قدم وعلق عليه: محب الدين الخطيب. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. المملكة العربية السعودية. ط١. ١٤١٩: ٢٢٣/ ٢٢٤.

(٢) منهاج السنة: ٣/ ١٨٥ والمنتقى منه ص٣٨٩ نقلاً من كتاب السلطة وصناعة الوضع والتأويل لكمال الحيدري. بقلم: علي المدن. مركز شعر للنشر والتوزيع ط١. ٢٠١٢. طهران.

(٣) ينظر: في منهاج السنة النبوية. تح: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط١ ١٩٨٦: ج٦/ ٢٣٣، قال قتادة (لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي، وعن مجاهد: لو أدركتم معاوية لقلتم: المهدي).

(٤) ينظر: تاريخ ابن خلدون: ج٢/ ١٨٧.، وكذلك الذهبي أنكر هذا الخبر في كتابة (تاريخ الإسلام) ج٤/ ٤٠.

يُمدُ على البناء، فيُبنى عليه، ويُسوَّى عليه ساف البناء)[١]، والأئمة (قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده لا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه)[٢]، بحيث تصبح منافذ الجنة والنار مقرونةً بالمعرفة اليقنية الكائنة في الطرفين، إشارةً منه إلى الاستغراق الباطني لهذه المعرفة التي يمتلكها الإمام في وسم أهل المعروف، وأهل المنكر، وانعكاس ذات المأموم التي تستضيء بنور علمه في توجهاتها العبادية، واليقينية في ذات الإمام التي تستبطنها من الداخل، حتى تصبح معرفة الإمام من قبل المأمومين قراءة تاريخية واعية في سيرته، تتحول في ديمومة الاستضاءة بأنوارها إلى إشراقاتٍ وجدانية، تجعل من الرؤية معرفةً تنفذ من حاشية اللفظ إلى لبِّ المعنى، ومن هامش الظاهر إلى نور الباطن تستمد من مقولة الإمام الحسن عليه السلام وعياً جدلياً: (واعلموا أنكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرّفه، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلّف، ورأيتم الفرية على الله، والتحريف، ورأيتم كيف يهوي من يهوي، ولا يجهلنكم الذين لا يعلمون، والتمسوا ذلك عند أهله، فإنهم خاصة نورٍ يستضاء بهم، وأئمة يُقتدى بهم، بهم عيش العلم وموت الجهل، وهم الذين

---

(١) لسان العرب: مادة (أمم).

(٢) بحار الأنوار ـ محمد باقر المجلسي: ج٦/ ٢٣٣.

أخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه)[١]، وعلى ضوء التماهي الدلالي بين الحلم والعلم، والصمت والمنطق، والظاهر والباطن في تشكيل العلاقة الروحية، والمعرفية بين الإمام، والمأموم تتشكل الصورة المجازية لبلاغة الإمامة، والقراءة الواعية في استدراك الحقائق التاريخية من خلال الوعي الثقافي للأفراد على أن الثقافة نسيج متماسك من الأفكار، والمعتقدات، والميول النفسية، والمعايير المحركة للسلوك الاجتماعي، تتشكل في ضوء التفاوت الروحي، والمادي في مكونات هذا النسيج الخصائص العاطفية، والموجهات الفكرية لهذا الوعي في رصد التباين بين الأفراد ضمن المجتمع بوصفه صراعاً حضارياً بين القيم الدينية، والدنيوية، يمكن من خلاله استقراء ملامح سيرهم الذاتية.

والبلاغة في مفهومها الدلالي اسم جامعٌ لجميع أصناف البيان، ومختلف مظاهر الكلام، لذا عُدت (علماً كليّاً)[٢]، يغذي جميع علوم العربية، ويضفي عليها نسقاً جمالياً، وأخلاقياً، ودينياً لاختزال الحقيقة من شوائب التضليل، بل إن علم العربية كما يرى أبو عمرو بن العلاء (الدين بعينه)[٣]، وبما أن الدين نافذٌ بآثاره المعرفية، والروحية في نسيج الحياة البشرية من الداخل، والخارج، لذا انقسمت البلاغة في وعي منظريها إلى ضروب عدة، فمنها بلاغة الشعر،

---

(١) م.ن: ج ٧٥ ص ١٠٥.

(٢) البلاغة العربية بين التخييل والتداول ـ محمد العمري ـ أفريقيا الشرق. البيضاء.٢٠٠٧: ٢٨٩.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية. جرجي زيدان. دار مكتبة الحياة. بيروت. ج٢: ١٧.

ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل [١]، وحين نؤسس لمفهوم بلاغة الإمامة سعياً منا إلى تجريد مفهومها من تمويهات التصور المجازي القاضي بـ (إلباس الباطل صورة الحقِّ)[٢]، لتصير تجلياً معرفياً لاستنباط العلم من مظانه الحقيقية، والتجلي الأمثل لماهية خليفة الله في أرضه، وهذا ما أكده الإمام الحسن عليه السلام في إحدى مناظراته، إذ قال موبخاً: (ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا، ويصور الباطل بصورة الحق)[٣].

فالبلاغة حين تعلق بمفهوم الإمامة يتسع مدلولها الاصطلاحي، والبياني، والمعرفي، وتتكشف ماهيتها، فالإبانة المعرفية الكلية التي هي من خصائص الإمام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٤]، تجعل منها رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، تستمد شرعيتها بتفويض إلهي (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)[٥]، لا اختيار بشري يصدر عن توافقات لمجموعة بشرية ينزو بها ميلُ عقائدي، أو نزغ طائفي، أو زيغ عقلي....

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ـ أبوحيان التوحيدي. تح: أحمد أمين ـ أحمد الزين. المكتبة العصرية. بيروت (د.ت) ج١٤٠:٢.

(٢) البيان والتبيين ـ أبو عثمان الجاحظ. تح: عبد السلام هارون. مكتبة بن سينا للنشر. القاهرة. ط١ ٢٠١٠: ج١/ ١٦١. كتاب الصناعتين: ٢٠.

(٣) المحاسن والأضداد. الجاحظ. عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ). دار إحياء العلوم. بيروت. ط١، ١٩٨٦.

(٤) يس. آية (١٢).

(٥) الأنبياء. آية (٧٣).

أما القراءة المعرفية فهي تتبنى وعياً مكثفاً في قراءة الواقع، واستدراك المضامين التي تنطوي عليها السيرة في بناء المعرفة، والاستدلال بها لملامسة الفعل الإنساني في آثاره المنتجة للوعي، والكاشفة عن جوهره المطمور في ثنايا التاريخ، لذا فهي قد تنساق مع الهاجس التاريخاني بحيث يصبح التاريخ مفهوماً، وروحاً يتجسد (يحلُّ) في رجل، في دولة، في ثقافة)[١]، وتكون (السيرة) في منظورها التعاقبي أعلى درجات التأليف لدى التاريخاني[٢]، الذي راح يبحث عن أجوبته الفلسفية في صميم التاريخ، بوصفه سلسلة مترابطة من الأحداث، نتصورها ذهنيا في ضوء سياقاتها المحفزة، ونستنبط منها الرؤية الكامنة فيها، متصلةً بحاضرنا لخلق حالة من الوعي الجماعي محكومة بقراءة الأحداث، وتأويلها في ضوء ظروفها التاريخية، وحقائقها الكونية.

لذا حين تلتقي مفردات البحث (السيرة) بوصفها سرداً تاريخياً لحياةٍ إنسانٍ عظيم، و(القراءة المعرفية) بوصفها استنطاقاً لذلك السرد في محتواه الإنساني، وتأويله في ضوء المضامين التي تنبثق عنه، أو تتعلق به، وإضاءتها من الداخل، و(البلاغة) بوصفها علماً يتقصى قدرة البيان على رصد العلاقة الداخلية بين الظاهر، والباطن من خلال مفهومها الذهني مصداقاً على العلاقة الخارجية التي تحكم الصراعات التاريخية للمجتمع، تصبح الإمامة الجوهر الذي

---

(١) التاريخانية. عبد الله العروي: ٣٥٨/ ٣٥٩.

(٢) م.ن: ٣٥٩.

يستقرئ علة الخلق (وما خلقتُ الجنَّ والأنس إلّا ليعبدون)، والنسق البياني لهذا الجوهر في توثيق صلة المخلوق بخالقه، وتشخيص العلة الكامنة في تاريخ الصراع البشري على الأرض لغرض استبدال ذلك الجوهر بالقشور، حتى تنسلخ العلة عن معلولها، وينكسر النسق عن صلةٍ شوهاء يمكن من خلالها قلب الأدوار، وتفسير الصراع على أساسِ رؤيةٍ مادية قادرةٍ على تشويه الحقائق الكونية والتاريخية والشرعية.

لذا كان ما يخيف أعداء الإمام الحسن عليه السلام أنه (أحيا سيرة أبيه)، التي كتبها بخلق الإمامة الربانية الراسخ فيه، وختمها بدم الشهادة الموعود بها، فكان نوراً يمشي على الأرض، يرهبُ أعداء الله، ويلهم مريديه حب الشهادة.

# الفصل الأول

## (بلاغة الولادة ومسرى البدايات)

**إضاءة..**

إن الكلمة حين يتلفظ بها الوجود تنبئُ في مظهر ولادتها عن مضمونٍ شعوري تتشكل دلالته من الظاهر الحسي للتسمية، وتتكشف عن باطنها المحجوب في غشاء التورية، فالأئمة كلمات الله تعالى مُذ كانوا أشباحاً من نورٍ في حجب الملكوت، ثم جرت عليهم معايير التكوين البشري، فكانت الولادة مظهراً للتجلي، وانكشاف المعنى.

**نقطة البدء**

لم تكن ولادات الأئمة من آل محمدعليهم السلام من حيث المقاييس البشرية، والرسالية ولادات عادية ينظر إليها نظرة آنية عابرة، من الخارج، مشفوعةً بانفعالٍ محدودٍ سرعان ما يتلاشى مع توالي الأيام، وتعاقب السنين، بل أراد الله عزوجل لها أن تكون لحظاتٍ خالدةً في عمر الزمن، تعكس في تجلياتها الوجودية مظهر التكريم الإلهي للرسول الأكرم، وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم، ومن عمقها المستقبلي الرسالي حاجة الوجود إليهم، بحيث تخلق تلك التجليات في وعي الأمة شعوراً إيمانياً تحتفي به النفس، ويسمو بالعقل

البشري إلى رصد أثرها على علة الوجود في اتساقها، واتساع مضمونها، وحركة الكون في أنساقه الدالة على مبدعها البارئ المصور الله ﷻ، وهي تفارق المرئي الكائن على هامش البصر إلى قراءة الجوهر المتجلي بعين البصيرة.

لذا فهي قراءة معرفية ترتقي بالوعي التداولي إلى فهم الرسالة السماوية ذاتها، ومن دون هذا الفهم لا يمكن توجيه مسار الروح، وفاعلية العقل في استنطاق الفطرة، وتحفيز التساؤلات، والإجابة عليها بوعيٍ مسبقٍ. فولادة الأئمة عليهم السلام تعكس في بعدها الاستعاري انبثاق الكلمة عن مكنونها الدلالي، وتضيء في بعدها التاريخي المرتكزات الأولى للسيرة، من خلال تشخيص ما يحيطها من إشارات، ودوالّ عرفانية تنبئُ عن عظمة المولود، وتوحي بهاجس البشارة، وهي تعمُّ الوجود، وتشخيص الحاضنة الأسرية الخالصة، والاجتماعية التي تحتويها، وآثارها النفسية في تغذية الوعي الروحي، والعقلي لشخصية الإمام المولود التي تتبناها في إطار المرجعية السردية لهذا الجنس الأدبي الذي يختزل المسافة الجمالية من جذور البدايات إلى ذروة الصراع وانتهاءً بلحظة الخاتمة، أو من حيث التتابع المنطقي في تقصي المنعطفات التاريخية، ومسارات الأيام، وهي تتوالى في ربط الأسباب بمقدماتها، والعلل بنتائجها فالسيرة الحسنية تنطلق من بيت النبوة، وتنسج خيوط بداياتها الحسية، والروحية، والفكرية، والعقائدية، والاجتماعية من حاضنةٍ نورانيةٍ قلما تتوفر لوليدٍ فلا تنطبع مظاهرها المشعة في صلتها الخالصة بالله ﷻ على

خلجات روحه، ووله حواسه، ونسيج طباعه، ومعراج تفكيره، وتسهم في بلورة النسق الرسالي لشخصيته المستقبلية، وتنبئ بها.

فهو من حيث التدرج في مرقاة النسب الطاهر كما قال الحافظ بن عساكر: (الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أبو محمد الهاشمي سبط رسول الله ﷺ، وريحانته، وأحد سيديِّ شباب أهل الجنة)[1]، أو نمتد بها على لسان جده المصطفى ﷺ: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني في خيرها، فأخرجتُ من بين أبوي فلم يصبني شيءُ من عهد الجاهلية، وخرجتُ من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسباً، وخيركم أباً)[2]، ومن السمو الدلالي لهذه المسميات في جوهرها الكريم ذاتاً، وحياةً، والامتداد المتجذر في أرومة هذه الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة نعي إن وراء هذه الرحلة النورانية في

---

(١) ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق. أبو القاسم علي بن الحسن بن وهب الله بن عبد الله الشافعي الدمشقي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ). تح: الشيخ محمد باقر المحمودي. مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر. ط١ ١٩٨٠: ٥.

(٢) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ). دار الفكر للطباعة والنشر.بيروت.ط١ ١٩٨١: ج١ / ٢٦٢.

الأصلاب النقية، والأرحام المطهرة حكمة إلهية لتمثيل الأدوار الكونية للأئمة في تجليها من عالم الغيب إلى عالم الظهور، وقد أكدها النبيﷺ بقوله: (خلقني الله وأهل بيتي من نورٍ واحدٍ قبل أن يخلق آدم بسبعة آلاف عام، ثم نقلنا إلى صلب آدم، ثم نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى أرحام المطهرات)[١]، وفي رواية أخرى عن جابر عن النبيﷺ تتجلى لنا أكثر حقيقة سريان نورانيتهم في مناشئ تكوينهم والتي تشف عن مراتب كمالية ما نالها غيرهم: (إن الله خلقني وخلق علياً نورين بين يدي العرش، نسبّح الله ونقدسه قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما خلق آدم أسكننا في صلبه، ثم نقلنا من صُلبٍ طيبٍ وبطنٍ طاهر حتى أسكننا في صلب إبراهيم، ثم نقلنا من من صُلب إبراهيم إلى صُلب طيّبٍ وبطنٍ طاهرٍ حتى أسكننا في صلب عبد المطلب، فصار ثلثاه في عبد الله وثلثه في أبي طالب، ثم اجتمع النور مني ومن علي في فاطمة، فالحسن والحسين نوران من نور ربِّ العالمين)[٢].

وحين نلج إلى قراءة حقيقة تلك الولادات بما تنطوي عليه من إشارات مغايرة لما عهدته الذاكرة الإنسانية، إذ كانت ولادة أبيه علي بن أبي طالبعليه السلام في جوف الكعبة الشريفة في الثالث عشر من رجب منقبةً لا يمكن الإحاطة بأسرارها

---

(١) بحار الأنوار: المجلسي ـ محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ) ـ تح محمد الباقر البهبودي ـ عبد الرحيم الشيرازي. مؤسسة الوفاء.بيروت ط٢ ١٩٨٣: ج٣٦/ ٣٠١.

(٢) نزهة المجالس ومنتخب النفائس ـ الصفوري الشافعي. عبد الرحمن بن عبد السلام (ت ٨٩٤هـ) المعارف. الإسكندرية. ٢٠٠١م: ٢/ ٢٠٦.

الملكوتية، وكمالاتها النفسانية، إذ لم تكن حدثاً عابراً سبقه ما يماثله، أو هاجساً اضطرارياً اعترى فاطمة بنت أسدعليها السلام لحظة المخاض، قدر ما هي إعلان لحدثٍ تاريخي تقتضيه الإرادة الإلهية، وتشريف للكعبة، وللمولود فيها، فحين انشق جدار الكعبة مبتهلاً كي يواري تلك الهالة الملكوتية في حضرة العناية الإلهية، بعد مناجاة، وتضرع حميم استغرقت فيه فاطمة بنت أسد، وهي تناجي مولاها بلسان التوحيد، مصدقةً بالنور الذي جاء به جدهاعليه السلام، وعارفةً بكرامة مولودها، متوسلةً به إلى خالقها: (ربِّ إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسلٍ، وكتبٍ، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليلعليه السلام، وإنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت، وبحق المولود الذي في بطني لِما يسرتَ عليَّ ولادتي)[1]، فتيسر العسير، واستجيب الدعاء، وانفتح باب الرجاء، وبان علو القدر، حين انشق الجدار لكريمة بني هاشم، ورغم تواتر الأخبار التي يؤكدها الحاكم النيسابوري على صحة هذه الولادة المباركة في جوف الكعبة[2]، إذ لم تكن حدثاً مألوفاً، انزاحت عنه الحجب، فكان على مسمعٍ ومرأى من الناس، إذ (لا نعلم مولوداً ولد في الكعبة غيره)[3] إلّا أن بعضهم سعى إلى تفنيد هذا الخبر،

---

(١) الأنوار البهية ـ عباس القمي:٦٧. كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ). دار الكتاب الإسلامي. حلب: ج١ / ٦١ـ ٦٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ).دار المعرفة بيروت:ج٣ .٥٥٠

(٣) قول الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) في كتاب كفاية الطالب للكنجي: ٢٦٠.

وتضعيف سنده كما فعل ابن تيمية، وكثيرون غيره، لما تضفيه هذه الولادة على صاحبها من علو الشأن، وتشير إلى ما ينتظرها من كمالاتٍ، وأدوار عظيمةٍ في قادم الأيام، ورغبةً منهم في طمس المناقب النورانية لأهل البيت عليهم السلام التي كرمهم الله بها، فكانوا علة الوجود، وسبيل الخلق لمرضاة المعبود.

أما أمُّ الإمام الحسن عليه السلام، فأيّة أمٍّ، ومن أيِّ طهرٍ صيغتْ، وأيِّ شجرةٍ نبويةٍ كانت هي فرعها المبارك، وعليٌّ عليه السلام لقاحها العالي، والحسنان ثمرتها، هي فاطمة الزهراء بنت خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله والتي خصتْ بأسرارٍ لم تعيها الألباب، ولم تفقهها العقول، فهي كما يقول ابنها الصادق عليه السلام: (حين تقوم في محرابها للصلاة يزهرُ نورها لأهل السماوات، كما تزهر النجوم لأهل الأرض)[1]، وكما يصفها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على رؤوس الأشهاد، هي: (بضعة مني، وهي قلبي، وهي روحي التي بين جنبيَّ، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله)[2]، حتى كان رضاها مقرونا برضا الله تعالى كما قال أبوها صلى الله عليه وآله: (إنَّ الله يغضب لغضبها، ويرضى لرضاها)، وانبساط روحه صلى الله عليه وآله متصل بانبساط سرائر روحها الطاهرة عليها السلام فهي أحبُّ الناس إليه، فقد تواترت المرويات عنه صلى الله عليه وآله: (إنّما فاطمةُ شَجَنَةٌ مني يُبسِطني ما يُبْسِطُها، ويُقْبِضُني ما يُقْبِضُها)[3].

---

(١) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق: ٦٤/ ١٥ ـ بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦.

(٢) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ـ الشلبنجي، مؤمن بن حسن بن مؤمن. تح: عبد الوارث محمد علي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١ ١٩٩٠:٤١.

(٣) كنز العمال ـ المتقي الهندي. علاء الدين علي بن حسام الدين. مؤسسة الرسالة. بيروت. ٢٠٠٤: ١١١/١٢.

ولدت عليها السلام يوم الجمعة في ٢٠ جمادي الثاني، وكانت أمُّها السيدة خديجة عليها السلام تخبر النبي صلى الله عليه وآله، وهي حامل بها عليها السلام: إن (الجنين الذي في بطني يحدثني، ويؤنسني)، فيجيبها صلى الله عليه وآله مبشراً: (هذا جبرائيل يبشرني أنها أنثى صلى الله عليه وآله وأنها النسمة الطاهرة الميمونة، وإن الله تعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة الأمة يجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه)، وما أن تزوج النور (علي) من النور (فاطمة)، حتى أنزلت السماء بركاتها، وتنفست الأرض الصعداء، واهتزت، وربتْ، ومالت بأعطافها زهواً، إذ سيرثها نسلهما المبارك، فمن صلب أشمٍّ، ومن رحم طاهرٍ ولد سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام، فكان يوماً خالداً في عمر الزمن، والسبط كما في لسان العرب (أي أمّة من الأمم في الخير، فهو واقع على الأمة، والأمة واقعة عليه)[1]، وهو أكثر ما يستعمل في ولد البنت، لذا كان مدخلاً لكثير من التساؤلات المشككة.

والأحرى بهذه التساؤلات أن تكون المحرك العقلي، والعقائدي، والشعوري لفكر الأمة، بحيث تختزل فراغ القطيعة الكامن في جفاء الحاضنة الفكرية للأمة من استلهام هذه التساؤلات كموجهات برهانية لمعرفةٍ يقينيةٍ: لِمَ يلقب ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو من صلب علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وهو سؤال فطري وجيه يقود إلى إثبات حجية الإمامة، وصحة خلافتهم من بعده، وهذه الحقيقة الناصعة التي لا يعيها إلا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وشرح صدره

(١) لسان العرب. ابن منظور (ت ٧١١هـ). دار إحياء التراث:٧ / ٣١٠.

للإسلام ينشرها الإمام الحسن عليه السلام أمام الناس، ليخرس ألسنة النفاق، والمرتابين، وترسيخاً لتلاقحه من الصفوة، والذروة التي لا يرقى إليها الطير، وتجذيراً لسيرة العترة في وعي الأمة، فقال: (أيها الناس اعقلوا عن ربكم، إن الله عز وجل اصطفى آدم ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم، فنحن الذرية من آدم، والأسرة من نوحٍ، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، وآل محمدٍ نحن فيكم كالسماء المرفوعة، والأرض المدحوة، والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونة، لا شرقية ولا غربية التي زيتها النبي صلى الله عليه وآله، وعليٌّ فرعها، ونحن والله ثمرة تلك الشجرة، فمن تعلق بغصنٍ من أغصانها نجا، ومن تخلف عنها فإلى النار هوى)[1]، لذا جاء الجواب مشفوعاً بأكثر من سند على لسان الرسول نفسه صلى الله عليه وآله: (ذرية كل نبيٍّ من صلبه إلّا ذريتي فمن صلب علي بن أبي طالب عليه السلام)[2]، أو قوله صلى الله عليه وآله: (كُلُّ بني أمٍّ ينتمون إلى عصبةٍ إلا ولد فاطمة فأنا أبوهم وعصبتهم)[3] وبما تفسره المرويات التي تحفُّ بآية المباهلة[4] في ضوء موجهاتها السردية، إذ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله: (الحسن والحسين عليهما السلام للمباهلة،

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٤٣/ ٣٥٨:

(٢) م ـ ن: ج٤٣/ ٢٨٤.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام ـ للحافظ الموفق بن أحمد بن محمد البكري الحنفي المعروف بـ(أخطب خوارزم) ت ٥٦٨هـ. تح: الشيخ محمد السماوي. أنوار الهدى. قم ط١: ١/ ١٣٧.

(٤) ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران آية ٦١.

فكانا ابنيه في ظاهر اللفظ، ودعا فاطمة عليها السلام وكانت المعبَّر عنها بنسائه، ودعا أمير المؤمنين عليه السلام فكان المحكوم له بأنه نفسه)[١]، وقال صلى الله عليه وآله: (اللهم هؤلاء أهلي)، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه)[٢].

ونقطة التساؤل هذه كانت مثار حنق، وحقدٍ، وحسدٍ من الأطراف الطامحة إلى خلخلة الحقائق، وتشتيت وعي الأمة، والسيطرة على أزمة النفوس الضالة وصولاً إلى مبتغاها السلطوي، لذا أرادوا نزعها، وتضبيبها، ومحقها بشتى الوسائل، فانكسرت شوكتهم على صخرة الخيبة، بينما قامت الحقائق الواقعية لتثبت مصداقيتها في مسار حركة الذات للأئمة، وهي تعي دورها الريادي، وفي حركة الرسالة وهي ترسّخ مصاديقها الفقهية، والعملية في ذلك الانتماء المحمدي، كونه يمثل استمرارية الرسالة الإسلامية في ترسيخ قيم السماء، وترجمة البيان القرآني إلى سلوك واقعي، ومعرفي من حيثيات التطبيق، ومن حيث الموجهات التأويلية لتعرية التنظيرات التي قامت على وهمٍ فكري، أو ميل عقائدي، أو توجه أيدلوجي من الإنحراف بمسار الرسالة.

وكان التصور التداولي لأقطاب السلطة الأموية، والعباسية مشحوناً بالغيظ، والحنق لهذه الحقيقة، وهي تشكك في مصاديقها، لذا انبرى هذا السؤال يتقاطر غيضاً على لسان هارون الرشيد للإمام الكاظم عليه السلام: (لِمَ

(١) تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام ـ الشيخ المفيد: ٢١ ـ ٢٣.
(٢) المستدرك. الحاكم النيسابوري ٣: ١٥٠. نظم درر السمطين. الزرندي الحنفي: ١٠٨.

جوّزتم للعامة، والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول اللهﷺ، ويقولوا لكم: يا بني رسول الله وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبيﷺ جدكم من قبل أُمّكم؟).

فقال الإمام الكاظمعليه السلام: يا أمير المؤمنين لو أن النبيﷺ نُشر فخطب إليكَ كريمتك، هل كنتَ تجيبه؟.

فقال الرشيد: سبحان الله! ولِمَ لا أجيبه، بل افتخر على العرب، والعجم وقريش بذلك.

فقالعليه السلام: لكنه لا يخطب إليَّ، ولا أُزوجه.

فقال: ولِمَ؟.

فقالعليه السلام: لأنّه ولدني ولم يلدكَ.

فقال: أحسنت يا موسى.

ثم قال هارون: كيف قلتم أنا ذرية النبيﷺ، والنبي لم يعقب، وإنما العقب للذكر لا للأُنثى، وأنتَ ولد الابنة ولا يكون لها عقب له؟.

قالعليه السلام: أسألكَ بحق القرابة، والقبر ومن فيه ألا أعفيتني عن هذه المسألة؟

فقال هارون: لا، أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد عليّ، وأنتَ يا موسى يعسوبهم، وإمام زمانهم، كذا أُنهي إليَّ، ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله، وأنتم تدعون معشر علي أنه لا يسقط

عنكم منه شئ ألف ولا واو إلا تأويله عندكم، واحتججتم بقوله ﷻ ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[١]، واستغنيتم عن رأي العلماء، وقياسهم.

فقلتُ: تأذن لي في الجواب؟، قال: هات..

فقلتُ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (ومن ذريته داوُد وسليمان، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس لعيسى أب، فقال: إنما ألحقناه بذراري الأنبياء صلى الله عليه وآله من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبَل أُمنا فاطمة)[٢].

وحين نستقرئ الأسانيد المروية عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نجد أن السيرة الحسنية تنأى لما قبل الوجود، لا في ضوء الرؤية الميتافيزيقية التي يختلط فيها الوهم باليقين، بل هي فيوضات العلم اللدني، وهو يرسم للأمة الفضاءات الروحية، والكرامات الإلهية لهذه العترة الطاهرة، وامتدادها قبل أن تتنفس الأرض هواء وجودها، وحجية التمسك بها، فقال: (لما خلق الله آدم أبا البشر، ونفخ فيه من روحه ألتفت آدم يمنة العرش، فإذا في النور خمسة أشباح سُجداً، وركُعاً، فقال آدم: يا ربِّ هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم، قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي، وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسة شققتُ لهم

---

(١) الأنعام:٣٨.

(٢) الاحتجاج ـ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي. دار الاتحاد الثقافي العربي. بيروت.ط١ ٢٠١٢: ٣/ ٥٨٢ـ ٥٨٣.

خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنة ولا النار، ولا العرش، ولا الكرسي، ولا السماء، ولا الأرض، ولا الملائكة، ولا الأنس، ولا الجن، فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا علي، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين.

آليتُ بعزتي أنّه لا يأتيني أحد بمثقال ذرةٍ من خردلٍ من بغض أحدهم إلّا أدخلته ناري ولا أبالي.

يا آدم، هؤلاء صفوتي من خلقي، بهم أُنجي، وبهم أُهلك، فإذا كان لك إليَّ حاجة فبهؤلاء توسَّل).[١]

وحين أوحى الله إلى جبرائيل أن اعقد عقدة النكاح، فقال: (يا محمد، وإن الله أمرني أن آمرك أن تزوج عليّاً في الأرض فاطمةٍ، وأن تبشرهما بغلامين زكيّين نجيبين طيِّبين طاهرين في الدنيا والآخرة)[٢].

فالمشروع الإلهي كان يُعدُّ في حجب الغيب، تتباشر به أهل السماء، وتتزين الجنان، وتشهد عليه الملائكة، ويتراءى لأهل الأرض، إذ تقصُّ أم الفضل رؤياها لرسول الله صلى الله عليه وآله: (إني رأيتُ في المنام كأنَّ عضواً من أعضائك سقط في حجري) فبشرها صلى الله عليه وآله: خيراً رأيتيه، تلد فاطمة غلاماً، فترضعيه بلبن قثم إن

---

(١) فرائد السمطين. المحدث الكبير إبراهيم الجويني الخراساني. تح: العلامة محمد باقر المحمودي. مؤسسة المحمودي.بيروت:١ / ٣٦ـ٣٧.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام. للحافظ الموفق بن أحمد بن محمد البكري الحنفي. طبعة النجف الأشرف سنة ١٩٦٥م:٣٤٢ـ ٣٥٤.

الله سبحانه وتعالى قد أمرني أن أسميه حسناً باسم ولد هارون شبّر، اللّهم إن هذا أبني وأنا أحبه، فأحبَّه وأحبَّ من يحبّه، من آذاه فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، إنّه ريحانتي من الدنيا، إن ابني هذا سيّدُ وسيصلح الله به بين فئتين عظمتين)[١].

فلما ولِدَ في السنة الثالثة من الهجرة في أجل الشهور وفي أيامه البيض وهو النصف من شهر رمضان[٢]، و(أنه لما حان وقت ولادتها بعث إليها رسول اللهﷺ أسماء بنت عميس وأم أيمن، فقرأتا عليها آية الكرسي والمعوذتين، وحدثت أسماء فقالت: قبلت فاطمة بالحسنعليه السلام فلم أرَ لها دماً، فقلت يا رسول اللهﷺ، إني لم أرَ لفاطمة دماً في حيضٍ ولا نفاس؟! فقالﷺ: أما علمتي أن فاطمة طاهرة مطهّرة، لا يرى لها دم في طمث ولا ولادة)[٣]، ثم حملته إليه في خرقة صفراء، وناولته إلى رسول اللهﷺ فقالﷺ: ألم أقل لكم لا تلفوه في خرقةٍ صفراء، بل لفوه في خرقة بيضاء، فأبدلها ثم أذَن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ووضع لسانه في فمه [٤].

وعقَّﷺ الحسن بكبشٍ واحدٍ، وأعطى القابلة منه الفخذ، ودعا الله تعالى:

---

(١) بحار الأنوار:ج٤٣/ ٢٤٢.

(٢) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. دار الفكر. بيروت ٢٠٠١م:١/ ٣٢٨.

(٣) تأريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ـ حسين بن محمد بن حسن الديار بكري (ت ٩٦٦هـ). مؤسسة شعبان.بيروت.١٩٩٠: ١/ ٤٧٠.

(٤) منتهى الآمال ـ الشيخ عباس القمي ـ مؤسسة النشر الإسلامي.قم ط١: ج١، ص ٤١٩.

(اللهم أجعلها وقاءً لمحمدٍ وآله)[١]، وحلقﷺ رأسه بيده الكريمة، وتصدّق بزنة شعره فضةً على المساكين[٢]، وطلى رأسه بالخلوق، ونهى عن طلي رأس الوليد بالدم فهو من فعل الجاهلية[٣]، وختنهﷺ في اليوم السابع، وروي عنهﷺ: (طهروا أولادكم يوم السابع، فإنه أطيب، وأطهر، وأسرع لنبات اللحم، وإن الأرض تنجس من بول الأغلف أربعين يوماً)[٤]

لا يمكن النظر إلى هذه الأفعال النبوية على إنها ممارسة عرفية تداولتها العرب، بل هي سننُ، وأنماط تربوية تضيء لنا المسار الحقيقي لموجهات الطهارة الخارجية للوليد، وتكريمه بما يغذي الحواس، وأثر هذه التغذية في تنمية مظاهر الإدراك البشري، وتنشيط العقل المتصل باستجابة الحواس لما يثيرها صعوداً إلى صقلها وتفعيلها باستجابة ثانية ليقظة الروح في استلهام البعد الجمالي الكامن وراء هذه الأنماط، وتجريد منظورها الحسي في شبكةٍ شعورية تستقطب ذلك البعد في أيِّ صورةٍ كان.

فللون كما أثبت علماء النفس والجمال قدرة على تشكيل لوحة الذات، بما يفرزه من إيحاءات دلالية، يترشح من شعاعه ما يفسر ذاته، فالسواد يتضاد مع

---

(١) تاريخ الخميس: ج١/ ٤٠٧.

(٢) نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار: الشبلنجي، مؤمن بن حسن بن مؤمن. تح: عبد الوارث محمد علي. دار الكتب العلمية. بيروت ط١ ١٩٩٧م: ١٠٨.

(٣) ن. م: ١٠٨.

(٤) تهذيب الأحكام ـ الشيخ الطوسي: ج٧/ ٤٤٥.

البياض في تفسير دلالته من حيث تأويلها للأشياء من الداخل والخارج، فحين استبدل النبيﷺ الخرقة الصفراء ببيضاء، مجسداً بذلك سنّةً تشرح ذاتها بذاتها، فالصفرة لون المرض والذبول واقتراب الموت، وهذا الوليد يمثل سرَّ الحياة، وهو يتدرج في معراج صيرورتها، ليمنحها سرَّ كينونتها، وجمالها.

هذا ما يخص حاسة البصر، أما حاسة السمع فقد أوقد نبوغها بالتكبير والتهليل والقيام (الله اكبر، لا إله إلا الله)، فمسَّ الصدى مأذنة الروح، فامتد تكبيرها يتوالى في صدى الثواني، والدقائق، وفي نبض الأيام، والأعوام، فرسخت في ذاته، وتجذّرت في أنفاسه، وجرى في مدارجها متفكراً، خاشعاً، حتى استشهد دونها، ثم انبجست حاسة اللمس والشم معاً عن مداركٍ لا تُحدُّ، فما أن وضع النبيُّﷺ لسانه الرطب بذكر الله في فمه، حتى تقطّر غيث النبوة في لسانه تسبيحاً وخشوعاً فنما في عروقه، وتماهى في دمه، ولحمه، وفي ذات يوم وهو مع جدهﷺ، وقد اشتد عليه العطش، فلم يجد ماءً، فأعطاه النبي لسانه، فمصه حتى روى[1]، فارتوت منابت الفطرة في سريرته، ومغارس الفطنة في بصيرته، فاكتملت مدارك الحواس، وشفَّ الوعي بروافد الإحساس، حتى فاضت بركات أنواره في أيدي الناس، وكان إذا أخذﷺ منه الشوق مأخذاً إلى رؤيتها، نادى فاطمةعليها السلام:

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. المتقي الهندي. علاء الدين علي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ) مؤسسة الرسالة. بيروت. ٢٠٠٤م:ج٧/ ١٠٥.

(ادعي ابنيَّ، فيشمها، ويضمَّها إليه)[١]، فيتنفسان منه عطر النبوة، ويستشعران نور الأبوة، فينشراه على الأمة يداً حانية، ومشكاةٍ هادية.

ولما للتسمية من دورٍ دلالي في تكوين ملامح الشخصية الربانية، خاصةً حين تكون اصطفاءً إلهياً، لا استجابةً لرغبةٍ بشرية ، فالاسم في فقه آل البيت عليهم السلام ينطوي على قصدية الإبانة عن مكنون الذات، وتأويل حضورها الباطني من منظوره الحسي، بوصفه علامة دالة تستبطن المسمى في ظاهر اللفظ، وفي باطن المعنى، فتصير بذلك موجهاً معرفياً في ضوء تلك الثنائية تستحضرها القلوب بمديات القرب من تلك الإبانة، التي هي نوع من الإخبار، إذ تتماهى الثنائيات في وحدة المعنى، فهم الذين (يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم)، لذ فسؤال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليٍّ عليه السلام: هل سميته؟ ينطلق من هذه القصدية المعرفية، التي يعي أسرارها أمير المؤمنين، قال: ـ ما كنتُ لأسبقك باسمه.

فقال صلى الله عليه وآله:ـ وما كنتُ لأسبق باسمه ربي عز وجل، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى جبريل أنه قد ولد لمحمد ابن فاهبط، فاقرأه السلام وهنئه، وقل له: سمه حسناً[٢].

---

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح ـ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) دار الفكر. بيروت ١٩٨٣: ٥/ ٦٥٧ ـ مسند أحمد بن حنبل ـ ابن حنبل. أحمد (ت ٢٤١هـ) مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٢ ١٩٩٩م :٣٦٩.

(٢) الأمالي: الشيخ الصدوق ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ). تح ونشر: قسم الدراسات الإسلامية. مؤسسة البعثة. قم المقدسة. ط١ ١٤١٤هـ: ص١١٦.

ولما نزل جبرائيل قال للنبيﷺ: إنّ علياً منكَ بمنزلة هارون من موسى فسمه باسم ابن هارون شبر، قال: لساني عربي، قال: سمه الحسن فسماه الحسن[١]، ومن هذا فبلاغة الاسم تفيض مضمونها بمكنونها، فإن كان مشتقاً من الحسن، فمظاهره دالة عليه، وإن كان مشتقاً من الإحسان فأفعاله شاخصة به، فمن الحسن بيان، ومن الإحسان برهان.

وللكنية في إيقاعها الدلالي نسغٌ يلتحم بالاسم، فيستضئ الواحد بالآخر، فكانت (أبا محمدٍ) ألصق الكنى به التي كناه بها رسول اللهﷺ[٢]، أما اللقب فله شأنٌ أخر قابل للتحولات، والتعدد في ضوء المصاديق الدالة عليه، فمن حيث سعة كرمه لُقِبَ بـ (كريم أهل البيت)، ومن حيث اجتبائه من قبل الله، لُقِبَ (المجتبى)، أو من حيث خصاله العبادية المهيمنة كالتقي، والزكي، والسيد أكثر الألقاب علوقاً به، وبأخيه الحسينعليه السلام، وانفتاحاً على موضوعهما المعرفي، يتجلى في حديث رسول اللهﷺ: (الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة)، وقد تشخص لمن لا يعرفه صفةٌ شكلية فيخاطبه بها، كما وصفه رسول معاوية الشامي (ذو الوفرة).

وروي أنه (أشبه الناس برسول اللهﷺ)[٣]، لذا خاطبه النبيﷺ، (أشبهت

---

(١) م.ن: ج٤٣/ ٢٣٨.

(٢) كتب ابن الأثير: قال أبو أحمد العسكري سماه النبيﷺ وكناه أبا محمد، ولم يعرف هذا الاسم في الجاهلية.

(٣) كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ الأربلي: أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٥٣٨هـ). دار الأضواء. بيروت. ١٩٨٥: ج٢ ٩٤

خَلقي، وخُلقي)[١]، وقد تجلت إشراقات ذلك الشبه منذ الصغر، وبدأت تتمظهر حسياً، وتتسامى خلقياً، كلما اخضر عود الشباب فيه، حتى اكتملت مع الصلابة الرجولية لذلك العود الذي هو فرع من شجرة النبوة، وأشرق ذلك الألق المحمدي في شغف العيون لرؤيته، فكانعليه السلام: (أبيضاً مشرباً بحمرة، أدعج العنينين، سهل الخدين، دقيق المسربة، كثَّ اللحية، ذا وفرة، وكأنّ عنقه أبريق فضة، عظيم الكراديس، وبعيد ما بين المنكبين، ربعةً ليس بالطويل، ولا القصير، مليحاً من أحسن الناس وجهاً، وكان يخضب بالسواد، وكان جعد الشعر، حسن البدن)[٢]، وقد روى البخاري في صحيحه، يرفعه إلى عقبة بن الحارث، قال:ـ صلى أبو بكر العصر، ثم خرج يمشي، ومعه عليعليه السلام، فرأى الحسنعليه السلام يلعب بين الصبيان، فحمله أبو بكرٍ على عاتقه، وقال:

**بأبي شبيهُ بالنبي ليس شبيهاً بعلي**

وعليٌّعليه السلام يضحك، وروى الجنابذي هذا الحديث، فقال:

**بأبي شبه النبي ليسَ شبيهاً بعلي**

قال، وعليٌّعليه السلام يتبسم[٣]، ورغم ما تحمله هذه الرواية من حب الصحابة

---

(١) تاريخ اليعقوبي ـ اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٧٨هـ).دار صادر. بيروت ١٩٨٤م: ٢ / ٢٠١.

(٢) كشف الغمة: ج٢ ٩٤.

(٣) بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج ٤٣ / ٣٠٠

لعترة النبيﷺ إلا أنها تظهر أن سياق الأحداث لما بعد قضية السقيفة لم تتأزم، وكأن عليّاً عليه السلام لم يعتزل في بيته بعد تفنيد ميراث فدك، وغضب الزهراء عليها السلام على مانعيها إرث أبيها، واتساع ذلك التوتر المتأزم، وانكشاف الرواية عن استرسالٍ، وصفاءٍ شعوري لم تعكره أمورٌ كانت فادحة في مظاهرها الآنية، ونتائجها المستقبلية.

وعاش الإمام الحسن عليه السلام مع الرسول الأعظمﷺ زهاء سبع سنوات من حياته، هي من أسعد أيام حياته، فكان يعيش في كنف الرحمة الإلهية كما يصفه القرآن ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، يتنفسها عبقاً أزلياً، ويستسقيها رحيقاً كوثرياً، ويصغي لها نبرةً حانيةً، وترنيمةً ذكرٍ ربانيةً، ويتشرّبها ماء علمٍ رُوِقَ من الكدر يختزل الكون بقطرة، وفيضاً لدنياً يختصر الأسرار بفكرة، ويلثمها روحاً، شفَّ هيكلها المادي فصار نوراً يعرجُ به إلى ملكوت الله ويعانقهﷺ بكلتا يديه، أو يحمله على كتفه الشريف، فتنفتح الآفاق أمامه عن أسرارٍ ومعارفٍ حُجِبت عن غيره، وتكشفت له، ويبصر الأرض تنثني فرحاً على وقع خطاه، والكائنات تناجي خالقها شكراً، وتسجد خاشعةً، والأشجار ترخي بظلها عليهما، تتخللها نسائم تتزكى بعطرهما، وتنشرها على عطش الورى غيثاً تضوّع بعبق الجنان، ويشاركها بصلاة الشكر، فيقول: «اللّهمَّ إنّي أُحبُّه فأحِبَّه»، وتمر الناس بين يديه، فتصغي له، وهو يقول: (من أحب الحسن

(١) الأنبياء: ١٠٧.

والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني)[١]، وكان يرد على من يمنعهما بنبرة الأبوة، ويقول: دعوهما بأبي وأمي من أحبني فليحب هذين [٢]، وقالﷺ لعمران بن الحصين: (إن لكلِّ شيءٍ موقعاً في القلب، وما وقع موقع هذين الغلامين ـ أي الحسن، والحسين ـ من قلبي شيء قط، فقلتُ: كل هذا يا رسول الله، قالﷺ: يا عمران، وما خفي عليكَ أكثر إن الله أمرني بحبهما)[٣].

فالحب والبغض رغم تضادهما فهما مجتمعان في النفس البشرية، ومتداخلان لا شعورياً في صياغة الوعي العاطفي، والعقائدي، فحين تحب أهل الحقَّ فأنك تنتصر له، وتبغض الباطل، لذا قرن الرسولﷺ محبتهما سبيلاً لمحبته، وبغضهما مبرراً لبغضه، فكان حبُّهما قرين رضا الله ﷻ، فهو على درجات فمنه ما كان بالقلب، ومنه ما كان بالقلب واللسان، ومنه ما كان بالقلب واللسان، واليد، وكلما أتسع هذا الحب وأخذ صورة الحب لله تعالى يصل بصاحبه إلى ذروة الفداء، والشهادة فقد أبى محبيهم التبري من هذا الحب، فكان الثمن حياتهم.

---

(١) المسند ـ أحمد بن حنبل: ٢/ ٢٨٨. ــ صحيح ابن ماجة: ج١/ ٥١.

(٢) سنن البيهقي ـ السنن الكبرى ـ البيهقي. أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ) مكتبة دار الفكر. بيروت. ١٩٩٦م: ج٢ / ٢٦٣.

(٣) سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار ـ الشيخ القمي، عباس بن محمد رضا. دار أسوة للطباعة والنشر. قم المقدسة. ط٤/ ١٤٢٧هـ: ج١ ٢٥٧.

وكان حبهما معراج رحمته، وبغضهما مهواة نقمته.

ولأنَّ تسمية الإمام الحسن عليه السلام لم تجرِ على لسان من قبل، ولم تبتدعها ذات بشرية، بل هي تكريم من قبل ربِّ العزّة لحاملها، اشتقها من اسمه تعالى، مفسرةً في سموها الدلالي ماهية الإمام باطناً، و ظاهراً، ومنطويةً على قصدية بيانية تغذي الوعي الجمعي بهاجسٍ معرفي يسترسل في تقصي مضمرات الدلالة، لذا حاول بنو أمية تحريفها، أو تضبيب مدارها الروائي، وصرف الوعي عن هذه القصدية، وتعطيل فاعليتها، على أساس أن علي بن أبي طالب عليه السلام سمى الحسن عليه السلام جعفراً تيمناً بعمه، أو سمى أغلب أولاده كما ينقل ابن عساكر (حرباً)، متناسياً أن أبغض الأسماء إليه عليه السلام صخراً، بل ويجترح لها تعليلاً هشّاً: فعن يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال، قال علي عليه السلام: (كنت رجلاً أحب الحرب، فلما ولد الحسن هممت أن اسميه حرباً فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن، فلما ولد الحسين هممت أن اسميه حرباً، فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله الحسين)[1]، أو (أن علياً لما ولد ابنه الاكبر سماه بعمه حمزة، ثم ولد ابنه الآخر فسماه بعمه جعفر، قال: فدعاني النبي صلى الله عليه وآله، فقال: إني قد أُمرت أن أغيّر اسم ابني هذين، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فسماهما حسناً وحسيناً)[2]، وكأن التغيير جرى بعد ولادة الحسين عليه السلام

(١) المعجم الكبير ـ الطبراني. أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي (ت ٣٦٠هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٩٩٦: ٣ / ٩٧.

(٢) ترجمة الإمام الحسن عليه السلام ـ تاريخ ابن عساكر: ١٥.

بفترة، أوحين نقتطع رواية أخرى على لسان (سورة أو سودة[١] بنت مشرح)، وكان ممن حضروا ولادة الحسن عليه السلام، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما سميته يا علي؟، قال: سميته جعفراً يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: لا، ولكن حسن وبعده حسين، وأنت أبو الحسن الخير)[٢]، وهذ التوليف السردي لا ينهض أمام مرويات آل البيت عليهم السلام أنفسهم، فالتسميات صدرت قبل ولادتهم، ونُقِشت على ساق العرش، وفي لوح النور، وشقَّ الله لهم من أسمائه (فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا علي، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين).

وبهذا تسقط التوليفات المصطنعة لهذه الروايات، وتنهض أفعال تكريمية أُخرى من لدن رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ أمر بحلق رأسه، وتصدق بوزنه[٣]، وعقَّ عنه بكبشين أملحين [٤]، وكأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أراد لأمته أن تنهج سلوك المحبة لأهل بيته عليهم السلام، وأن تتجاوز بهذه الأفعال براثن العادات الجاهلية العالقة بالنفس، وأن تعظم قدرهم ليعلو شأنها، فحين يحمل الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي الأندلسي (ت ٤٦٣هـ) دار الإسلام. عمان. ٢٠٠٢م: ٤/ ١٨٦٩.

(٢) المعجم الكبير ـ الطبراني: ج ٣/ ٢٣ـ ٢٤.

(٣) الطبقات الكبرى ـ أبن سعد الواقدي، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت ٢٣٠هـ) ـ تح: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١ ١٩٩٠م: ٣٠.

(٤) سنن أبي داود: الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ) تح: سعيد محمد اللحام. دار الفكر. بيروت ط١ ١٩٩٠م:ج١ / ٢٤٨.

الحسن على عاتقه، فيقول رجل:ـ نعم المركب ركبت يا غلام، فيستدركهﷺ:ـ ونعم الراكب هو) [١] مظهراً بماهية المدح كينونة الممدوح، واتصال الذاتين، وعلوقهما في وشيجة القربى، ووحدة المعنى، ومفسراً قولهﷺ: (حسن مني وأنا منه)[٢].

أو حين يخطبﷺ بالمسلمين في المسجد، وقد صعد الحسنعليه السلام إلى المنبر، فتناوله رسول اللهﷺ، ووضعه على عاتقه، فكان بريق خلخاله[٣] على صدر النبيﷺ يُرى من أخر المسجد، وبقي كذلك إلى أن انتهى النبيﷺ من حديثه[٤]، ليُري الناس عظمة هذا الفرع المحمدي الذي تفيض محاسنه على الناظر إليه سروراً ينفذ إلى خلجات اللاوعي، فكأنه يلج بروحه مطارح الجنان، يتنفس عبقها، وتبهره أنوارها، ويؤكد هذا رسول اللهﷺ فيقول: (من سرَّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة، فلينظر إلى الحسن بن علي)[٥] أو يتخذه النبيﷺ شاهداً على بعض عهوده، رغم صغر سنّه كما ذكر الواقدي: أنّ النبيﷺ عقد عهداً مع ثقيف، كتبه خالد بن سعيد، وشهد عليه الحسن،

---

(١) سنن الترمذي: ج٥/ ٦٦١.

(٢) ميزان الحكمة ـ محمد الريشهري: ج١/ ١٥٦.

(٣) لا أتصور أن الحسنعليه السلام يلبس خلخالاً.

(٤) حياة الإمام الحسن: ص٦٨.

(٥) البداية والنهاية في التأريخ ـ تأريخ ابن كثير ـ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) تح: مكتب تحقيق التراث. دار إحياء التراث العربي. بيروت ـ ١٩٩٣م: ج٨ / ٣٧.

والحسين عليه السلام، وهذا يعني أن ما ينسب إلى الحسنين عليهما السلام من ملاعبة الصبيان وإن كان لا يقلل من شأنهما، ولكنه ينافي أمارات الفهم، والأفق المعرفي الذي ينطويان عليه، إذ كان متصلاً بالملكوت، ومشغولاً بالتفكر، ومغموراً باقتباس أنوار الطاعات التي لا تنقطع في رحاب البيت النبوي، فهما مأخوذان بأفعالهما العبادية، من تلاوةٍ للذكر، وصومٍ في النهار، وتهجدٍ في الليل، تقودهما بعيداً عن اللهو، واللعب، والغفلة، وكان الحسن عليه السلام يتأسى بأهله في فعل الخير، وبذل المعروف، لم يصرفه عن السمو به صغر سنه، أو ضعف بدنه، بل هي سجية نما عليها عوده، وفطرة جُبلَ عليها، فكانت سرَّ وجوده، لم يدنسها رنق الأهواء، ولا ران عليها الكدر، ولا أطفأتها الغفلة، ولا ماس بها العُجب، ولا رام بها عزَّ الدنيا، بل وجه الله تعالى، فكان من الذين خصتهم الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[1]، وممن خصّوا بنور الطهارة، وشملتهم آية التطهير، والتصفية على المستوى التكويني، والتشريعي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] فكانوا مصداق تأويلها في سياق تنزيلها، وإلى جانب هذه المصاديق الإلهية الدامغة، كان النبي صلى الله عليه وآله ماضٍ إلى توثيقها أمام الملأ مراراً، وتكراراً وهما لم يبلغا الحُلُم، صادعاً بقوله صلى الله عليه وآله:

---

(١) الإنسان: ٩.

(٢) الأحزاب:٣٣.

(الحسن، والحسين إمامان قاما أو قعدا)[١].

فكان لحضور النبيﷺ في حياتهما ما يؤنس الروح بانعتاق الجوارح من عطش الماء للماء، والنور للنور، فهو الرسول والرسالة، وهم ذرية بعضها من بعض، ذخرهم لأيامٍ عجاف سترعف فيها أنوف الغواية عن نعرةٍ جاهليةٍ ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر.

لذا قوّمَ نفسه بحرّ الصيام، وجشب الطعام، وطول القيام، فضاء اللفظ بنور معناه حتى استقام، فهو من آل بيتٍ لا يقاس بهم أحد، مجّوا حبَّ الدنيا، واستعدوا للقاء ربِّهم، وتدراكوا يومهم صوامين نهاره قوامين ليله، ينظرون بعين الله، إذا نهضوا للصلاة، ارتعدت فرائصهم، وذابت قلوبهم، وغُشي عليهم من الوجد.

وكان الإمام الحسنعليه السلام يستدرك، ويتبصّر مظاهر التكريم الإلهي التي خُصّ بها البيت المحمدي بغريزةٍ شعورية تجري مجرى الألطاف الربانية في عروقه، فتتشربها روحه، وعقله، وجوارحه وهي تجمعهم في كنف الرسالة، وكساء المحبة، وعبق النبوة، فيتذكر حين جمع جده رسول الكريمﷺ أباه وأمّه وأخاه وهو معهمعليهم السلام وجبرائيل تحت الكساء فقال: (هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأمُّ سلمة على الباب فقالت: يا رسول الله ألستُ منهم؟ فقال: إنكِ لعلى خير أو إلى خير)[٢]، وتجري على لسانه وهو

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ٤٤/ ٢.

(٢) تاريخ بغداد. أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ). تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية.بيروت.ط١ ١٩٩٧: ١٠/ ٢٧٨.

يحتج على الأمة التي قطعت أواصر القربى، ونست أن هذه الألطاف تجري باشراقاتها الرحمانية عليهم فتضيء لهم الطريق إلى الله تعالى، وتوجب لزوم مودتهم فقال: (وإنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا وإنا من أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)[١].

وكان يرى أن غيث النبوة قارب أن يستدركه الأجل، وشمس الأبوة أن لها أن تغيب، وتلتحق الروح التي تسع الكون إلى بارئها، فهامت فراشات روحه تلثم نور وجههﷺ، وقد عُصبت رأسه بعصابة صفراء، والناس من حوله، وجيش أسامة بن زيد مازال متأرجحاً على مشارف المدينة، والوجوه ترصد أفق الأحداث بعينٍ قلقة، في تلك اللحظات الأخيرة من عمره، وهو يجود بروحه الطاهرة، أقبل الحسن، والحسينعليهما السلام مذعورين يصيحان، ويبكيان، حتى وقعا على رسول اللهﷺ وهو مغشي عليه من شدة الوجع على فراش الموت، فأراد عليعليه السلام أن ينحيهما عنه، فأفاق الرسول الكريمﷺ، وقال: (يا علي دعني أشمهما، ويشماني، وأتزود منهما، ويتزودان مني، أما إنهما سيظلمان بعدي، ويقتلان ظلماً، فلعنة الله على من يظلمهما، يقول ذلك ثلاثاً)[٢].

.... لحظات، وانقطع الصوت الملكوتي الذين كان يتلو على مسامعهم القرآن، ويناجيهما بلسان أبوته، وينهلان مواعظه، أويخاطبهم، وهو ماض

---

(١) المستدرك للحاكم النيسابوري:٣/ ١٧٢.

(٢) الموسوعة الكبري عن فاطمة الزهراءعليها السلام. الأنصاري الزنجاني:ج١٤/ ٣.

لصلاة الصبح منادياً: الصلاة يا أهل بيت النبوة، وظل الصدى يتوالد في سمع الروح، وفي عطش الحواس، إذ توفى النبي صلى الله عليه وآله، والتحق بالرفيق الأعلى، ونور محبته يضفي على الوجود نبرة العزاء، وعلى النفوس دمعة الأسى، فضجت المدينة بالنواح، والبكاء، واحتوى البيت المحمدي شعورُ جماعي غريبٍ من الحزن، وكان الحسن عليه السلام يستقرئ ما سيخلّفه ذلك الرحيل من ملامح فتنٍ راحت تتراءى أمام بصيرته، تنسجها الأطماع، وتنتضي لها أزمة الرعاع التي تحتج بمتشابه النص على محكمه، وبتأويل القرب بعيداً عن معنى القربى، وما يثيره فراقه من غربةٍ، وإحساسٍ باليتم، وأسىً في قلوب العترة الطاهرة، وخاصةً عليه، وعلى أخيه، وعلى أمِهِ الزهراء عليها السلام التي بدأ عودها يذوي، وإحساسها بالحياة يتداعى، وراح يفترسها هجير البعد، والحنين، ومظلومية قومها لها، فكانت لا تسلو إلا بالبكاء، والصلاة، والدعاء، وكان الحسن عليه السلام يرافقها مع أخيه الحسين عليه السلام إلى بيت الأحزان، ويشاركاها البكاء، عارفاً إن ما يعتريها هو خلجات الروح التي غمرها حزن المتبصرين، وشجن الواهين، وشوق العارفين، لا تبرماً بقضاء الله تعالى، حتى أذا لاحت لها تباشير اللحوق به، واستشعرت الموت يخطو باتجاهها مستأذناً وجدها مستعدة للرحيل، مستبشرة بقدومه، وبدنو لحوقها بحبيب روحها المصطفى صلى الله عليه وآله فاستدعت أمير المؤمنين عليه السلام لتدوين وصيتها، تغمر وجهها غلالة نورٍ ملائكيٍّ شاحبٍ، يضفي عليها خشوع الواهين، وولهه الموقنين، ويستشعر أبو

الحسن عليه السلام أن الظلام المتواري خلف تلك الغلالة، سيهجم عليه كالوحش الضاري، ويمزقه بمخالب الفراق، ويردد في نفسه: (فقد الأحبة غربة)، فالبطل الذي ارتعدت منه فرائص الموت، وتخلّعت منه الأكباد في سعير الهيجاء، هاهو يتهاوى أمام نظرات الوداع الأخيرة لريحانة النبيِّ صلى الله عليه وآله، ونبرات صوتها المبلولة بالحزن، وهي توصيه: (يا بن عمّ، ما أراني إلّا لِما بي، وأنا أوصيك أن تتزوج بنت أختي تكون لولدي مثلي، وتتخذ لي نعشاً فأني رأيت الملائكة يصفونه لي، وأن لا يشهد أحداً من أعداء الله جنازتي، ولا الصلاة عليَّ)[1] و(ادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار)[2]، وفي يوم الثالث من جمادي الأخرة شعرت الزهراء عليها السلام بقرب اللقاء، فأخذتها نشوةٌ من سرورٍ خفي، لذا غسّلت الحسن، والحسين عليهما السلام، وضمتهما إلى صدرها بعمق، وأجهشت بالبكاء، وأخرجتهما إلى زيارة قبر جدهما منفردين، تتقاذفهما أسئلة الشك، وأمواج القلق، وهما يرقبان انحلال ذلك الكيان المشع بالجلال، والعنفوان، كشمعةٍ أُحيط بها، يتآكلها ظلام المرض، والفراق، والحسرة، ويبصران ضوءها المرتعش، الذابل، وهو يمدُّ يد الرجاء إلى السماء لينصهر في دوحة النور التي أشرقت بنور ربِّها، ولتذرف هناك دموع ظلامتها بين يدي أبيها صلى الله عليه وآله، فما أقسى أن لا ترافقهم أمهم في هذه الرحلة اليومية المألوفة، أي

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٣٢٢.

(٢) فاطمة من المهد إلى اللحد ـ كاظم القزويني. المطبعة العلمية ـ قم ١٤١٤هـ:٥٠٧.

وحشةٍ يعيشها سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأي قلقٍ يروعهما خشية أن ينكسر ذلك الفراق المؤجل على ديمومة الفراق، وتهيأت الزهراء عليها السلام للحظة الشهادة، فاغتسلت بماءٍ طاهرٍ، وارتدت ثياباً جديدة، ودعت سلمى بنت عميس وكانت تمرضها، أن تفترش لها فراشاً وسط البيت، فذُهلت، وقلقت، فراحت تتعثر بأذيالها مذهولة، وافترشت لها، فاستقبلت القبلة، واستسلمت جوارحها لملك الموت، وخاطبتها بلسان الأمومة: (يا أمه.. إني مقبوضة الآن، وقد تطهرت، فلا يكشفني أحدُ)[1]، وذُهلت سلمى، ماذا تقول إذا عاد الحسنان صلى الله عليه وآله؟، وما أن طرقا الباب، حتى سألاها قلقين: أين أمنا يا سلمى؟، فأجهشت بالبكاء، وشاركتهم العزاء، وقالت: (يا سيديَّ، إن أمكما قد ماتت.. فاخبرا بذلك أبوكما)، فكبروا، واسترجعوا، وتحوقلوا، وتهاووا على الجسد المسجى باكيين، وانطلقا بعد ذلك إلى المسجد يعلوهما البكاء، والحزن، فحين عرف المسلمون ما جرى ضجت المدينة بأسرها باكية، وغمرها الحزن كيوم قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، وارتسمت أمام أعينهم مظلومية أهل البيت عليهم السلام، فبأيِّ جفاءٍ قابلوهم، وبأيِّ نصل غدرٍ بتروا حبل مودتهم، ونداء الرسول صلى الله عليه وآله لم يجف صداه في أسماعهم، وهو يكرر: (أُذكركم الله في أهل بيتي)، فانثال المسلمون سراعاً إلى بيت الإمام علي عليه السلام تعلوهم سحابة من الأسى، والحزن، تذروا رمادها على رؤوسهم ندماً، وتزاحموا على الباب لتشييعها بنظرة الوداع،

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦/ ٤٦١.

فأُمروا بالانصراف من قبل الإمام علي عليه السلام، وقام عليه السلام بتغسيلها، وتطييبها بالحنوط، وأدرجها في الأكفان، ودعا بنيها للتزوّد منها بنظرة الوداع، ثم يحملها أمير المؤمنين، والحسنان عليهما السلام في دجى الليل الذي انكسفت نجومه، وتوارى قمره مع صفوة من المؤمنين كالعباس، وأبي ذر، وعمار، وسلمان، ونفر من بني هاشم ولم يشيعها، أو يصلي عليها أحدُ من الذين ظلموها، وسلبوا إرثها تنفيذاً لوصيتها، ووارى قبرها واختلفت الروايات في موضع دفنها[1].

وعاد المشيعون، ولم يبقَ إلّا آل النبي عليهم السلام، حينها وقف الإمام علي عليه السلام يبث نجواه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكأن بلاغة الروح المفجوعة أفرغت لواعجها المريرة بنبرة حزنٍ، وتشكي في سمع الحسنين عليهما السلام، فتلمسا في ذلك الأسى المتجذر حجم المظلومية، والهم، والصبر الذي يحمله أبيهما على كاهله، وهو يقول: (السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك، قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورقَّ عنها تجلدي، ألا أن في التأسي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد،

(١) من لا يحضره الفقيه ـ الشيخ الصدوق ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ط١ ـ ٢٠٠٥م: ٢/ ٥٧٢، (فمنهم من روى أنها دفنت في البقيع، ومنهم أنها دفنت بين القبر والمنبر، أو أنها دفنت في بيتها).

وأما ليلي فمُسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفّها بالسؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخلُ منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودعٍ لا قالٍ ولا سئم، فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد الله الصابرين)[1].

ثم حمل الإمام عليه السلام بنيه قافلاً إلى الدار، تعلوهما سحابة من الحزن، وكاد أن يعتزل الناس لولا حاجة الأمة إليه، وقد استفرغ جلَّ وقته للعلم، والعبادة، وقضاء حوائج المحتاجين، والأرامل، في الليل، والنهار، والإمام الحسن عليه السلام رغم صغر سنه كان عالماً، متفكراً يستلهم بوعي الإمامة من مخاضات هذه الأحداث الجسام الصبر على البلاء، وصلابة الإيمان، وصفو البصيرة، وحقيقة الزهد، ورحمة الأبوة، ومرارة اليتم حتى يكون مرآةً لها تعكس اشراقاتها في ضمير الأمة، وكان أمير المؤمنين يجلوها بين الحين والآخر أمام الناس مشيراً إليها، ودالاً على ماهيتها، وقادحاً لمشكاة بلاغتها، وآيات عرفانها، فحين يرقى أعرابيُ إلى مجلس أبي بكرٍ، وقد ضاق عليه أفق الجواب لسؤاله، فقال: (إني أصبت بيض نعامٍ فشويته، وأكلته، وأنا محرم، فما يجب عليَّ؟) فلمّا عَجز الحاضرون عن إجابته، فزعوا كلهم إلى الإمام علي عليه السلام، الذي خاطب الإعرابي، ليُري الأمة إن ثمار العلم الذي لا تناله الأيادي، ولا تدركه العقول بالطلب، والاجتهاد، هو من نتاج هذه الشجرة من قريش التي

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ج١٠/ ٢٦٥.

اختصها الله دون البرية: (سلْ أي الغلامين شئت، وأشار إلى الحسن والحسين عليهما السلام)، ومال الأعرابي بوجهه إلى الحسن عليه السلام، فأعاد عليه السؤال، فقال عليه السلام: ألك إبلٌ؟

قال: نعم.

قال: (فاعمد إلى ما أكلت من البيض نوقاً فاضربهن في الفحول، فما ينتج منها، اهده إلى بيت الله العتيق الذي حججت إليه)، فالتفت إليه أمير المؤمنين مستدركاً بقصد، فقال: (يا بنيَّ إنّ من النوق السلوب، وما يزلق)، فأجابه الحسن عليه السلام متيقناً: (يا أبة إن يكن من النوق السلوب، وما يزلق، فإن من البيض ما يمرق)، فتبسّم الإمام علي عليه السلام كاشفاً لمن حضره أنهم ورثة علم الأنبياء، تنثال به قرائحهم عفو الخاطر، فيلقح العقول، وتأنس له القلوب، وتحمله ألسنة الركبان، فقال عليه السلام مباركاً ومنبهاً: (معاشر الناس.. إن الذي فهمه هذا الغلام هو الذي فهمه سليمان بن داود)[1].

فكانوا مفزع الأنام في ري أكفهم، وقلوبهم، وعقولهم إذا أجدبت الأرض، وقسا الدهر، واستغلظ الجهل، والأساس الذي قامت عليه ركائز الإسلام، واستنباط الأحكام، وإزالة اللبس، لا تخفى عليهم خافية في متشابه النص ومحكمه، والمستحدثات من الأمور، يعلمون ما كان، وما سيكون، وما

(١) مناقب آل أبي طالب ـ محمد بن علي بن شهراشوب ( ت ٥٨٨هـ) شرح لجنة من الأساتذة. المكتبة الحيدرية. النجف ١٩٥٦: ٢ / ١٥٠.

تضمره الأيام، وتخبئه السنون، وكانوا يلتمسون أبلغ السبل التربوية في إيصال المعرفة، وتأويل الحقيقة، فإذا أراد أن يهدي أحد رعيته إلى منهج الصواب، لم يعاجله بلسانه مُخطئاً إياه، فيشعره بالحرج، ويسبب له ألماً خفياً، بل يفتح له أفقاً معرفياً للمقارنة، واستنباط الحكم، والاستدلال بنفسه على جهلهِ، ففي يومٍ ما مر الحسنان عليهما السلام بشيخٍ لا يحسن حدَّ الوضوء، فعزما أن يعلماه الطريقة الصائبة ولكن بأسلوب تتجلى فيه بلاغة الإمامة، وتنفذ إلى ما يسمو بالعقل، والشعور معاً، فاختلقا نزاعاً بينهما، أيهما أصح وضوءاً، حتى أن الشيخ سمع حديثهما، فقال أحدهما: وضوئي صحيح، ووضوئك غير صحيح.

وقال الآخر نفس قوله، فجاءا إلى الشيخ ليحتكما عنده، فقال: نحن نتوضأ أمامك، وانظر أينا أصحُّ وضوءاً، فتوضئا وضوءاً صحيحا أما م الشيخ، فانتبه الشيخ إلى وجه الحكمة التي يضمرها النزاع بينهما فقال مستأنساً: كلاكما تحسنان الوضوء ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما [1].

وحين بلغ الإمام الحسن عليه السلام مبلغ الشباب، وصَلُب عوده، استظهرت قواه الجسدية، والبيانية، والعقلية بلاغة أُخرى تشكلها، وترسم معالمها الجمالية، ودلالاتها الربانية الروح القيادية تغذيها شجاعته التي تحاكي شجاعة

(١) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير- عبد الرؤوف المناوي، محمد الشافعي (ت ١٠٣١هـ) تح: أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية.بيروت.ط١. ١٤١٥هـ: ٢/ ٣٢٨.

جدهﷺ، وأبيهعليه السلام، ومنطقه البياني، وصلابته في المواقف المهولة، فتنعكس آثارها في انثيال الناس عليه، وتعلقهم به، وهيبتهم من طلعته البهية، وتواضعه حتى قال واصل بن عطاء: (كان عليه سيماء الأنبياء، وبهاء الملوك)[1]، وأرى أن ابن عطاء لو اكتفى بالأولى كان أبلغ لأنَّ بهاء الملوك بهاءً سطحياً مزيفاً لا يرقى بحقيقة سيد شباب أهل الجنة.

وكان الإمام عليعليه السلام مطلعا على مزايا هذه الروح الطاهرة، فكان يستعين به في ترويض النفوس الجامحة من رعيته، وقادته، وسد الثغرات، وإصلاح ما بعُد عن يديه، وتثبيت دعائم مملكته، وهداية الأمة، بقدح الهمة، ورأب الثلمة، فالقيادة الميدانية التي يعهدها في الإمام الحسنعليه السلام ليست وليدة الحاجة الآنية، أو التشكل التدريجي القابل للتطور في ضوء التجارب، وتكرارها، وذلك لأن الكمال المعرفي حين يستوعب تلك التجارب من محيطها الخارجي لا تزيده كمالاً بقدر ما تستظهر ذلك الكمال إلى حيز المشاهدة، وتوثيقه، حتى لا يبقى حبيس الصدور، تتلمس النفوس آثاره، وتدرك ماهيته العقول بحسب طاقاتها الإدراكية، ومقدار انجذابها له، فالبلاغة النورانية التي يفيضها فعل الإمامعليه السلام مقرونة بالجعل الإلهي من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[2]، فهي من تجليات العصمة،

(١) مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهراشوب: ٣ / ١٧٦.
(٢) الأنبياء: ٧٣.

ومن مصاديق الحكمة في تأويل المعرفة إلى معروف، والصفة إلى موصوف، مادامت عقول الناس قاصرة عن إدراك جوهر ذلك الكمال، إلا بتحوله إلى أفعال، وأقوال، تدعو الذات الإنسانية إلى التفكر، وتصحيح مسارها، والارتقاء به.

فالخطب التي صرّح بها الإمام الحسن عليه السلام أمام الملأ، كانت تنطوي على بلاغة التبصّر، وترسيخ الحقيقة التاريخية بلا تزويق لفظي، أو تكثيف انفعالي يصرف الذهن بعجالة إلى الانفعال بها، بل الوثوق من تلك الحقيقة، وتفسيرها، وهي تتعرى، وتشف عن مكنونها في حدود العقيدة، وفي كينونة الصراع بين الحق، والباطل.

فلما بلغ الإمام علي عليه السلام المشروع التآمري لأبي موسى الأشعري في تثبيط عزائم أهل الكوفة عن المسير إلى حرب الجمل بدعاوى باطلة، أرسل عليه السلام خُلص أصحابه لتعبئة الناس، وتخليص نياتهم مما علق بها للحوق به، كمحمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وهاشم المرقال، فباءت جهودهم بالفشل، حينها أرسل ابنه الحسن عليه السلام ومعه عمار، على جناح الريح لشل حركة أبي موسى، وتعبئة النفوس للمسير، وأرسل معه كتاب عزله، وتعيين الصحابي الجليل قرضة بن كعب مكانه، فما أن وصل الكوفة حتى انثالت عليه الناس حائرة، تتلمس من نور بلاغته ما تهتدي به، قاصماً ظهر الفتنة، وعاقرا سنام الحيرة، والتضليل لتجد السبيل، وتهتدي بالدليل، فقام بهم خطيباً: (أيها

الناس.. قد كان من مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنفرين، لأنكم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب، وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما، وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم، وتعلمون أن وهن النساء، وضعف رأيهن إلى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء، وايم الله لو لم ينصره منكم أحدٌ لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين، والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم).

كان يضرب بكلامه على وتر الإيجاز، نافذاً إلى الجوهر المعرفي الذي تنصاع له النفس الحائرة، فهو يعي ما بلغهم من الفريقين، مضيئاً بهذا الوعي عتاباً مضمراً لهم، فهم الذين أقامهم معروف عليٍّ عليه السلام على معرفة حقيقته، فبان لهم بأن يقين صولته لم تنهض بأذيال الغدر، والجهل بما يريد، ولم تستجدِ نفور من لا سابقة له، ولا علم، ولا مروءة وأنتم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب، وناشراً لهم ما قد علموه من غدر من نكثا بيعتهما، وإخراجهما لما لا يحل لهم، وهي عائشة حجةً عليهم، لأن الله جعل الرجالَ قوامين على النساء، ثم أقسم لهم إن نصرتهم إن لم تكن لله فلا خير فيها، وهذا ما أكده في خطبةٍ أخرى، حيث النفوس ما زالت تمتح من رنق الوهن، والتخاذل، وحب الدعة، بينما حق الله عليهم نصرة إمامهم، ونهضة أولي البصيرة، والعقول المستنيرة لما فيه من خير للأمة، وللدين، ناقلاً على لسانه كلام أبيه عليه السلام أنه خرج أما ظالماً أو مظلوماً، ولمعرفة الحقيقة الكاملة لا بد من النفور، حتى تتضح الرؤية، وتنكشف بواطن الأمور، ويكون الأمر

بالمعروف، والنهي عن المنكر هو غاية النفور، لا طلباً للنصر، والظفر، إذ قال: (أيها الناس أجيبوا دعوة إمامكم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة، وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلانا به، وابتليتم، وأن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ مني، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني، وأول من غدر، فهل استأثرت بمالٍ، أو بدلت حكماً، فانفروا فأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر).

فكان التركيز على الكشف عن حقيقة الشرخ الذي أحدثه الفعل التآمري لطلحة والزبير بنكث البيعة في نسيج الأمة، والدين هو تعبئة الأمة للقيام بدورها الجهادي، وتغذية راجعة لشحذ بصيرتها على قراءة حقيقية لتاريخ الأمة، ومن الأولى بقيادتها، لذا أعاد ذكرها بخطبةٍ أخرى ناشراً فضل أبيه، وسابقته، وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه أولى بالأمر من غيره، وختمها: (معاشر الناس: إن طلحة والزبير بايعا علياً طائعين، غير مكرهين، ثم نفرا، ونكثا بيعتهما له، فطوبى لمن خف في مجاهدة من جاهده، فإن الجهاد معه كالجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله)[1].

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ـ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت ط١ ١٤٠٨هـ: ج٣.

وظل الإمام عليه السلام مصراً على إضاءة أفق الأحداث، حتى لا ينطلي على الأمة حجم الخطر المحدق بها، فنبوغ الفتنة من الداخل، أعتى من تداعيها عليها من الخارج، وبعد أن أخرج الأشتر نزغ الشيطان أبا موسى الأشعري مهاناً من القصر، صفا الجو للإمام عليه السلام في قدح الحمية العقائدية، فأقبل على الناس، وخاطبهم بشكل قطعي، حتى يرتجز إليه من تنهض به تلك الحمية، ولا شيء سواها، فكان بحاجة إلى الصفوة من الرجال، لا رغوة الزبد التي يزفرها موج التمني، وترتد بها هشاشة التأني: (أيها الناس، إني غادٍ فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر، ومن شاء فليخرج في الماء).

فما أن طلع ضوء الصباح إلا وتهادت عزائم الرجال كالسيل معه، فسار بها هدياً حتى التقى بالإمام في ذي قار، وسُرّ الإمام علي عليه السلام بهذا الفعل أيّما سرور.

ودارت الحرب رحاها بلظى السيوف، والحراب عُقر الجمل فأصدر رغاءً فظيعا، ومعاوية يترصد الأخبار من بعيد، فصعقه انكسار جيش الناكثين،

ومثلما انتزع أهل الكوفة من تخاذلها، وأطلقها من عقال الوهن في معركة الجمل، هاهو يندفع لحثهم من جديد خروجاً لقتال معاوية فلا بد أن تعطس آنوف القاصدين عن حربٍ شعواء يلجم أزمتها الشيطان، وكان الإمام الحسن عليه السلام مشدوداً إلى تخفيف العبء عن أبيه عليه السلام، خاصةً، وإن جيش الإمام عليه السلام منقطع تتناهبه سيول الأهواء، وعلى عيون بعض قادة جيشه

انعكس سراب الأماني الأموية، فما إن برق حتى انسل عبيد الله بن عباس إليه خلسة في الظلام، وبعضهم كان مشغوفاً بهالة الحق التي تشف عن أمير المؤمنين عليه السلام قائداً فذا يرمي ببصره إلى حيث النصر الإلهي، وحاول معاوية على جاهداً أن يستميل جناح خصمه عليه السلام ألا وهو الحسن عليه السلام فأرسل إليه (عبيد الله بن عمر بن الخطاب) فقال له بلسان الناصح: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وأخراً، وقد شنؤوه فهل لك أن تخلعه، ونوليك هذا الأمر) فصعقه الإمام بنظرةٍ حازمة ارتعدت لها فرائصه، وأخبره بما سيجري له: (لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك، أو غدك... وحين عرف معاوية ما حصل، نفث بغيضه، وقال بيقين: إنه ابن أبيه!

وحين عبأ الإمام علي عليه السلام جيشه في صفين كان الإمام الحسن عليه السلام في القلب، يغذي أطراف معسكره بالعزيمة، ويضخ في عروق الرجال حب المواجهة، وينفر إلى حيث تتأزم الأمور، وتشتبك الأسنة غير مبالٍ بالموت حتى قال الإمام علي عليه السلام في بعض الأيام: (أملكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فأنني أنفس بهذين ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله)[1]، وكان لسانه عليه السلام أحد من السيف القاطع على أعدائه، فهو يقطع الشك بالحجة، ويبعث في النفوس همةً، يجعلها تسمو على جناح الاستجابة الصادقة، وفي القلوب صفوة التفكر، ففي خطبته وهو يحثهم لحرب معاوية،

(١) شرح نهج البلاغة ـ محمد عبدة. مؤسسة الأعلمي ـ بيروت. ١٩٨٥م: ٢/ ١٨٦

بدا بـ(الحمد لله...) لتعي الأسماع، وتلين الطباع إن الحرب بين أئمة الحق وأئمة الضلالة، ثم قال: (إن مما عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدي شكره، ولا يبلغه صفة ولا قول، ونحن إنما غضبنا لله ولكم، فإنه منّ علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه، وبلاءه، ونعماءه، قولاً يصعد إلى الله فيه الرضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية، وجنوده، فإنه قد حضر، ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نجدةً وعصمةً لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم الملة).

إن القول في منطق الإمامة بوصفه أحد مصاديقها يستفرغ سعة المعنى في أوجز لفظ، لا إثارة للحمية الجاهلية في النفوس، بل قولاً يصعد إلى الله فيه الرضا، وفيه جلاء للقلوب من الرين، مذكراً بأن من نعم الله التي لا تحصى، بل تتناهى عن الوصف، والشكر، ولا يدركها قول في استظهار حقيقتها، فمنها بينة في ظاهرها، ومنها محتجبة بقصور الإدراك عن بلوغها الظاهري، لكن تأويلها المجازي راسخٌ في باطن الوعي، فأنتم مع أئمة الحق، الذين ما غضبوا إلا لإعلاء كلمة التوحيد، ولمن تمسك بها، فهم الخيط الذي يصل العبد بربِّه، ويقودهم من جهة صلاحهم، وتكثيف هذه الصلة كحصانة

عبادية تتحول لا شعورياً إلى حصانةٍ معرفية للذات، ويتجلى هذا الغضب بماهية القول صاعداً بجلال الطاعة، وموسوماً بالصدق، وينمو حتى يصبح انقياد الأمة، وانشدادها على أمرٍ واحدٍ من علامات النصر، والمنعة، والتوحد الشعوري، والمعرفي، لأن التخاذل هو تآكل حبال ذلك التوحد الذي هو مظهر من مظاهر التوفيق الإلهي، وممارسة عرفانية للوعي في سبر غور المعنى لذلك القول، وينفتح التوفيق الإلهي على آثارٍ عدة تتجلى في كشفٍ مادي هو رفع العلة، ودفع الذلة، وكشف قلبي معرفي لمعالم الملة.

واستمرت المعارك في صفين تتداعى من هنا، وهناك، ثم رفعت المصاحف على الأسنة لا للاحتكام إليها، بل الاحتكام لأهواء الرجال، وكأن المؤامرة دُبرت مسبقا، بحيث تم إبعاد عبد الله بن عباس عن تمثيل جهة الإمام عليه السلام في التحكيم بطريقةٍ مريبة، واختيار من يثبط عزائم الناس عن نصرته في الكوفة، واثقين من انحرافه المذهبي، والشعوري الذي سيقود حتماً إلى نتائج سلبية لتأزيم الأوضاع الداخلية، وشخوص أعراف الفتنة في حركاتٍ ناشزة كالخوارج تتبنى وعياً أيدلوجياً يرى في إعوجاجه نسقاً مستقيماً للمواجهة والتصحيح، وتأويلاً منافياً لمدلول خطابه.

ولما تمت مكيدة التحكيم، ونبغت بوادر الفتنة، واشرأبت أعناق الأهواء، وطفح رين النفوس، وأخذت الأوضاع تتأزم بشكلٍ سرطاني مخيف، وهي تتقصى حقيقة التحكيم، لذا طلب منه الإمام علي عليه السلام، فقال: قم يا بني فقل في

هذين الرجلين عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص ما يصغي الأسماع إليك، وهما يتلاعنان، ويتمثلان الصور الاستعارية القرآنية في وسم بعضهما للآخر، فالأشعري يرجم ابن العاص: (... عليك لعنة الله، ما أنتَ إلا كمثل الكلب يلهث، فزجره ابن العاص ساخراً: لكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً)[1]، ورغم ما يقال أن أبا موسى الأشعري ضحية دهاء ابن العاص، ولكني أرى أن خيوط المؤامرة كانت معدة بإحكام، وكانت تحاك في الخفاء، وبعد انفصام عرى الجيش الكوفي، كانت الأسماع مرهفة تتشوق لمن يدلها في عتمة الفتنة، حيث غربت حبال الآراء تلقي بدلائها في آبار الأهواء، فتتمخض عن مسارب جدالٍ حاد، ومذاهب سياسية شتى كالبؤر السرطانية التي سرعان ما امتدت، وتضخمت، فهي أما تختزل فلسفتها الفقهية في مقولة (لا حكم إلّا لله) كالخوارج، أو مقولاتٍ أخرى كالإرجاء، والجبر، لذا نفذ الإمام الحسن عليه السلام إلى تحجيم مأزق التحكيم بالعودة إلى التأريخ، قادحاً في وعي الجيش إحساساً بأن الفتنة ليست وليدة اليوم، بل تمتد بجذورها إلى رحم الماضي، وهذه اللحظات حبلى بما كان، منذرة بما سيحصل إذا لم تفقأ عين الفتنة، لذا أرسل إشاراته البلاغية الموجزة، مبطلاً الحجة الفقهية لهذا التحكيم، مستخفاً بالإكثار في هذين الرجلين، داعياً إلى التفكر قليلاً، فلا

(١) الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) المكتبة الحيدرية. قم المقدسة. ٢٠٠٧م: ج١/ ١٤٣.

يمكن إقامة الكتاب على الهوى، لذا اعتلى المنبر، فقال: (أيها الناس قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمَ حكماً، ولكنه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال، واحدة إنه خالف (يعني أبا موسى) أباه (عمر بن الخطاب) إذ لم يرضه لها، ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى إنه لم يستأمره في نفسه، وثالثها: إنه لم يجتمع عليه المهاجرون، والأنصار الذين يعقدون الأمارة، ويحكمون بها على الناس، وأما الحكومة فقد حكم النبيﷺ سعد بن معاذ في بني قريضة فحكم بما يرضى الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول اللهﷺ.

إن سعي الإمام الحسنعليه السلام إلى تأصيل مفهوم الخطاب في محتواه البياني هو امتداد بلاغي لمشروع الإمامة بوصفها وحدةً معرفيةً لا يشذ ما بعدها عما قبلها تنطوي على عصمةٍ ربانية تمنعها من الانزلاق العاطفي إلى جهةٍ ما سوى الحقِّ، حتى تكون الحجة ظاهرة بنفسها، ومؤولةٍ لغيرها، تنتزع مصاديقها من السند التاريخي الراسخ في وعي الأمة، فانحراف الرجلين عن الغاية التي بُعثا من أجلها قاد إلى انحراف النتائج، إذ حكما بالناقص الظنّيِّ (الهوى) على المكتمل اليقيني (القرآن) فأحدثا بذلك خرقاً معرفياً يحتكم إلى هوى الرجال ناظراً إلى ما في نفسه مولياً ظهره لما دُعي إليه، فأبطل التحكيم من وجهة نظرٍ قرآنية، ثم أبطله من وجهة نظرٍ تاريخية حين سعى أبو موسى الأشعري إلى

تنصيب عبد الله بن عمر بدل معاوية والإمام علي عليه السلام عبر استحضار المشهد التاريخي مظهراً بطلان هذا التنصيب سابقاً، والأمور متسقة، فهو أشد بطلاناً والأمور متأزمة.

وأنهى أبو موسى الدور المكلف به، وهو خلع صاحبه، وحين طلبوه، وجدوه قد فرَّ إلى مكة، أما ابن العاص فقد أثبت صاحبه، وعاد إليه يباركه بتاج الخلافة المزيف، ولكن الإمام علياً عليه السلام عاد إلى تعبئة جيشه، مبطلاً حجية التحكيم، لأنه اشترط على الحكمين (أن يحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن عن حكمهما براء)، بل هما (لما لم يعملا بالسنة، ولم يحكما بالقرآن تبرأنا من حكمهما) لكن تناهت إلى سمعه كلمة حقٍّ يُرادُ بها باطل، وهي صيحة (لا حكم إلا لله)، أعقبها تلاقح الألسنة في جدالُ عقيم أرادوا به من الإمام أن يشهد على نفسه بالكفر ثم يتوب، وإلا (ننابذك على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين)[1]، فكانت هذه الصيحة التي كان ظاهرها الرشاد، وباطنها الفساد هي الحجة التي قام عليها نهجهم التكفيري، وحين أبى الإمام عليه السلام الانقياد لرغبتهم، أعتزلوه، ومالوا بجمعهم مع عبد الرحمن بن وهب الراسبي خارج الكوفة، ناشرين الرعب في أطراف المدن، وأصرَّ الإمام عليه السلام على مواجهة معاوية، واستئصال هذا الورم الخبيث من جسد الأمة، فبايعه على ذلك من

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير: ٣/ ٢١٦.

تبقى من أصحابه من ذوي النية الصادقة بما اشترط عليهم من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، ولكن صوت خارجيٍّ أخر نبغ بصيحةٍ أُخرى، تلحق بشرطيه شرطا جديداً (وسنة أبي بكرٍ وعمر)، وهي تعي أنه رفضه حين اشترطه عليه عبد الرحمن بن عوف مقابل الخلافة، فآبى، وكأنَّ هذه الصيحات المنكرة كانت تدبرها يدُ خفية لإضعاف جيش الإمام عليه السلام، وتغيير مساره، فانحدر الآخر مع ثلة من أصحابه في منزلق الفتنة، فلما يئس منهم سار بجيشه صوب الشام، يرافقه الحسن والحسين عليهما السلام. ومحمد بن الحنفية، وفي هذه الأثناء بلغه ما فعله الخوارج بخباب بن الأرت، ونسائه من قتلٍ مريع، وكذلك قتلوا رسوله إليهم الحارث بن مرة العبدي، فمال بجيشه عليهم حيث تمركزوا في النهروان، والأخبار ترده بأنهم عبروا الجسر، وكان يكذبهم بقوله: (والله ما عبروا ولا يقطعونه.. ولن يعبروه، والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة)[1]، وكأن بلاغة الإمامة تفيض عليه بما تضمره الأيام القادمة من خبايا، كما أخبر قبل هذا بخروجهم، فقال عليه السلام: (إن قوماً يخرجون، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، علامتهم مخدج اليد).

وبعد انتصار الإمام عليه السلام الساحق في معركة النهروان سنة ٣٧هـ، تبينوا ما أخبرهم به، فوجدوه كما أخبر، فاستبشر أصحابه بهلاكهم، فقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي قطع دابرهم، فقال عليه السلام: (كلا والله إنهم نطف في أصلاب

(١) شرح النهج ـ محمد عبدة: الخطبة ٥٩.

الرجال، وقرارات النساء)[١].

ولم يدّخر الإمام الحسن عليه السلام، وأخوته جهداً مع أبيهم عليه السلام في نصرة العقيدة، يحملون على أكتافهم عبء الأمة، ويرقبون وجلين، مذعورين من اللحظة التي تختم مشاهد الغدر بقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على يدٍ خارجية حروريةٍ غادرة، وجرى المحذور، وضاقت الصدور، إذ نفذ عبد الرحمن بن ملجم كالأفعى مخبئاً سيفه تحت عباءته، وكان الإمام عليه السلام ساجداً يصلي في المسجد، فانقض عليه بضربةٍ غشوم، فابتلت لحيته بدم الشهادة، فبعد أيام من المعاناة فاضت روحه الطاهرة، وأوصى بإقامة القصاص بقاتله عبد الرحمن بن ملجم، ونهى عن التمثيل به انقياداً لقول النبي صلى الله عليه وآله: (المثلة حرام ولو بالكلب العقور)، ولكن المؤسسة التلفيقية الأموية أرادت أن تلصق هذه الشبهة بآل البيت عليهم السلام تجاوزاً على الملة، وانتهاكاً لحرمة السنة، ومخالفةً لوصية الإمام عليه السلام، وانقياداً لسلطان الغضب، فقد ذهب المحب الطبري إن الذي مثّل به هو الحسين بن علي عليه السلام، ومحمد بن الحنفية، وقد نهاهما الحسن عليه السلام فلم يذعنا له[٢]، وذكر أبو الفداء إن الذي قام بذلك عبد الله بن جعفر[٣]، ويؤكد طه

---

(١) م. ن: الخطبة ٦٠.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ـ محب الدين الطبري، أبو جعفر أحمد بن عبد الله الشافعي (ت ٦٩٤هـ) ـ تح: عبد المجيد الحلبي. دار المعرفة. بيروت. ط١ ١٩٩٧م:

(٣) تاريخ أبي الفداء ـ أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ):١/ ١٨٠.

حسين حصول عملية التمثيل (والشيء المحقق هو أن ولاة الدم لم ينفذوا وصية علي عليه السلام في أمر قاتله، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به، ولا يعتدوا، ولكنهم مثلوا به أشنع التمثيل فلما مات حرقوه بالنار [١].

وبعدها انثالت الناس لمبايعة الإمام الحسن بن علي عليه السلام، وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة على كتاب الله، وسنة رسولة، وقتال المحلين، فرفع الثالثة، وأبقى الاثنين، سيراً على نهج أبيه، من هنا سننفتح على طريقته في قيادة الأمة بنفسه.

(١) علي وبنوه ـ طه حسين. دار المعارف. القاهرة / ١٩٨٩م: ١٨٤.

# الفصل الثاني

# بلاغة القيادة

**إضاءة**

لم تكن الإمامة لفظة فضفاضة لفلسفة وضعية يتداولها من هبَّ ودبَّ، وليست هي سلطة تحدها الأبعاد التي ينعكس عليها ظل الأشياء، أو تفترض وجودها المادي في مظاهرها الخارجية، بل هي تجليات نورانية لسلطة الله على الوجود، وتأويل لمنطق العدالة الإلهية، وهي تحيط بالكون، والأشياء، والخلق متجسدة فيمن خصه الله تعالى بهذه السلطة.

**نقطة البدء**

تعكس مفردة القيادة في ظاهرها المعجمي سعةً دلاليةً في التصور الذهني لبعدها الاصطلاحي، إذ يتسع مدلولها في ضوء المصاديق القرآنية الدالة عليها، والمرادفات المتعلقة بمضمونها، كالخلافة، والإمامة، والولاية، والأسوة، فـ(القود نقيض السوق: أي يقود الدابة من أمامها، ومن خلفها)[1]، وأعطاه مقادته: انقاد له، والانقياد: الخضوع، وأقاد تقدّم، فالقائد هو المتقدم على غيره، فهو المتبوع، وهو الولي، والقيّم، والرائد وغيره تابعاً لهُ، وقد ورد عن رسول

(١) لسان العرب ـ ابن منظور: ج١٢/ ١.

الله صلى الله عليه وآله: (الأنبياء قادة، والفقهاء سادة)[١] لانقياد الناس إليهم، وتمثّل الإمام علي عليه السلام بأسيً تمرد رعيته عليه، فقال: (كأنني المقود، وهم القادة)[٢].

وحين يتصل مضمونها بالبلاغة في بعدها المنطقي، والمعرفي، وتتوحد معها في نسيجها الجمالي تسمو بها، وتنهض بها فناً للإقناع، والحجاج، والتوجيه، ومظهراً للتجليات العقلية، والبيانية، والدينية، والكفاءة الميدانية في مقارعة الباطل، وتنفتح على مداراتها التكليفية المتشعبة، بحيث تتمثل انعكاساتها في وعي الإمامة ـ إمامة أهل البيت عليهم السلام ـ بوصفها رئاسةً مطلقة تفرض على الآخرين ضرورة الانقياد لها، وتمثل أوامرها، ونواهيها بوصفها أوامر ونواهٍ إلهية، العدول عنها يعدُّ مروقاً في الدين، وخروجاً عن الملة، وجحوداً للحقِّ، فالإمامة كما يصفها الإمام الرضا عليه السلام:(أجل قدراً، وأعظم شأناً، وأعلى مكاناً، وأمنع جانباً، وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يعتمد إماماً باختيارهم، إن الإمامة خصّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة، والخلة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها، وأشاد بها ذكره، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فقال الخليل سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]، فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالمٍ إلى يوم القيامة،

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي:ج١/ ٢٠١.
(٢) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد:ج١٩/ ١٤٥.
(٣) البقرة: ١٢٥.

وصارت في الصفوة... إن الإمامة منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء)[١] لما تنطوي عليه من وظيفةٍ ربانيةٍ تنهض بإقامة الحجة، وإحياء معالم الدين، وصلاح الدنيا، وتدبير شؤون الأمة في سياستها الداخلية، والخارجية، لذا كان من أبلغ شروطها في ضوء التصور الفقهي السني: (العلم، والعدالة، والمعرفة بوجوه السياسة، وحسن التدبير، وأن يكون نسبه من قريش)[٢]، فهي عندهم تكليف بشري، لكنها في الفقه الإمامي الجعفري تشترط الاصطفاء، و(أن يكون معصوماً.. ومستجمعاً لأصول الكمالات النفسانية، وهي العلم، والعفة، والشجاعة، والعدالة.... ويجب أن يكون أفضل الأمة في كلِّ ما يعدُّ كمالاً نفسانياً، لأنه مقدم عليهم، والمقدَّم يجب أن يكون أفضل، لأن تقديم الناقص على من هو أكمل منه قبيح فعلاً، ويجب أن يكون متبرّئاً من جميع العيوب المنفِّرة في خلقته من الأمراض كالجذام، والبرص، ونحوهما، وفي نسبة أصله كالزنا والدناءة، لأن الطهارة من ذلك تجري مجرى الألطاف المقرِّبة للخلق إلى قبول قوله، وتمكّنه، فيجب كونه كذلك)[٣]، فهي تكليف رباني، وعهد إلهي، ورغم التقارب الشكلي بين التصورين الذي يضفي هالةً

(١) الكافي ـ الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٩هـ).مؤسسة الأعلمي. بيروت. ط١ ٢٠٠٥م: ج١/ ١٩٩.

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي (ت ٤٥٠هـ) أبو الحسن البغدادي ( ٤٥٦هـ):٦.

(٣) قواعد المرام. المحقق البحراني: ١٧٩ ـ ١٨٠.

مزيفة من الإقناع مقرونةً بأدلةٍ وضعيةٍ واهيةٍ، إلا أن المحتوى الأيدلوجي للرؤية السنية يميل إلى تأصيل الشكل، وتغريب المعنى الأخلاقي المنطوي على الشرائط العقلية، والروحية التي بموجبها قام الشكل على تمثيل أماراتها، وتفعيلها في ماهية التطبيق على أرض الواقع، لذا فانتفاء تلك الشرائط كلها أو بعضها التي على أساسها تم اختيار، وتعيين الخليفة تحت مسوغات النقص البشري، والتبرير البراغماتي، لا يوجب خلعه، أو إقامة الحد عليه، أو محاسبته، سواء اتُّهم (بفسقه، وظلمه بغصب الأموال، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه، وتخويفه، وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله)[1]، مرجئةً الحكم عليه إلى الله تعالى، ما دامت القدرة المعرفية للرعية قاصرة عن إدراك النية الباطنية الموجهة لعمله، وحتى لو اشرأبت أعلام تلك النوايا الخبيثة جليّةً، مصرحاً عن مضمونها بلسانة، وعمله، فإن الإرجاء قائم على توطيد طاعته، فمعاوية إمام عادل وإن ركب الجور يتمثّل حدَّ الإمامة، وإن استفرغ مضمونها الأخلاقي في هداية الأمة، وألغى مرجعياتها المعرفية في تأصيل الحق، ودحض الباطل.

بينما صفة الإمام عند آل البيت عليهم السلام تنطوي على كمالاتٍ لا تحصى، تجعل منه (واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا مثل، ولا

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني: ١٨٥.

نظير...) بحيث تشخص ماهية المعنى (الإمامة) في هالة الشكل (الإمام)، وينصهران معاً في مظاهر تطبيق العدالة الإلهية على الأرض، وتأويل مصاديقها الفقهية، والعملية في ضوء المنطق القرآني، فهو قرآن ناطق ببلاغة التبيين، بحيث تكتسب هذه البلاغة مرجعيتها من الإمكانات البيانية، والبرهانية، والعرفانية التي يتمتع بها الإمام في اجتراح الأدلة العقلية النابعة من روح العقيدة، وتنقية القيم الدينية مما يعلق بها، أو ينحرف بمسارها، وتعرية الحق من دلس الباطل حتى تتضح الرؤية، وتنبلج الدلالة، وتكتمل الحجة ناصعةً من كل ما يخلُّ بانفتاحها على الحقيقة الإلهية، وتكتسب مشروعيتها من قدرته على إدارة شؤون العباد، والبلاد، وإقامة الحدود، وتنسيق نظام الجيوش، وحماية الثغور، ورد المظالم، وتقسيم الأرزاق، والعطاء، والفيء، وتحصين حكمه من كل ما يخلُّ بأدائه في قيادة الأمة وصولاً إلى ترسيخ انعكاساتها الوجدانية، والإنسانية، والأخلاقية، والعبادية من خلال أقواله، وأفعاله في نفوس الرعية، ما دام هو الخليفة الشرعي لرسول السماءﷺ، والإمام المجتبى من الله تعالى في تولي الأمر، والامتداد الطبيعي للتكليف الإلهي في خلافة الله في الأرض، فهم مصداق قولهﷺ: (في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين....)[1]، حتى كانت الإمامة أسمى مراتب الخلافة، فهي فرعُ

(١) الصواعق المحرقة ـ أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري. تح: عبد الرحمن التركي، كامل محمد الخراط. مؤسسة الرسالة ـ لبنان ط١ ١:٢٣١.

من شجرة النبوة، والإمام عليٍّ عليه السلام في تجليات الموروث الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله هو روحه، ونفسه، ووصيه، وخليفته، فهما يتداخلان، ويتوالدان من أصلٍ نوراني واحد، وينصهران في نسيجه، وهما في الأصل التكويني (من شجرةٍ واحدةٍ، وسائر الناس من أشجارٍ شتى)[١]، بل هما كما قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: (محمد وعلي أبوا هذه الأمة فطوبى لمن كان بحقهما عارفاً، ولهما في كل أحواله مطيعا يجعله الله من أفضل سكان جنانه، ويسعده بكراماته ورضوانه)[٢]، و(ذرية كلِّ نبيٍّ من صلبه إلّا ذريتي فمن صلب علي بن أبي طالب عليه السلام)[٣]، وفي ضوء هذا التعالق، والانصهار، والأبوة كان الخلفاء لله تعالى بعدهما الذرية الطاهرة للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يتوارثونها كابراً عن كابرٍ، حتى تواترت الأدلة النقلية المروية عنه صلى الله عليه وآله، مشخّصةً لهم، بأسمائهم، فعن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جابر إن أوصيائي، وأئمة المسلمين من بعدي اثنا عشر أولهم علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف بالباقر ـ ستدركه يا جابر ـ فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، ثم جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم القائم اسمه اسمي، وكنيته كنيتي محمد بن

---

(١) ميزان الحكمة ـ محمد الريشهري: ج١/ ١٤٠..

(٢) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٣٦/ ٩.

(٣) م. ن: ج٨/ ٢٤٨.

الحسن ذاك الذي يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الأرض، ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن أوليائه غيبة لا يثبت على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان)[١]، لذا كان آل البيت عليهم السلام يجادلون الناس عن أحقيتهم في قيادة الأمة لا طمعاً في ملكٍ دنيوي، أو التسلط على رقاب الناس، بل امتثالاً لأمر الله تعالى، وتعظيماً لسننه، وتطبيقاً لشرعه، حتى تعي الأمة حقيقة من حاد عن أمر الله، وانتزى بغيِّه، لذا فالإمام الحسن عليه السلام حينما يقرع سمع معاوية، والأمة بهذه الحقيقة، شاداً أواصر كلامه بنسيج المؤكدات قائلاً: (إن الأئمة منا، وإن الخلافة لا تصلح إلّا فينا، وإنّ الله جعلنا أهلها في كتابه، وسنة نبيه، وإنّ العلم فينا ونحن أهله، وهو عندنا مجموع كله بحذافيره، وإنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة حتى أرش الخدش، إلا وهو عندنا مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وبخط علي عليه السلام بيده)[٢]، كان عليه السلام يشير إلى إن حقيقة القيادة في وعي الإمامة لا تكمن في ظاهرها الشكلي، بل في باطنها العرفاني الذي يحيط بمضمونها من جهات ظهوره المتعددة، انطلاقاً من عصمة الذات، لتفرض عليها قبل غيرها مصاديق مشروعيتها، وتهذيبها عبادياً، وأخلاقياً لتحدث أثارها في وعي الرعية سلوكاً معرفياً تروض به الطباع النافرة، وتهذبها، ومنهجاً عملياً يجاري نظام الكون، ويبعث فيها طاقة الاستجابة للحقِّ.

---

(١) ينابيع المودة للقندوزي. المطبعة الحيدرية: ج٣/ ٣٩٩.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ٤٢١.

وهذه القيادة (الإمامة) لا تنقطع أسبابها، ولا يبطل مفعولها حين تنتزع من صاحبها مقاليد الأمور، بل تبقى فاعلة بتفويضها الإلهي في توثيق سنن الله، وإحيائها، نصرةً للمستضعفين، وتنكيلاً للظالمين، وإرساءً لدعائم الدين، لذا أكدها رسول الله ﷺ، بقوله:(الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[١]، وهذا القيام، والقعود الآني بما فيه من تمثلٍ استعاري يتماهى في نور الحقيقة الإلهية التي تعكس ديمومة وجوبها الكلي على إمامة الخلق، وتمثيل الحق، فهي موصولة بتكليفها، قائمةً بأدوارها، ممتدةً في صلب حركتها الإصلاحية، وهي تظهر في بعدها الإلهي أن الطرف الآخر (غاصب) لما لا يملك، ومنتزٍ على حقٍّ ليس له، وهي حقيقة راسخة في وعي الأمة، شاخصةً بإماراتها، من هنا اندلق مداد التزييف، والتحريف لطمرها، وتمويه الوعي بمصاديقها، وتهميش الثوابت الشرعية لهذه القيادة الربانية على أنها شأنُ بشري حتى يمكن التحكم فيها، ومقارنتها بما يشاكلها، وبناء قاعدة فقهية تستند على الموجهات الحجاجية العقلية، وتوثيقها بأدلةٍ نقلية من الكتاب والسنة، استنفرت فيه الألسنة المأجورة، والعقول المعروضة لتأويلها لا من أجل أن تفهم الأمة، ولا من أجل أن تثير هاجس الوعي لإعادة القراءة، وتقصي المداليل المضمرة فيها، وفهم حقيقة التصادم بين عقليتين: عقلية تتوحد فيها الروح والحواس، خالقةً من المسيرة الرسالية للذات حركتين متجانستين في التوجه، ومختلفتين

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي:ج٤٤/ ٢.

في الإتجاه، الأولى عمودية في تأملها العرفاني، والثانية أفقية في تعاملها الإنساني، تستشعر توازنها من فحوى الانسجام الأخلاقي بين الراعي والرعية، بحيث تنكسر قاعدة الطاعة المطلقة لولي الأمر إذا أخل بهذا الانسجام، لذا قال الإمام الحسن عليه السلام: (وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتكَ في وجهه إذا ما خلا عن الطريق السوي)[1].

وعقلية أخرى تتنافر فيها الروح والحواس باعثةً في التصور الفقهي للجدل المنبني على قاعدة التضاد إشكاليةً، وشعوراً بالانقياد الأعمى، والاجتهاد القاصر، بحيث لا ينفي انحراف القائد عن السنن المفروضة عليه بقاءه على سدة الحكم، وإن بغى، وطغى، لأنَّ الهالة التي أطرتها تلك العقلية في الوعي التداولي جعلت منه ظل الله على الأرض، مما فسح المجال لهذا الظل أن يستمد استطالته من إشعاعات النص القرآني في تصريف حقوق العباد، وأمور البلاد.

والإمام الحسن عليه السلام يعي مصاديق هذه الحقوق المفروضة على ولي الأمر في تسييس أمر العباد، وتشخيص ماهية السياسة، لذا جرى تقسيمها بحسب مرجعياتها، وتوحيدها في إطار المصلحة العامة، حتى تنفذ الواحدة في الأخرى، فتثمر عدلاً، ومساواةً، وكمالاً معرفياً ينتجه هذا التنافذ فيما بينها، تتجلى آثاره في توجهات النفس الإنسانية، والذي يشكّل في كل جهاته تنافذاً

(١) حياة الإمام الحسن ـ باقر شريف القرشي: ج١/ ١٤٢.

شعورياً في علاقة الراعي برعيته، يقود إلى تنافذٍ عبادي آخر بين المخلوق، وخالقه، وهكذا تتوالى التنافذات وصولاً إلى انسلاخ النفس من أدرانها، وانجذابها للفطرة الكامنة فيها، فلما سُئِلَ الحسن عليه السلام عن حقيقة السياسة، قال:ـ (هي أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات، فأما حقوق الله لأداء ما طلب والاجتناب عمّا نهى، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أُمتكَ، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتكَ في وجهه إذا ما خلا عن الطريق السوي، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم، وتتغاضى عن مساوئهم فإنّ لهم ربّاً يحاسبهم)[1]، فإذا انساقت طباع الناس إلى مراعاة هذه الحقوق، فكان حضورها في وعي الذات حضور الغيث في التربة البكر، تحفز فيها قوى النماء، والعطاء، وتستثمر فاعليته في رفد عوامل الارتقاء بالوعي الحي الذي يمكن تأويله في بعده المجازي إلى قوى رحمانية تتمثلها الأوامر، والنواهي الإلهية، وانقياد النفس لها معراج لولوج مدارات التكامل الأخلاقي، والروحي. لذا فالقدرة على قيادة الذات من الداخل، وتعريتها من ظلمات الجهل، والطمع، والتعصب، وتوثيق صلتها بالله تعالى، هي من مؤهلات قيادة الأمة، وعند استقراء هذه الحقوق في نسق الحكم الأموي، ومقدار الالتزام بمعاييرها نجدها تخلو من مصاديق العمل بها، بل هي جندت الفقه

(١) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن عليه السلام ـ السيد مصطفى الموسوي: ١١٨.

البراغماتي لتأصيل المفهوم السلبي للحكم، وتأطيره بموجهات الانقياد الأعمى لسننه الباطلة، حتى تنفذ بمشروعية (جواز تعيين المفضول مع وجود الفاضل لمصالح معينة)، وتستوسق له ديمومة ملكه، وتنفي الوزر عنه وإن وطأ بقدم جوره كرامة هذه الحقوق لأنه اجتهد فأخطأ، فحُرِم من أجرٍ، وبقي له أجرٌ واحدٌ.

لذا كان التصور الإنساني للذات الحسنية تشكله حاجة الأمة إلى تقويم إعوجاجها، وتصحيح مسارها، حتى لا ينعكس هذا الإعوجاج على تأويلٍ سلبي للدين، وتفريغ مشروع الإمامة الربانية من دوره الإيجابي، والمباشر في مواجهة الانحرافات السياسية، والفكرية، والعقائدية التي تحصل في وجوده، حتى يكون موجهاً للمجتمع، وضالعاً في إدانة هذه الانحرافات، ومواجهاً لها بما يعين المظلوم، ويكسر شوكة الظالم، فحين صدر حكم النفي إلى الربذة على أبي ذر الغفاري قام مع أبيه، وأخيه عليهم السلام، لتوديعه رغم تهديد السلطة أنذاك بمنع تشييعه، السلطة التي يمسك زمام تنفيذها مروان بن الحكم، والذي أخذته لحظة من الخيلاء، استفز نعرتها الشيطان، فقال بلسان التحذير مخاطباً الحسن عليه السلام: (ألا تعلم أن الخليفة قد نهى عن وداع أبي ذر، والتحدث إليه، فإن كنت لا تعلم، فاعلم ذلك)، ولكن الحسن عليه السلام لم يكترث له، بل تركه يجتر غيضه، ونهره سوط علي عليه السلام أن يتجرأ على الحسن عليه السلام، الذي نضا لسان المواساة لأبي ذر، فخاطبه: (يا عماه، لا ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيع أن

ينصرف لقصر الكلام، وإن طال الأسف، وقد أتى القوم عليك، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها حتى تلقى نبيكﷺ وهو عنك راضٍ)[1].

وهذا التقويم رغم كونه عسيراً، إلا أنه أراد أن يؤسس أرضية صلبة من الوعي القيادي للذات، تنعكس آثارها في وعي الأمة، وقد اشترك مع أبيه في موقعة الجمل ووقعة صفين وحروبه ضد الخوارج، فحين ارخى أبو موسى الاشعري والي الكوفة عزائم رجالها عن اللحوق بجيش الإمام علي عليه السلام، أرسله الإمام عليه السلام بهذه المهمة مع بعض القادة، فنضا عزائم الرجال من قيد الوهن، وانحدر بها كالسيل، فضاء وجه الإمام عليه السلام.

ولم تتشكل الروح القيادية للإمام الحسن عليه السلام، كما عند غيره من مظان الاكتساب، والخبرة، حتى تتطور تدريجياً، فتعلو في موقف، وتتداعى في موقفٍ أخر، لأن الكمال المعرفي الذي تنطوي عليه حين يستوعب التجارب من الخارج لا تزيده انفتاحاً على المعرفة بقدر ما تستظهر ذلك الكمال في حيز المشاهدة، والتطبيق، فيتلمس الآخرون ماهيته من انفعالهم الشعوري، والعقلي به، وتأويل مصاديقه الدالة في ضوء التوقد العرفاني لهذا الانفعال، فأمثال عمار بن ياسر، وسلمان المحمدي، والمرقال، وأبي ذر ينظرون إلى مشكاته من الداخل، وغيرهم ينظرون إليه من الخارج، لذلك فالبلاغة التي

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٢٢/ ٤١٢.

يفيضها الكمال المعرفي تصبح مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[1]، فهي تجسّم حالة الاصطفاء الإلهي لخلفائه في الأرض، وما تخالطها من تجليات العصمة ﷺ أما الكلام الذي هو نتاج تلك البلاغة، فإنما يصدر عن أفقها المعرفي، وغاياتها التكليفية بما يحقق الحجة المنطقية للاصطفاء، وتحويل مضامينه إلى أفعال دالة على المشروع الإلهي للاستخلاف.

لذا كان الإمام علي عليه السلام، يتوسم فيه تلك الروح المنطوية على كمالها جوهراً، وأداءً، والمتأهبة إلى إنجاز مهامها في قيادة الأمة فيرسلها إلى حيث ينجز المهمة، والإمام الحسن عليه السلام يعي الكيفية المثلى لتعرية المواقف المتأزمة من التمويهات، والشبهات التي تؤثر على زعرعة التفكير المنطقي للعامة الذي تمتد آثارة السلبية من صراع نفسي فردي إلى صراع عقائدي جمعي لا ينظر إلى الأسباب الموجهة له، والنتائج المترتبة عليها بعين البصيرة.

وكانت هذه السمة شاخصة فيه تنعكس آثاره في رهبة خصومه من مجاراته، ومواجهته، فحين طلب بعض رجال معاوية أن يحضروا الحسن عليه السلام، لتوبيخه ومسَّ هيبته، قال معاوية: (والله ما رأيته قطُّ إلا كرهت جنابه، وهبتُ عتابه)[2].

---

(١) الأنبياء ٧٣.

(٢) الاحتجاج ـ الطبرسي: ج٣/ ٣٩٢..

## إشكالية الصلح

قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ النساء (١٢٨)

ما أن يلج الوعي الجدلي التحقيقي في سيرة الإمام الحسن بن علي عليه السلام، حتى تنبغ إشكالية الصلح الذي أقامه مع معاوية عن جملة من التساؤلات القلقة، رغم إحاطة هذا الصلح بشئ من التعظيم، ألهمت السلطة الحاكمة إلى تسمية العام الذي جرى فيه هذا الصلح بوصفه حدثاً تاريخياً بعام الجماعة تبركاً بانقضاض معاوية على الأمر، وكأن الأمة الإسلامية انتظم شملها على وحدة الرأي، وانحلت عقدة الخلاف، وتمخض ناتجها المعرفي عن قناعةٍ قارةٍ ترى في هذا الصلح (صلاحا) بعد فساد، وإصلاحاً بعد نفاد، واجتماعاً بعد فرقة، دون أن تعي أن موجهات الصراع السياسي لم يكن بين قوتين، بقدر ما هو صراع أيدلوجي بين عقلتين متضادتين في المرجعيات، والتوجهات، والرؤى المستقبلية لإفرازات هذا الصلح، وأثرها في زعزعة الرؤية الجمعية للوعي، وتشظيها إلى أنساقٍ تأويلية عدة تتداعى بالأمة إلى مسارب شتى، لأن حركة التاريخ متصلة بديمومة الحاضر، وحركة الفكر في مرجعياته السياسية، والعقائدية، والاجتماعية التي تفسر التلازم الجدلي بين اللغة والحدث التاريخي بوصفه مضموناً أيدلوجياً، وحافزاً أخلاقياً يستضيء بقابلية اللغة على تفسير آثاره، وتمخض النية القائمة بين طرفي الصلح عن أفعالٍ لغويةٍ تنطوي في جوهرها على الحقيقة التاريخية، وإمكانيات تأويلها في ضوء تلك المرجعيات.

والتساؤلات التي تتبادر إلى الذهن يمكن إختزالها في السؤال التالي: أين تكمن علة تلك الأشكالية؟ وكيف جرى تأويلها؟، وآثارها في تشخيص، وتقييم الوعي القيادي للإمام الحسن عليه السلام بحيث راحت بعض القراءات القديمة، والحديثة، وخاصةً المستشرقين تتهم الإمام عليه السلام فيما يتعلق بمقدرته على قيادة الأمة، وفي ميوله الدنيوية، فقد شخّص المستشرق (لامنس) الإمام الحسن عليه السلام في صورة المتهالك على الدنيا، فكانت صفاته الجوهرية (الميل إلى الشهوات، والافتقار إلى النشاط والذكاء، وقد انفق خير سني شبابه في الزواج، والطلاق فأحصى له حوالي المائة زيجة عداً، وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق...)[1].

وأرى من الممكن تفكيك هذه الإشكالية، وتأويلها من خلال النظر إلى مقولات الإمام الحسن عليه السلام التي رافقت تأويل الأحداث في مسارها التاريخي، وهو يحاور الأمة، ويضع أمامها الخيارات التي تحدد مصيرها، ويستنهض ضميرها، ويستوقد وعيها المعرفي، والشعوري لنصرة حقوقها، وكيفية الدفاع عن عقيدتها من الفكر البراغماتي، والتوجه الارستقراطي الذي راح ينشب في صميمها روح الوثنية الجاهلية حتى صارت العقيدة في نظر معاوية غطاءً أيدلوجياً لتمرير مآربه السلطوية، وتهميش أصولها المعرفية التي قامت عليها.

---

(١) الموسوعة الإسلامية لجماعة المستشرقين. إصدار أحمد الشنتناوي ـ تصوير طبعة ١٩٣٣: ج١/ ٤٠١ـ ٤٠٢.

ولم تنظر أغلب طوائف الأمة إلى هذا الغطاء المزيف بعين بصيرتها، أو بمنظار الدين، بل وجدت فيه انعكاساً لميولها الدنيوية، وتأصيلاً لوعيها القبلي، طالما إن الفهم الديني لديها كان قاصراً، ومقتصراً على تفسير مصالحها الآنية، بعيداُ عن القراءة المستقبلية للنتائج رغم إن الصورة الروائية التي تناقلتها الأمة على لسان رواتها، وفي متون مدوناتها تظهر معاوية مشوهاً، وجريئاً على الحق، وصعلوكاً، أو كما يصفه عمر بن الخطاب بـ(كسرى العرب).

وبما الصلح في منظوره العرفي حركة باتجاه المصالحة، وتأسيس صيغ موثوقة من التعاملات الإنسانية تخدم الطرفين، فهي لم تسعَ إلى تقويم فهمها لمجريات الأحداث، وحقيقة القوى المحركة لها في ضوء تلك الحركة بعرضه على الموجهات القرآنية، والموجهات الفقهية، والفكرية، والدينية لفلسفة الإمامة، وبالتالي تقويم المساند الشرعية التي تشكلت بموجبها شرعية السلطة لمعاوية (والشرعية هنا لا تضاف كصفةٍ ممكنةٍ بل تتميز كصفةٍ ملازمةٍ لها)[١]، والإمام الحسن عليه السلام أراد للأمة أن تتحرى بنفسها مصاديق هذه الشرعية من جهاتها الدينية، أو الأخلاقية، أو المعرفية.

لذا كان من الضروري النظر إلى ما قبل الصلح كأرضية ماضوية اقترنت بالتداعيات المتأزمة للأحداث التي تمخض عنها الصلح كمحاولة للإصلاح،

---

(١) نظريات الفكر السياسي الشيعي المعاصر. علي فياض ـ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. بيروت ط٣. ٢٠١٥: ٣٢.

وكنتيجةٍ حتميةٍ أفضى إليها ذلك التأزم في نمذجة البنود التي اشترطها طرفي النزاع، وإمكانية تنفيذها في المستقبل، أي قراءة معطيات ما بعد الصلح، للخروج بتصورٍ منطقي على ضوئه تتضح السيرة الأخلاقية، والعقائدية لكلا الطرفين.

ومن ينظر إلى ما قبليات الصلح يجد الحسن عليه السلام شاهداً فاعلاً على مجريات الفترة المتشنجة بين الإمام علي عليه السلام، ومعاوية، ومجاهداً بين يديه يكشف الكربات عن وجهه، وامتد هذا التشنج حتى استشهاده عليه السلام في ٢١ في يوم الجمعة من رمضان، حينها قام الإمام الحسن عليه السلام بعد مبايعة الأمة له خليفةً للمسلمين، بحيث أفرز الوعي القيادي للإمام عليه السلام استعداده المطلق لممارسة دوره الرسالي كحاكم شرعي للأمة بعد أبية عليه السلام، وتكليفه بهذه المهمة في وقتٍ حرجٍ كانت الأمة بحاجةٍ إلى قائدٍ مُسدَّدٍ ينهض بأعبائها، ويستنقذها من وهدة الانكسارات، والشك، والتيه، وينظمها في نسق عقائدي محكم، ويوحدها في ضوء المضامين الرسالية، والقرآنية بما يجعل من اكتساب شرعية السلطة مرهوناً بتكليفه النصي لا تكليفه القهري، ومرتبطاً بوعيها السياسي، والأخلاقي في تقصي المصلحة العامة في إدارة شؤون الدولة.

وحين خطب في الناس في صبيحة الليلة التي قُبِض فيها أمير المؤمنين عليه السلام نفذ إلى إضاءة سيرة أبيه عليه السلام في أبرز معالمها الرسالية كقائدٍ ربانيٍّ لأمةٍ لم تعِ كيف تستضيء بها، وكيف تنقاد إلى نور هدايته، وتسلك معه طريق المواجهة،

وكإمامٍ معصومٍ لا يرقى الأولـون ولا الآخـرون إلى مرقـاة فضـائله، وحتـى تستشعر الأمة خطورة الموقف الذي هي فيه، وقصورها في أداء الدور المكلفـة به، وإنها الآن أمام اختبار آخر عليها أن تتأهـب لـه، يفـرض عليهـا مواصـلة الجهاد بالفكر، والسيف، طالما تكشفت حركة التاريخ الإسلامي المنطوية على جهاد العترة المحمدية منذ بدء الـدعوة، وهـم يواجهـون عتـاة قـريش وعـلى رأسهم بني أمية في حرب معلنـةٍ ضـد الإسـلام مازالـت مسـتمرة في حـربٍ تضمر اليوم عداءً مبطناً يتزعمها سليلهم معاوية.

فلما رقي الإمام الحسن عليه السلام المنبر خنقته العبرة، فقعد قليلاً ثم قام، فقال عليه السلام بعد التحميد لله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله: (لقد قُـبض في هـذه الليلـة رجـلٌ لم يسبقه الأولون، ولم يدركه الآخرون، لقـد كـان يجاهـد مـع رسـول الله فيقيـه بنفسـه، وكـان رسـول الله صلى الله عليه وآله يوجهـه برايتـه، فيكتنفـه جبريـل عـن يمينـه، وميكائيل عن شماله، فلا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد تـوفى في الليلـة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، وفيهـا قـبض يوشـع بـن نـون، ومـا خلّـف صفراء، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت مـن عطائـه، وأراد أن يبتـاع بهـا خادماً لأهله).

ثم انحل وكاء دمعه فبكى حزناً، حتى ضجَّ الناس بالبكاء ندماً.

ثم استطرد عليه السلام كاشفاً الحقيقة القرآنية لأهل البيـت عليهم السلام مـن خـلال ذاتـه، ومفسراً مضمون المودة التي فرضها الله تعالى عليهم في محكمـة المبـين، فقـال:

(أنا ابن البشير النذير أنا ابن السراج المنير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن الذي أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، إنا من أهل بيتٍ افترض الله تعالى مودتهم في كتابه، فقال عز من قائل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾[1]، والحسنة مودتنا أهل البيت عليهم السلام، ثم جلس)[2].

فكأن الناس أفاقت من غيبوبة جهل، فانتبهت على ماء بيانه، وهو يبل الأسماع، ويغذي الطباع بودقٍ كان يمطره عليهم لسان أبيه، فتصغي له الروح، وتأنس البصيرة، ليحررها مما علق بها من غبار الغفلة، والوهن، وكأنها ندمت على ما فاتها من نصرة أبيه عليه السلام، وراحت تستحضر في ذاكرتها تلك الروح الهائلة للإمام علي عليه السلام وهو يرمي بها في غمرات الخطوب، واقياً بها رسول السماء صلى الله عليه وآله من عتاة قريش، حتى قامت دولة الإسلام، وترسخت ثوابت العقيدة وتبصرت إن طريقها إلى الله يكمن في نصرة آل محمد صلوات الله عليهم من سليل أولئك العتاة الذي يدعي الاسلام نفاقاً، مطالباً بخلافة المسلمين، وإدارة أمورها استجابةً لما يبطنه في داخله من حقدٍ عليه، ورغبة في التسلط على رقابهم التي حررها الإسلام من عبودية الجاهلية، ورقِّ الكفر.

---

(١) الشورى ( ٢٣).

(٢) الإرشاد ـ الشيخ المفيد ( محمد بن محمد بن نعمان العكبري ت ٤١٣هـ . المطبعة الحيدرية. النجف. بصيرتي. قم:ج٢/ ٧.

وعند استقراء ما تتضمنه الخطبة في ضوء بلاغة الإمامة التي اعتمدناها مرجعيةً في تقصي كل حركة تبثها الجوارح، واستظهرتها الجوانح نجدها قراءةً لماهية الإرادة الإلهي في تأويل معنى الإمامة، وأثرها في توثيق صلة العبد بربه، واستبصار حقيقتها العرفانية، فحمد الله على ما جرى ناشراً صفات الرحمن، وداخلاً منها إلى تشخيص هوية الرسالة، وتأويل سر النبوة، وحقيقة الأخوة، ومعدن الإمامة، والجوهر الدلالي لمضمون المودة بوصفها معراج الإيمان، ومحل الابتلاء التي بموجبها تقبل أعمال العباد.

ولما أنهى الإمام الحسن عليه السلام خطبته انثالت عليه الحشود لمبايعته بالخلافة بمحض إرادتها، وأول من بايعه قيس بن سعد فاشترط عليه (كتاب الله، وسنة رسوله، وقتال المحلين) فأبى ذلك، وقال عليه السلام: (على كتاب الله، وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرطٍ)[١] بل اشترط عليهم عليه السلام أن يكونوا طوع بنانه، وحد سنانه في السلم، والحرب، أي (إني أُبايعكم على أن تحاربوا من حاربت، وتسالموا من سالمت)[٢]، وهنا يجدوا بعض أهل السير منفذاً لوسم الحسن عليه السلام بالرغبة المسبقة للصلح، وإن كان على حساب خذلان جيشه المعبأ بنية القتال الصادقة، والذي لم يجد بداً من الموافقة على ما اشترط عليهم[٣]، لينفتحوا بذلك على تأويلاتٍ لاحقةٍ تصف الإمام بالتخاذل، والميل إلى الدعة، وتظهر في

(١) تأريخ الطبري ـ محمد بن جرير الطبري: ٤/ ١٢١.
(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير: ج٣/ ٤٠٢.
(٣) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة الدينوري: ج١/ ١٥٨.

الجانب الآخر أحقية معاوية في الحكم، وشرعية سلطته، وتفسح المجال لإثارة شبهات تاريخية أخرى، منها تبرئة المعسكر العراقي من تهمة الخذلان، وتمويه الحقيقة التاريخية عبر بتر الروايات، أو تحريفها بعيداً عما تصرّح به مقولات الإمام عليه السلام، أو تروي على لسان الحسن عليه السلام ناصحاً رعيته: (لا تكرهوا أمرة معاوية، فإنَّ أمرته سلم، وعافية، فلو قد مات رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل وعداً مفعولاً، فإمرة معاوية لست أخاف عليكم شرها، فما بعدها أدهى، وأمر)[1].

والحقيقة أن الإمام الحسن عليه السلام ما إن قبض بزمام البيعة يوم الجمعة في ٢١ من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة حتى حدد مسارات عمله في قيادة الأمة، وماهية النظام الإداري في تنظيم شؤون الدولة، وتعبئتها لقتال معاوية، فرتّب العمال، وأمّرَ الأمراء، ونظر في الأمور العامة، والخاصة، ثم أنفذ عبد الله بن عباس إلى البصرة و(كان أول شيء أحدثه، أنه زاد المقاتلة مئة مئة، وقد كان أبوه فعل ذلك يوم الجمل، والحسن عليه السلام فعله على حال الاستخلاف، فتبعه الخلفاء في ذلك)[2]، وأبدى حزماً شديداً مع القوى المتسللة، والألسن التي دسها معاوية خلسةً لبث الإشاعات في الكوفة، والبصرة، إذ أقام الحد على الرجلين اللذين أرسلهما معاوية إلى الكوفة، والبصرة للتجسس، وإثارة

(١) م، ن: ج١/ ١٢٠.

(٢) مقاتل الطالبيين. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦هـ). طبعة المكتبة الحيدرية. النجف ١٣٨٥: ٣٥.

البلابل، والفتن وكتب إليه: (أما بعد، فإنك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون كأنك تحب اللقاء، وما أوشك ذلك فتوقعه أن شاء الله وبلغني أنك شمت بما لا يشمت به ذوو الحجى)[١]، ولم تهدأ زوبعة المكر وسياسة الدهاء التي ينتهجها معاوية، والتي هي أصلُ مترسخ في سنخ طباعه، وموجهات تفكيره، ومنابت شعوره، بل هي الأيدلوجية الأموية التي يسوس به الأمة، ليغذي روح الفرقة، والتناحر بين أطيافها الاجتماعية، ويطعن فيها روح المروءة، ويسرجها صهوات البغضاء، ويصرفها عما يسمو ببصيرتها، ويربو بصفوها، حتى لو خار التاريخ لمعاوية وصفاً حقيقياً كما يقول العقاد لم يجد ما يجانسه غير (مفرّق الجماعات)[٢]، أو سامري الأمة تفريقاً يمكّنه من السيطرة عليها، وتفتيت وعيها الجمعي، والإمام عليه السلام يعي هذه الحقيقة الشيطانية لمعاوية، ولكن روح الإمامة تقضي عليه أن يهذبها بالنصح، ويضيئها بالموعظة الصادمة، ويريها ما تنطوي عليه نفسيتها من عقد عدائية للرسول الكريم صلى الله عليه وآله، علها ترعوى لنور الحجة، فتكون له لا عليه، ويلجمها بالحقائق الدامغة بنشر ما طواه الأمس، ملقياً الضوء على أفق البدايات الخاطئة للخلافة، وما أفرزته من مفارقات تاريخية انحرفت بمسار الأمة عن جادة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين المدائني المعتزلي. تفديم وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت.ط١ ١٩٩٥: ج١٦/ ٣١.

(٢) معاوية في الميزان. عباس محمود العقاد:٣٦ـ ٣٧.

الحق، حتى نبغ عرق الباطل بأمثالك للتطاول، والمنازعة، فابتدأ رسالته بالبسملة، وتلقيب ذاته بما وجب له، ثم سرد السيرة المحمدية مشفوعةً بالأدلة القرآنية في حقيقة النبوة، والنبيﷺ في إبانة فضل آل محمدعليهم السلام، وحقيقة قريش التي نازعت العرب سلطانها بحجة القرب من شجرته، لكنها تنكرت لثمرتها حتى أبعدتهم عن ميراثهم، فصبروا مخافةً على الدين أن يجد فيه المنافقون، والأحزاب مغمزاً فيثلمونه، وأنتَ أظهر المنافقين، وسليل أعتى أحزاب الكفر حقداً على الرسولﷺ، وعترتهعليهم السلام، والحسنعليه السلام حاكى خطاب أبيهعليه السلام في شدة القول، وبلاغة الكشف عما وراء الأحداث من حقائق مطمورة، فتعرية معاوية أخلاقياً، وعقائدياً يصب في تعرية التاريخ من أغشية التمويه، وتضليل الأمة، وسننتقي من مضمون الرسالة ما يضيء لنا ماهية الروح القيادية للإمام الحسنعليه السلام في تجريد خصمه من الحجج التي يستند إليها، واستظهارها في ضوء سيرته، والظروف التاريخية المحيطة به، والتي أثرت في نمذجة شخصيته الميكافيلية الحالمة بالسلطة، والرسالة ابتدأت من: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداًﷺ رحمةً للعالمين، ومنّةً على المؤمنين، وكافةً إلى الناس أجمعين، لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين... وأعز به العرب، وشرّف به قريشاً خاصةً، فقال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ فلما توفىﷺ تنازعت سلطانه

العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته، وأسرته، وأولياؤه، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد في الناس، وحقه، فرأت العرب إن القول كما قالت قريش، وإن الحجة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمدﷺ فأنعمت لهم العرب، وسلّمت ذلك، ثم حاججنا نحن قريش بمثل ما حاجت به العرب فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف، والاجتماع، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياؤهم إلى محاجتهم، وطلب النصف منهم، باعدونا، واستولوا بالاجتماع على ظلمنا، ومراغمتنا، والعنت منهم لنا، فالموعد الله وهو الولي النصير.

وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبيناﷺ، وإن كانوا ذوي فضيلة، وسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون، والأحزاب بذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده.

فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمرٍ لست من أهله، لا بفضلٍ في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنتَ ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول اللهﷺ، ولكن الله خيبك.

..... وإنما حملني على الكتابة إليك الإعذار فيما بيني وبين الله سبحان وتعالى في أمرك، ولك إن فعلت ذلك الحظ الجسيم، وللمسلمين فيه صلاح، فدع التعادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم

أني أحق بهذا الأمر منك عند الله، وعند كل آوابٍ حفيظ، ومن له قلب منيب، واتقِ الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين فوالله مالك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنتَ لاقيه، فادخل في السلم، والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك، ليطفيء الله النائرة بذلك، وتجمع الكلمة، وتصلح ذات البين، وإن أبيت إلا التمادي في غيك نهدتُ إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)[1].

فالخطاب الحسني لم ينبنِ على صرامةٍ زائفة، أو تدليس للحقائق، أو بلاغة التمويه وخداع المخاطب، بل يتمثّل التصور الأخلاقي للإمامة، الذي يريد أن يحرر خصمه من هوى النفس، وقصور الرؤية، وآفة البغي، حتى لا يكون أسير غيه، وحتى لا تكون الحرب هي الحل الوحيد لفضِّ النزاع.

ومعاوية كعادته في الرد لا ينهض على حقٍّ مسلوب له مطالباً به، بل يلجأ إلى اللجاج، والتضليل، وكيل التهم الباطلة لابساً جبة الدفاع الرسمي عن غيره، منحرفاً بحقائق التأريخ إلى ما يفسح له المجال للتصدي، لذا رفع راية المطالبة بدم عثمان على (أن الله طالب بدمه) فكان هو المُنفّذ، ثم يبريء ساحة الزبير، وطلحة من نكث البيعة ناسباً أراقة الدماء، وانتهاك الحرمات إلى الإمام علي عليه السلام، وحين ينفذ إلى منازعته للإمام في صفين فيراها خالصةً لله، داخلاً بعد ذلك إلى شبهة التحكيم، وشرعيتها التي تطاول عليها الإمام عليه السلام

(١) مقاتل الطالبيين ـ لأبي الفرج الاصفهاني: ٣٥ـ٣٦.

برفضها شكلاً ومضموناً، ثم يرى في نفسه جدارةً في قيادة الأمة لطول تجربته في السياسة، وقدمه في ولاية الأمة، وعلى الإمام أن ينصاع لهذه الجدارة [١].

وكان الإمام عليه السلام يعي كذلك ما تضمره أغلب نفوس أهل الكوفة التي أنهكتها كثرة الحروب، وطحنتها الخطوب، والصراعات السياسية من تفاوت، أو اضطرابٍ سايكلوجي في ترجمة إحساسها الدنيوي، وميلها للدعة، والسلم، أو تأويله إلى سلوك لا يمكن التنبؤ بمضمراته، أو نتائجه المستقبلية، فهي قد تنفعل في ذروة الأزمة، فيسمو بها عرق المروءة، ولكن ما أن تقذفها الغفلة في أسر الدنيا حتى تبرد همتها، وتخمد جذوتها، أما رؤوس القبائل، وقادة الجند فنفوسها أشدُّ اضطراباً، ونفوراً بأمانيها، وعلوقاً بأرشية معاوية، وهو يرميها في آبار مكائده، وأغواءاته، متاجراً بدينها، وهذا ما حصل، فقد (كتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له في السر، واستحثوه على السير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوهم من معسكره، أو الفتك به، وبلغ الحسن ذلك)[٢]، فلم يردعه ذلك عن التعبئة الحربية، والنهوض للمناجزة، لذا قام بالناس خطيباً محفزاً إياهم إلى شرعية الجهاد، خاصةً وإن معاوية قد تحرك بجيشه حتى بلغ منبج، مختزلاً خطابه من بديع الإطالة نافذاً إلى فحوى مراده، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد..

---

(١) ينظر: م. ن: ٣٦/ ٣٧.

(٢) الإرشاد ـ الشيخ المفيد: ج٢/ ١٢.

فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فلستم نائلين ما تحبون إلّا بالصبر على ما تكرهون، وبلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك، لذلك اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون)[1]، داعياً إلى زم مطايا النفوس بالصبر، والانحدار بها إلى حيث معسكره بالنخيلة، قبل أن تبرد الهمم، وتخفت العزائم في جيشه عليه السلام الذي تنخره آفتان فتاكتان تنفث الواحدة منهما سمومها في الأخرى، حتى تخفت جذوتها قبل الاتقاد، وتنفر بعنقها عن زمام الانقياد.

وهما آفة التخاذل عند عامة جنده، وآفة الخيانة عند أغلب قادته، ومن الصعب على جيش تضرب في جذوره هاتان الآفتان أن يقوى على تنظيم صفوفه، أو تنهض به نية مبرأة من الوهن، أو تسعى به مروءة، وأنما هو كالجذع الذي تآكلت جذوره في أرضٍ رخوة، إن ارتجت به الأرض تهاوى، أو ضربته ريح شبهةٍ مال، إلا الخلص من أصحابه فهم انعكاس لعقيدتهم الراسخة، والذي يرى فيهم الإمام الحسن عليه السلام عملةً نادرة من الحيف أن يفرط بها، فعدي بن حاتم الطائي حين أبصر الوهن يغلُّ ألسنة الناس عن إعلان استجابتها للإمام عليه السلام، وهو يحرضها للقتال، انتفض كالصقر يستنهض البغاث، فقال موبخاً:

---

(١) أعيان الشيعة ـ محمد الأمين العاملي. مطبعة ابن زيدون ـ دمشق: ٤/ ١٩.

(أنا ابن حاتم الطائي، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم، أين خطباء مضر؟، أين المسلمون؟، أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جدَّ الجد فراوغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله)[١]

ثم استقبل الحسن بوجهه، فقال: (أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما يحمد ورده، وصدره، فقد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا، وأطعناك فيما قلت، ورأيت، وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحب أن يوافينا فليوافِ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه)[٢].

ثم تبعته معادن الرجال الأصيلة التي خلصت بحبِّ آل محمدٍ عليهم السلام، وصفا مزيجها من شوب النفاق، و خليط الأهواء أمثال قيس بن سعد يـن عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة باستنفار الناس إلى مقارعة أهل الشام، فخفَّ معه (أخلاط من الناس بعضهم شيعة له، ولأبيه عليهما السلام وبعضهم مُحكِّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتنٍ، وطمعٍ في الغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين)[٣].

---

(١) م.ن: ٤/ ١٩ـ ٢٠.

(٢) م. ن: ٤/ ١٩ـ٢٠.

(٣) الإرشاد ـ الشيخ المفيد: ج٢/ ٧.

وبلّت هذه الأصوات المخلصة قلب الإمامعليه السلام الذي أطّلع على حقيقة النوايا في النفوس، فقال: (صدقتم ـ رحمكم الله ـ ما زلتُ أعرفكم بصدق النية، والوفاء بالقول، والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيراً)[1].

ثم مضى الإمامعليه السلام صوب معسكره بالنخيلة، وقد استخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب لتنظيم أمورها، وقدح حمية الناس للنهوض، واشخاصهم إليه [2].

فمن جهة كان غيث تلك الأصوات على قلتها يبرق بالنصر، ويمطر بالأمل، وتنجلي عن وثبات الأسود، زئيرها ترتعد له قلوب أهل الشام، ومن الجهة الأخرى كانت الآفتان تفتكان بذلك النصر أن يتحقق، وبذلك الأمل وهو يتخلق في رحم الغيب أن يلد، ويبصر الإمامعليه السلام تلك الضعة العالقة بالنفوس، وقد تنمّرت، فراحت تتداعى بأصحابها إلى الهاوية، وهو يقول بأسى محذراً الأمة من درن الخديعة، بوصفها آفة النفس الوضيعة، داعياً إلى مجاهدة النفس بالتقوى، وتخليص النوايا من زبد الخطايا، والنهوض بصفوها ناشراً إمامهم فلسفة تلك المجاهدة التي تعصمهم من الغدر، والرياء، والدهاء، فخاطبهمعليه السلام: (أيُّها الناس، إياكم والخديعة، فإنها من خلق اللئام، تصفية العمل أشدُّ من العمل، وتخليص النية من الفساد أشدُّ على العاملين من

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ١٩ـ٢٠.

(٢) مقاتل الطالبيين ـ لأبي الفرج الأصبهاني. تح. السيد أحمد صقر. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت: ٥٩.

طول الجهاد، هيهات، لولا التقى لكنتُ أدهى العرب)[١].

ولولا التخاذل لكان النصر ولنفذ الوعي من شكل الاستجابة الظاهرية إلى مضمونها العقائدي، ولم تتهاو القادة كالذباب النهم على مائدة معاوية، فبعد أن خرج الإمام الحسن عليه السلام بجيشه إلى (النخيلة) منحدراً منها إلى دير (عبد الرحمن)، حيث أقام فيها ثلاثة أيام عسى أن يتداعى إليه المتخلفون، ومن هناك عبأ لعبيد الله بن عباس جيشاً من خيرة المقاتلين الذين صقل أغلبهم الإيمان وقاد خطى بعضهم هُدى القرآن، ومنهم من وترته الأماني راسماً له آلية التعامل النفسي والشعوري مع هذه الصفوة المخلصة، والنسق الجغرافي لتحرك قواته، والعسكري لعمله الميداني: (يا ابن عمّ: إني باعث معكَ اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء المصر.... فسرْ بهم وألِن جانبك، وابسط وجهك، وافرش لهم جناحك، وادنهم من مجلسك، وسرْ بهم نحو الفرات، حتى نقطع بهم الفرات، ثم تصير بمسكن، ثم أمض حتى تستقبل معاوية، فإن أنتَ لقيته، فاحبسه حتى نأتيك، فإني في أثركَ وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين ـ يعني قيس بن سعد، وسعيد بن قيس ـ فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، وإن فعل فقاتله، فإن أصبت فقيس على الناس، وإن أصيب قيس فسعيد بن قيس على الناس)[٢].

---

(١) تحف العقول ـ ابن شعبة الحراني: ٩٩.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ـ باقر شريف القرشي: ٢/ ٧٢.

وحين استقر الجيش في مسكن ظاهراً لم يستقر باطناً، ولم تسكن شوارد الأهواء، وقد نفذت إليها أيادٍ خفية تبث الإشاعات بين الرعاع، وتغوي وجوه القوم بالأطماع، حتى تسلل بعضهم في وضح النهار، وشاع هذا النذير كالنار في الهشيم، فاستشعر عبيد الله الخطر الذي يتآكل أطراف معسكره، وينفذ إلى قلبه، وراحت مفردة الصلح تتداعى إلى شغف الأسماع، واندست رسل معاوية إلى عبيد الله نفسه، تمنيه، بل جعلته واقفاً على نصلٍ حادٍ من الخيارات القلقة، لم يستوعبها عقله المهزوز، فعمت بصيرته، وتناهبته الأسئلة، فهو الموتور بولديه، وأسرةٍ تركها معاوية نهباً للفجيعة، وهو يمين ابن رسول الله ﷺ، أيبر ذاك اليمين، أم يقطع هذا اليمين، فكانت المفاجأة التي صعقت الأمة، وفاقت التصور، إن فرط بالاثنين، فنفذت طعنته في صميم الأمة منقاداً إلى دنيا معاوية، فتسلل ليلاً مع ثمانية آلاف تاركاً مصلاته تنتظر من قائد الجيش أن يصلي صلاة الفجر جماعة بجيش الكوفة، ولولا الحنكة الميدانية التي تمثلها قيس بن سعد في تلافي الأزمة، ومعالجة الموقف لاضطربت أرشية القوم، وتاهت الألباب، إذ نهض حاسر الهمة يخطب في بقية الجيش المذهول: (أيها الناس لا يهولنكم، ولا يعظّمن عليكم، ما صنع هذا الرجل المولّه، إن هذا، وأباه، وأخاه، لم يأتوا بيوم خيرٍ قط، إن أباه عم رسول الله خرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليس كعب بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله، فأخذ فداءه، فقسمه بين المسلمين، وإن أخاه ولاه على البصرة فسرق ماله، ومال

المسلمين، فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك له حلال، وإن هـذا ولّاه عـليٌّ على اليمن، فهرب من بسر بن أرطأة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هـذ الذي صنع)[١]، فتنادى الناس (الحمد لله الذي أخرجه من بيننا)[٢].

ولما علم الإمامعليه السلام بهذه الطعنة الغادرة شعر بآثارها الحادة تحزُّ نيـاط قلبـه، وتوهي عزائم جيشه، فتفككه من موضع التماسك، وتنهشه من حيث انقطـاع عزيمة الأطراف إلى إرادة القلب فتتداعى، وينشب اللجاج، والخلاف، وتنبـغ الفتن، وتضيع هيبة القادة، بينما معاويـة شـمخ بـأنف خيلائـه، ودهائـه لهـذه الطعنة النجلاء، وأيقـن إن النصـر يكمـن في المـال، والإشـاعة، فـراح يـروغ بألسنته في عمق المعسكر الحسني، فتندس بين الصفوف الواجمة، فتخرم نسيج وحدتها، وتنكأ أسماعها بما يستفزها، ويثير اضطرابها، فيشيع في معسكر قـيس بـن سـعد بمسـكن إن الإمـام الحسـن قـد صـالح معاويـة[٣]، وفي معسـكر الحسنعليه السلام إن قيس بن سعد قد صالح معاويـة، وصـار معـه[٤]، ورغـم هـذا التمزق الداخلي لجيشه ظل الإمامعليه السلام يعبئه للمواجهة، ويبث فيه روح الجهاد، ويذكره نصر الله تعالى، واضعاً ثقته بأصحاب العقيدة، وذوي الحجى، وكـان

(١) مقاتل الطالبيين ـ لأبي الفرج الأصفهاني:٣٥.

(٢) م. ن: ٣٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب اليعقوبي. مطبعة الغري. النجـف: ٢/ ١٩١.

(٤) البداية والنهاية ـ للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمـر بـن كثـير القـرشي الدمشـقي (ت٧٧٤هـ).تح عبد الله بن عبد المحسن التركي. هجر للطباعة والنشر. ط١ ١٩٩٧: ٨/ ١٤.

من خططه العسكرية أن يرسل عليه السلام قائداً من كندة بأربعة ألاف ليعسكر بالأنبار، ويكون عيناً للإمام عليه السلام هناك، حتى إذا وصل أعمته بوارق الطمع، فانساب مع خاصته تحت جنح الظلام، وهو يلعق بلسانه ما سال من لعابه، إذ ورد إليه كتاب معاوية مع رسل الإغواء يشفُّ عن مضمونه الدنيوي (إنك إن أقبلت إليَّ وليتك بعض كور الشام، أو الجزيرة غير منفسٍ عليك، وأرسل إليه بخمسمائة ألف درهم)[1]، وتلاه الإمام عليه السلام بقائدٍ آخر من مراد، وأخبرهم أنه سيغدر مثل صاحبة، فقال عليه السلام بعد إن حمد الله، وأثنى عليه: (يا أيها الناس، هذا فلان الكندي قدمته بين يدي الله لمحاربة عدو الله، وابن آكلة الأكباد، فبعث إليه بمال، ووعده، ومناه حطام الدنيا، ومتاعها، فباع دينه، وآخرته بدنيا زائلة غير باقية، وقد توجه إليه، وقد أخبرتكم مرةً أخرى أنه لا وفاء لكم، ولا ذمة، ولا خير عندكم، وإنكم عبيد الدنيا، وإني موجه مكانه رجلاً، وإني لأعلم أنه يفعل فعل صاحبه، غير مفكر في عاقبة أمره، ومرجعه، ولا مراقب لله في دينه)[2].

فبلاغة الإمام عليه السلام اقتضت أن يريهم بمرآة الاستعارة اعوجاج أنفسهم، وإنهم أمّروا الدنيا عليهم فصاروا عبيدها، وتناسخت سجاياهم على نقض العهد، وشيمة الغدر، حتى صاروا نسيجاً واحداً تنعكس في ذراته ماهية

(١) الخرائج والجرائح. الشيخ أبو الحسين سعيد بن هبة الله قطب الدين الروندي. تح. مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه. قم. ط١: ج٢/ ٥٧٥

(٢) إثبات الوصية للمسعودي ١/ ١٥٩.

الكل، وحتى يستيقنوا ما تضمره نفوسهم من أفعالٍ غادرةٍ مؤجلةٍ من سنخ تلك السجايا وضعهم تحت مؤشرات التجربة، وبرهان العصمة، بأن أرسل غيره، فانقاد لنقس الهاوية، فهو يفسر هذا التناسخ في السجايا عبر ظاهرة الالتفات، أي النفاذ من خلال الضمائر المتباينة لمعاينة النموذج الجمعي لجيشه، فمن ضمير الغائب المفرد (الماضي) وهو فعل الكندي كدليل إلى ضمير المخاطب الجمعي (الحاضر) أي قادة الجيش كتصور، والعودة إلى ضمير الغائب (المستقبل) وهو فعل المرادي كبرهان.

فإذا كان التصور محض افتراض، فالبرهان وليد التجربة دون أن يعني هذا وصم الكل بهذه السجية، بل هو حكم الأغلب الأعم، بحيث أن المتبقي من الجيش ممن تعالى بنفسه عن التلوث بهذه السجية، وأبى الخضوع لها لا يمكن أن يشكل قاعدة بحجم المواجهة، ويقيناً بحجم النصر.

فالإمام عليه السلام استشعر خطورة الموقف، ورأى طباع الناس بدأت تألف تنمر أهل الباطل، ولا يغيضها خذلان أهل الحق، وتناست حقيقة من يقاتلون، ولمن يخذلون، لذا خطب عليه السلام مرةً أخرى لاستنهاض الهمم، مركزاً على وحدانية الطاعة في أنساقها المعرفية التي تنبع من التوجه الشعوري للذات صوب الحق، ومن قراءة العقل الواعية لفرضية الطاعة من جهة اتصالها بالله تعالى، والرسول، وأولي الأمر، حتى تجتمع الجوارح، والمدارك، والبصيرة على وجوبية هذه الطاعة، كي لا تجرفها الغفلة إلى مصيدة الشك، ووسوسة الشيطان، فقال عليه السلام مكرراً في

خطابه الضمير الجمعي (نحن) بدلالة العترة عليهم السلام تأييداً لاستمرارية وجوبية الطاعة للأئمة من بعده، وترغيباً للأمة في تفعيل ملكة التفكر، وترميم النفس المتهالكة: (نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، والمعول عليه في كل شيء لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله، وأولي الأمر مقرونة قال (جل شأنه): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وقال عز وجل ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان إنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فتُلقون للرماح إزرا، وللسيوف جزرا، وللعمد خطأ، وللسهام غرضا، ثم لا ينفع نفساً إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، والله أعلم)[1].

وظل سيل الإشاعات الأموية يهدر بهتاف الشيطان مادامت الأسماع

---

(١) كلمة الإمام الحسن عليه السلام ـ السيد حسن الشيرازي. مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية ط١ ٢٠١٧: ٣٧.

مصغية، والنتائج مثمرة، وكان من الصعب السيطرة على هذا السيل حتى يرتد على أعقابه خائباً، لأنه يتغشى بلباس الأفاعي، ولسان المرائين، وينبغ في لحظة التوجس، ويهجم في سرعة البرق، ثم يتلاشى، تاركاً صداه ينهش سكينة النفوس القلقة، ويغوي بعضهم، خاصةً ممن يحمل فكراً تكفيرياً كالخوارج، أو تقوده نعرة العبث إلى تشكيل حالةٍ من الفوضى، والتمرد الأعمى، والانفلات من خلق الطاعة، والانضباط العسكري المفروض إلى حد التجريء على قادة الجيش، ولو كان الإمام الحسن عليه السلام ذاته، فلما أُشيع مقتل القائد قيس بن سعد في معسكر المدائن تجرأ بعض الضالين على الإمام عليه السلام، فعدوا على أمتعته فنهبوها، حتى وصل النهب إلى سرادقه[1] بل إنهم نزعوا بساطاً كان الإمام عليه السلام جالساً عليه، واستمر هذا الفعل الغوغائي يتوالد مع فعل الشائعات المدروسة بدقة بين الحين، والآخر، وتتضخم ردة فعله خارج السنن المعهودة، فحين توخى معاوية إثارة إشاعة أخرى أعدها بحنكةٍ تمثل فيها أبشع حالات الدهاء، فقام بإيفاد رسل المفاوضة[2] إلى الإمام الحسن عليه السلام ليعرضوا عليه بادرة الصلح، فلما خرجوا من خيمته بثوا في أسماع الجيش موافقة الإمام عليه السلام بحقن الدماء، والمصالحة، فاضطربوا كالإبل المطعونة من

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٤.

(٢) وهم المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن الحكم: شرح ابن أبي الحديد، عبد الجبار ناجي، نقد الرواية التاريخية ص١٧٤، وينظر شرج نهج البلاغة ج٨ ص٦٢ في سياق ذكر الكتب والمراسلات و ج٤ ص١٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

الظهر، فوثبوا على الإمام عليه السلام فانتهبوا مضاربه، وأمتعته، ووصل الأمر إلى تكفيره، ومحاولة اغتياله، والاعتداء عليه إذ قام الجراح بن سنان بطعنه في فخذه، وقد صرّح بلسانه الخارجي: (أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل)[١]، وحُمل على سريره إلى المدائن، ونزل في بيت سعد بن مسعود الثقفي، وكان عامل أمير المؤمنين عليها، فأقره الإمام الحسن عليه السلام عليها [٢].

وفي ضوء هذا الانهيار المعنوي، والتهافت الأخلاقي لبعض أفراد الجيش، وهو في مدار حصونه لا يمكن لأيِّ قائد أن يزحف به إلى أتون المعركة، لذا نادى الإمام عليه السلام بالصلاة جامعة، فقام بالناس خطيباً، ليضيء الحقائق التاريخية التي تناساها الكثير، وتأويلها في ضوء ما يحدث من خروقات أخلاقية، وكأنها انصرفت عن محاربة عدوها إلى نصرته، والنفوس الصافية كدرتها المطامع، فأحرقت دينها بنار دنياها، وتناهبتها الضغائن، واستولى عليها حب الدنيا، فقال: (والله ما يثنينا عن أهل الشام شك، ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم، ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر)[٣] ثم عرض

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج٢/ ٢١٤.
(٢) م.ن: ٢١٥.
(٣) بحار الأنوار ـ المجلسي: ٤٤/ ٢١.

عليهم خياراته بين صدق المجابهة، أو الاستجابة لدعوة معاوية للصلح، فقال: (ألا وإن معاوية قد دعا لأمرٍ ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلناه منه، وأغضضنا على القذى، وإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله، وحاكمناه إلى الله)[١] فتعالى الصدى حاداً، مفروغاً منه: (البقية.. البقية).

فالإمامعليه السلام ينظر إلى ضرورة المواجهة في ضوء المعطيات التاريخية التي تعيشها الأمة، ومدى استعدادها لتحمل المسؤولية، واستظهار هذا الاستعداد على أنه نتيجة لما تحمله من وعي معرفي، ودرجة الاستضاءة بأنواره، وسبب لما يحدث مستقبلاً، وساعياً في الوقت نفسه إلى إظهار حقيقة خصمه معاوية الذي ظل رافعاً راية التضليل، واعتمد الشبهات، والإشاعات سلاحاً، وحجةً، وضرورة تعرية تلك الشبهات، حتى تتضح الرؤية التأريخية للأحداث، وينكشف الدهاء الأموي في تضليل الأمة، وكان البيان الحسني في أكثر مقولاته يحاكي تلك المعطيات في عمقها التاريخي نزوعاً إلى ترجمة اللحظة التاريخية الحرجة التي تعيشها الأمة، وتفعيل دورها في تقويم مسارها على هدى الرسالة، ومساحة الرؤية التي تستنبطها من آثارها المعرفية، وكلما تقلصت مساحة هذه الرؤية سيطرت الشبهة على حركة النفوس الخاوية، وكلما اتسعت فقدت الشبهة معالم سلطتها، وتمثلت العقول هداياتها بما تحمله من جوهر معرفي يضيء لها ماهية الحكم على مجريات الواقع، فلو تمثلنا خطبته، وهي تتماهى بين نبرة

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ٤٤/ ٢١.

النصح، والتوبيخ في إيقاعٍ يختزل المعنى في جملٍ قصار تتوالى تباعاً لاستجلاء الحقيقة، فقال عليه السلام: (معشر الناس: عفت الديار، ومحيت الآثار، وقل الاصطبار، فلا قرار على همزات الشياطين، وحكم الخائنين، الساعة والله صحّت البراهين، وفصّلت الآيات، وبانت المشكلات، ولقد كنا نتوقع تمام هذه الآية تأويلها، قال الله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]، فلقد مات جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وقُتِل أبي عليه السلام، وصاح الوساس الخناس في قلوب الناس، ونعق ناعق الفتنة، وخالفتم السنة، فيا لها من فتنةٍ صماء عمياء لا يسمع لداعيها، ولا يخاف واليها، أُظهرت كلمة النفاق، وسُيرت رايات أهل الشقاق، وتكالبت جيوش أهل العراق من الشام والعراق، هلّموا رحمكم الله إلى الإفتتاح، والنور الوضّاح، والعلم الجحجاح، والنور الذي لا يطفئ، والحق الذي لا يخفى.

أيها الناس تيقظوا من رقدة الغفلة، ومن تكاشف الظلمة، فو الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وتردى بالعظمة، لئن قام إليّ منكم عصبةٌ بقلوبٍ صافيةٍ، وبنياتٍ مخلصةٍ لا يكون فيها شوب نفاق، ولا نية افتراق، لأجاهدن بالسيف قدماً، ولأُضيقن من السيوف جوانبها، ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سنابكها، فتكلموا رحمكم الله)[2].

---

(١) آل عمران:١٤٤.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي:ج٤٤/ ٦٧.

فحقيقة الإمامة تتحرى من خلال البيان المعرفي تبيان حقائق الأمور، وتأويلها بسعة المجاز، وهو يستنطق سر الإعجاز مفسراً ما يجري على أرض الواقع بآياته، ومن الألم الذي ينطوي عليه حتى كان لأسلوب القسم، والتمني إن يظهر حجم معاناة الإمام من مرض النفاق الذي خالط القلوب، وتداعى بنياتها للنكوص عن نصرة الحق، فظل حجم التمني مقرونا بالاستجابة المطلقة له، فالسنن التي أدركها من فعل الخائنين ما يدرك الديار التي عفى عليها الزمن، حتى محيت الآثار الحسنة، والسنن المرضية بما جرى عليها من ملاحن التشويه، والتزييف، وهذا مما يوجب النهوض، لا الصبر، والتخاذل، فقد صحت البراهين الإلهية، وانكشفت الآيات عن مكنونها، وأظهرت تمام تأويلها، فما إن مات هادي الأمة الرسول محمدﷺ وقُتِل الشاهد منه عليعليه السلام حتى صاح الشيطان الراقد في القلوب استجابةً لناعق الفتنة، ومخالفة السنة بوضع الشبهات، وتلفيق الروايات، فانقادت النفوس لكلمة النفاق، وظلمة الأهواء، وتركت خلفها نوراً لو انقادت إليه أوردهم منهلاً روياً صافياً، ثم أضاء لهم فساد تخاذلهم للشيطان بنور نهضته لله تعالى، فكان للقسم صدىَ شعوري يظهر مقدار الألم الذي يجتاح نفس الإمامعليه السلام لتخاذلهم عن نصرة الحق، ويوغل في توبيخهم، عسى أن تستعيد النفوس صدق نفورها لله، وعشقها للشهادة في سبيله.

## ماهية الصلح

ربما تباينت آراء المؤرخين في أولية المبادر إلى الصلح، فمنهم من يرى أن الحسن عليه السلام هو الذي دعا إلى الصلح أولاً، خاصة بعد تفرق الناس عنه كما يرى الطبري[١]، وقيل بعدما طُعِن بخنجرٍ في فخذه فدعا عمرو بن سلمة الأصبحي، وأرسله إلى معاوية يشترط عليه[٢]، أو لما رأى الحسن عليه السلام أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية[٣]، ولكن الذي لا يعقل ما قاله ابن قتيبة الدينوري: إن الحسن عليه السلام كاتب معاوية فور مبايعته بالخلافة، فخلا به، واصطلح معه، على أن معاوية الإمام ما كان حياً، فإذا مات فالأمر للحسن عليه السلام[٤].

وهناك من يرى إن معاوية هو من سعى لهذا الصلح، وكانت رسله تترى على الحسن عليه السلام، حتى أجابه مضطراً[٥]، أما ابن الجوزي فيذكر أنه راسله سراً فلم يجبه عليه السلام، ثم أجابه بعد ذلك[٦]، ولكن الأجلى إن جهود معاوية منذ

---

(١) تأريخ الطبري ـ تأريخ الأمم والملوك: ج٥/ ١٥٩ـ ١٦٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. دار الكتب العلمية. بيروت: ج٣/ ٢٠٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج٢/ ١٩٢.

(٤) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة الدينوري: ج١/ ١٤٠.

(٥) أنساب الأشراف. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ) تح: سهيل زكار ـ د. رياض زكلي، دار الفكر. بيروت. ١٩٩٧م:ج٢/ ٤٠. تاريخ اليعقوبي: ج٢/ ٢١٤.

(٦) تذكرة الخواص ـ سبط بن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي. منشورات الشريف لرضي. قم المقدسة.ط١ ١٩٩٧م: ٢٠٦.

البداية كانت تستجدي هذا الصلح لما يحققه له من مكاسب دنيوية يحلم بها، وإن الإمام الحسن عليه السلام كان مصراً على مواصلة الجهاد ضد معاوية، وهذا جليٌّ في الخطبة التى خيّر فيها أهل الكوفة بين الصلح، والمناجزة، فقال عليه السلام: (ألا وإن معاوية دعانا لأمرٍ ليس فيه عزٌّ، ولا نصفة)، إذ تسطع حقيقة المبادر إلى الصلح، بل خاطبهم بلسان الموبخ العارف بما تؤول إليه خفايا الأمور، والعازم على ديمومة المواجهة (يا عجبا من قوم لا حياء لهم ولا دين مرة بعد مرة ولو سلمت إلى معاوية الأمر فأيم الله لا ترون فرجاً أبداً مع بني أمية، والله ليسومنكم سوء العذاب، حتى تتمنون أن يلي عليكم حبشياً ولو وجدت أعواماً ما سلمت له الأمر، لأنّه محرم على بني أمية فأفٍّ وترحا يا عبيد الدنيا)[1]، بل يخاطب معاوية بلسانٍ أشد على أن الخلافة شأن إلهي (وإنها لمحرمة عليك وعلى أهل بيتك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله، لو وجدت صابرين عارفين بحقي غير منكرين ما سلمت لك ولا أعطيتك ما تريد)[2].

أما شروط الصلح فطالها كذلك التباين عند مؤرخيها، فمنهم من نفى أى شروطٍ، أو التزامات فرضها الإمام عليه السلام على معاوية بعد أن تنازل له[3]، وهو رأيُ خطل لا يستند إلى حجة منطقية، أو تاريخية سوى إظهار الإمام عليه السلام بصورة المتهافت الذي لا يفقه من سنن السياسة شيء، ومنهم من أثبتها ولكن

---

(١) الخرائج والجرائح:٢/ ٥٧٦.
(٢) ن.م:٢/ ٥٧٦.
(٣) الإمامة والسياسة: ج١/ ١٤١.

اختلف في ماهيتها، وبنودها، فذكر البلاذري أن معاوية دفع إلى الحسن عليه السلام صحيفة بيضاء ختم أسفلها ليكتب ما شاء من الشروط، فاتخذ الإمام عليه السلام من مفردة (الأمر) أي ما يقصده من الأمر هو الإمرة والملك منطلقاً بيانياً ينفي عليه مخاطبته بأمير المؤمنين، أي (سلّم إلى معاوية الأمر الدنيوي الذي أشير إليه بقوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وهو حكم الدنيا، وسلطانها، والملك المحض، ولم يعترف له بالإمامة الدينية، والبيعة، والخلافة الشرعية)[1]، وهذا لا يحتاج إلى تبرير، فمعاوية ساعٍ إلى ما يحلم به، لا ما يستحقه، وهو مسك عصا السلطة بأيِّ شكلٍ كان، ولا تهمه الألقاب، فهو قادر على اصطناعها، وأهم ما ورد من بنود الصلح التي وقعها معاوية في ربيع الآخرة من عام ٤١ هجرية [2] ما يلي:

ـ يسلّم الأمر إلى معاوية بشرط أن يعمل بكتاب الله، وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يخاطبه الحسن عليه السلام بإمرة المؤمنين.

ـ ترجع الخلافة بعد معاوية إلى الحسن عليه السلام، وإذا حدث له حدث فإلى الحسين عليه السلام.

ـ يوقف معاوية سبِّ أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر، ويأمر أن لا يذكر علي عليه السلام بعد ذلك إلا بالخير[3].

---

(١) صلح الإمام الحسن بن علي. الشيخ راضي آل ياسين: ١١٠ ـ ١١٤.
(٢) أنساب الأشراف ـ البلاذري: ج٣/ ٤١.
(٣) تأريخ الأمم والملوك للطبري: ج٥/ ١٥٨ـ ١٦٣.

ـ لا يشمل تسليم الأمر بيت مال الكوفة الذي يبلغ موجوده خمسة ملايين درهم، وعلى معاوية أن يرسل إلى الإمام عليه السلام مليوني درهم كل عام، وأن يقدم بنو هاشم على بني أمية في المنح، والأعطيات، وأن يقسم مليون درهم بين ذوي الشهداء الذين قاتلوا إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام في حربي الجمل، وصفين، وكل ذلك يجب أن يؤدى من محل خراج دارابجرد من أعمال شيراز[١].

ـ أن يكون الناس في كل مكان من أرض الله في الشام، أو العراق، أو اليمن، أو الحجاز في أمنٍ، وأمان، يتمتع بذلك الأسود والأحمر، وأن يغض النظر عن أعمالهم السابقة، وأن لا يؤخذ أهل العراق بالعداوات، والأحقاد السابقة، ويكون أصحاب علي عليه السلام في أمان أينما كانوا، وأن لا يتعرض أحد من شيعة علي عليه السلام للأذى، وأن لا يخافوا على أرواحهم، وأموالهم، ونواميسهم، وأن لا يتعقب رجال معاوية أحداً منهم، ولا يصيبوه بمكروه، وأن يعطي كل ذي حقٍّ حقه، وأن لا يسترجع من أصحاب علي عليه السلام شيء مما في أيديهم، وأن لا يعمل أحد في الجهر ولا في الخفاء عملاً من شأنه تهديد حياة الحسن بن علي عليه السلام أو أخيه الحسين، أو أي أحد من بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بالخطر[٢].

---

(١) أنساب الأشراف ـ البلاذري: ج٣/ ٥٠.

(٢) تأريخ السبطين سيرة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام. الشيخ كاظم ياسين. دار جواد الأئمة عليهم السلام ـ ط١ ٢٠١٢. بيروت: ١٠١ ـ ١٠٢.

فقد انتظم الصلح على تسويغات عدة، منها ما تفرضه الموجهات الميدانية الآنية للمعركة التي أفرزها مرض الوهن الذي دبَّ في جيش الإمام، والفوضى اللاأخلاقية التي ثلمت هيبة القادة في نظر الجند، ومنها ما تحفزه الموجهات المستقبلية التي من أهمها تعرية الوعي الأيدلوجي لمعاوية في إدارة الدولة الإسلامية، والانحراف بها عن أصولها الرسالية، وتحفيز وعي الأمة إلى قراءة المعطيات التاريخية لشرعية سلطته، ومن أين يستمدها، والتفريق بين سلطة الإمام المنصوص عليه والذي تنطبق عليه مضمون الآية التي كثيراً ما يحتج بها الإمام عليه السلام: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، وبين المنتزع لهذه السلطة بالقوة، والتي يسعى معاوية إلى تفسيرها في ضوء الرؤية الجبرية التي يؤمن بها، موهماً السامع بشرعيته التي ابتدعها هو، فقال: (والله ما حمّلني على الخلافة إلا قول رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ملكتَ فاحسن)[2].

أما التسويغات الأخرى التي أتخذ منها الحسن عليه السلام مداخل معرفية تصبُّ في مصلحة الأمة، فكثيراً ما نظر المخلصون لآلِّ محمد صلى الله عليه وآله إلى هذا الصلح بامتعاض ينبع من رغبتهم في مواصلة الجهاد، أو قصور مداركهم العقلية، لذا اشتد هاجسهم في التحري عن هذه المسوغات، فعن أبي سعيد عقيصا، قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: يا بن رسول الله لِمَ داهنت معاوية،

(١) النساء:٥٩.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير: ج٨/ ١٢٦.

وصالحته؟ قال عليه السلام: يا أبا سعيد ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه، وإماماً عليهم بعد أبي عليه السلام؟، قلتُ بلى.

قال: ألست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي، ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟، قلت بلى.

فأنا إذن إمام لو قمت، وإمام لو قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة، وبني اشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفار بالتنزيل، ومعاوية، وأصحابه كفار بالتأويل)، يا أبا سعيد إن كنت إماماً من قِبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قُتِل)[1]، فكانت السنة النبوية معياراً مهماً في تبرير المضامين الرسالية التي توخاها الإمام عليه السلام للصلح.

وحين لامه بعضهم على الصلح، جادلهم بحجيّة الإمامة التي ترى أين يكمن خير الأمور، ومن إيِّ وجهٍ يأتي مكر الله، فخفاء وجه الحكمة على الرعية تجريد لحاجتهم إليه عليه السلام، فليصطحبوا هذا العلم بالرضا، وهذا الفعل بالقبول، لذا كان استحضار الدليل القرآني من قِبل الإمام عليه السلام يستدعي ترسيخ القناعات بهذه الحجية التي تنفذ بالوعي من ظاهر هذه الحكمة إلى باطنها، فقال عليه السلام: (ويحكم ما تدرون ما عملت، والله للذي عملتُ لشيعتي

(١) علل الشرائع. الشيخ الصدوق ١: ٢١١.

خيرُ مما طلعت عليه الشمس، أو غربت، ألا تعلمون أني إمامكم، ومفترض الطاعة عليكم، وأحد سيدي شباب أهل الجنة بنصٍّ من رسول الله صلى الله عليه وآله عليَّ. قالوا: بلى.

قال: (أما علمتم أن الخضر لما خرق السفينة، وأقام الجدار، وقتل الغلام كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران عليه السلام، إذ خَفِي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله حكمة، وصواباً؟ أما علمتم ما مات منا أحد إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم عجل الله فرجه الشريف)[1]، وهذا ما يؤكده الإمام محمد الباقر عليه السلام: (والله الذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس)، فالخير الباطن الذي يعيه الإمام عليه السلام أنفع للإمة من الخير الظاهر الذي يجهله الآنام.

ولما طلب معاوية من الإمام الحسن عليه السلام أن يتكلم بعد الصلح بجمعٍ من أهل الكوفة، كان للكلمة وقع النور في محاجر الظُّلمة، والحجة في ضمير الأمة، وهي تتمثل أمام الملأ الحقائق التي جرت بالأحداث إلى مساراتٍ ضبابية قد يصعب على العقل استقراء مسوغاتها، فكان المسوغ الإصلاحي أي المصلحة العامة للأُمة ينطوي على مناورة سياسية، وأخلاقية لم يستوعبها معاوية اللاهث وراء سراب الملك، وعلى المصلحة الخاصة للثلة المخلصة من الأمة، والتي ستكون القوة الفاعلة في المستقبل، فقال: (أيها الناس إن أكيس

(١) علل الشرائع. الشيخ الصدوق: ج١/ ٢١١.

الكيّس التقي، وأحمق الحمق الفجور، وإنكم لو طلبتم ما بين جابلق، وجابرس رجلاً جده رسول اللهﷺ ما وجدتموه غيري، وغير أخي الحسينعليه السلام، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمدﷺ فأنقذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم بعد الذلة، وكثّركم بعد القلة، وإن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرتُ لصلاح الأمة، وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالموا من سالمت، وتحاربو من حاربت، فرأيتُ أن أُسالم معاوية، وأضع الحرب بيني، وبينه، وقد بايعته، ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا صلحكم، وبقاءكم، وإن أدري لعله فتنة لكم، ومتاعٌ إلى حين) [1].

فالتوجيه المعرفي الذي توخاه الإمامعليه السلام مقارناً بين ماهيتين: ماهية العاقل المتفكر من جهة التقوى، وماهية الأحمق المتهور من جهة الفجور، هو دعوة لقراءة السيرة التاريخية للطرفين، وتأويل حقيقة الصلح من خلالها، فالتقي ينظر بعين الله، والأحمق تغشاه الدنيا فيرى بعين الشبهة، فمن جده محمدﷺ هادي الأمة من الضلالة، غير من أبيه فينيق الكفر أبي سفيان، والذي عادى رسول اللهﷺ عداءً شديداً ثم صالحهمﷺ بما ينفع الدين، وينجي المؤمنين، فصلح الإمام الحسن الذي يحاكي مصالحة جدهﷺ أنفع للأمة في قطع دابر

(١) الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة. ابن الصباغ. علي بن محمد بن أحمد المالكي (ت ٨٥٥هـ) دار الأضواء. بيروت.ط٢ ١٩٨٨م.

الفتنة التي يريد بنو أمية أن تركس فيها الأمة، والتي وصفها الإمام علي عليه السلام (شوهاء مغشية، وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى، ولا علم يُرى)[١].

وهناك مسوغ عقلي صرّح به الإمام عليه السلام يشفُّ عن قراءةٍ سايكلوجية لبواطن بعض النفوس الضالة لوجوه القوم، فقال عليه السلام: (والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فو الله لأن أُسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمن عليَّ فتكون منّه على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمنُّ بها وعقبه على الحي منا والميت)[٢]، فالحسن عليه السلام نظر إلى أن موجهات النصر للأمة المضلَّلة تكمن في كشف الحجب، والتمويه الذي انطلى عليها، فالخطر المحدق بها من الداخل لا يقل عن الخطر المحدق بها من الخارج، فربما تغشى الصلح الذي أراده معاوية بفتنةٍ استعارية لتوحيد الكلمة فسمي عام الجماعة، أو المباركة الإلهية التي أوصلته إلى الملك فكان ظل الله في الأرض، لذا كان إنارة وعي الأمة يقتضي تعرية هذه الاستعارات من سرابها الخادع من جهة، وتأنيبها على خذلانهم له عليه السلام من جهةٍ أخرى، فما أن خطب بالناس، قام بذكر فضل محمد وآل محمدٍ (صلوات الله عليهم) على الأمة، وخاصةً فضل أمير المؤمنين في تثبيت ركائز الإسلام، ثم أقسم جازماً ومحذراً وموضحاً النتائج السابية لخذلانهم: (وأيم الله لا ترى أمة محمد صلى الله عليه وآله

---

(١) شرح نهج البلاغة. محمد عبده. الخطبة ٨٩.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج٢/ ١٠.

خفضاً ما كانت سادتهم، وقادتهم في بني أمية، ولقد وجه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم، فعند الله احتسب ما مضى، وما ينتظر من سوء دعتكم، وحيف حكمكم)[١].

وفي خطبة أخرى، وهو يكشف حقيقة الصلح، ينفذ ببلاغة التعرية، والتأنيب إلى العمق، متخذاً من المثال القرآني، وكلام الرسول صلى الله عليه وآله دليلاً داعماً لحجته، وموجهاً لأمته التي تركته أعزلاً بلا أعوان فقادته مُرغماً إلى الصلح، فبعد الحمد قال عليه السلام: (أيها الناس إن معاوية زعم أني رأيته للخلافة أهلاً، ولم أرَ نفسي لها أهلاً، كذب معاوية أنا أولى بالناس في كتاب الله، وعلى لسان نبي الله، فأُقسم بالله لو أن الناس بايعوني، وأطاعوني، ونصروني لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولت أمة رجلاً قط، وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعون إلى ملة عبدة العجل، وقد ترك بنو اسرائيل هارون واعتكفوا على العجل، هم يعلمون أن هارون خليفة موسى، وقد تركت الأمة علياً عليه السلام وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي: أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى غير النبوة فلا نبي بعدي.

وقد هرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى فر إلى الغار، ولو وجد عليهم أعواناً ما هرب منهم، ولو وجدت أنا أعواناً ما بايعتك يا

---

(١) شرح النهج ـ ابن أبي الحديد: ٤/ ١٠.

معاوية، وقد جعل الله هارون في سعةٍ حين استضعفوه، وكادوا يقتلونه، ولم يجد عليهم أعواناً)[١].

فإبطال مزاعم معاوية، وتكذيبه، وفضح اجترائه على حكم الله، وظلم من والوه، وأعانوه لينتزي ظلماً على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم بهذا قطعوا بركات الأرض، والسماء بخذلان ولي الله، فالأمم التي تعيش الآن حرباً همجية، وتتكالب للاستيلاء على مصادر القوة الكائنة في الظاهر كالمياه، ومصادر الطاقة، والسيطرة، وتسعى إلى تضخيم ترسانتها العسكرية لقهر الشعوب الضعيفة متناسية في الوقت نفسه مظلومية تلك الشعوب، وطامرةً قوى النماء الربانية الحقيقية لوعي شعوبها، فهي قد تعلو في الظاهر بالمبتكرات العلمية، وشواخص البناء العملاقة، وقوة القرار السياسي، وأدلجة الوعي لكنها منطفئة من جهة الفطرة، وميراث العلوم الدينية، والروحانية، والأمة الإسلامية لو انصاعت لولي أمرها الحاكم بأمر الله تعالى، والمؤيد منه لما احتاجت إلى أحد، ولانقادت إليها الأمم، وتعايشت معها سلمياً بحكم البرهان القرآني، والتصور المنطقي فعلة انقيادنا الحالي للغرب لأنها تمتلك القوة، وبعض القدرات الصناعية، والعلمية التي بها نستثمر الخيرات المخبوءة في باطن الأرض، بينما الطاقات الإبداعية في عقلية الأُمة ظلت معطلة، لأنها هجرت مصادر علمها، وقوتها، ومشكاتها الكائنة في كتاب الله، وحامليه وهم

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٢/ ٨.

آل محمدﷺ، وأرخت أزمتها لطواغيت الجهل، والعبودية أمثال معاوية، وبني العاص فصاروا على ملة عبدة العجل، معطلة بذلك فاعلية الوعي عن تمثل المعرفة التي تجعل من انقياد الأمة العقلي، والشعوري لأئمتها واجبها التكليفي، كما عطلت فاعلية الأرض على اظهار مكنوناتها، وخيراتها.

وقد تحقق ما وعد به الإمامعليه السلام، فما إن تم الصلح، حتى نقض معاوية بنوده، وداس عهوده، فقال مجاهراً بنزعته الدنيوية التسلطية حينما خاطب أهل الكوفة: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتزكوا، ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله، وأنتم لها كارهون، ألا وأني كنتُ منيتُ الحسن، وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيءٍ منها)[1].

إن المعايير التي ينطلق منها معاوية في توثيق منهجه السلطوي لا تستند إلى منظومة الفقه الإسلامي من حيث التصور الذهني، والمنهاج العملي، بل هو خروج على المنظومة في آفاقها المرجعية، والفكرية، والسياسية لاستحداث مرجعية تضليلية ينفذ منها إلى تعطيل قوة الشريعة، وتعظيم قوة السلطة بعيداً عن اتصالها بالقوة الموجه لها، وهي الشريعة في مرجعياتها المتعددة، بل في قدرتها على إثبات وجودها كقوة قاهرة مضلِّلة، لا قوة منتجة، قاهرة من جهة خصومها، ومضللة من جهة أتباعها، وهذا يقتضي التورية الدلالية في تمويه الأمة، وصرفها عما يقّربها من تلك المرجعيات، وخلق مرجعيات بديلة، فأول

(١) حياة الأئمة دراسة تحليلية. عادل الأديب: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت ١٠.

بند نقضه معاوية أن ترك ورائه العمل بكتاب الله، وهو يحذر من نقض العهود بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[١]، والعمل بسنة رسول اللهﷺ، والخلفاء الصالحين، فراح ينسج لنفسه سنةً يخلدُ إليها المدلسون، والمنافقون، وتغلظ فيها عروق الضغينة، والنفاق، وتزدلف مداخلها المعرفية بالشبهات، وشراء الضمائر، والعقول، والانحراف بركائز العقيدة، ونفي أتباعها، وترسيخ عادة السباب واللعن لأعدال الكتاب حتى تعلق في وعي الصغار فيهرمون عليها، ونمذجة الصورة الرسالية له، وكأنه حامل نور الخلافة، والموعود بالملك، فبعد عودته من الصلح إلى الشام خطب فيهم، فقال: (أيُّها الناس إن رسول اللهﷺ قال لي: إنكَ ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة، فإن فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب)[٢]، فأخذ الناس في لعنه، وسبِّه وتضخم فعل السبِّ لعلي بن أبي طالبعليه السلام على المنابر، فصار سنةً أمويةً يقام على رافضها الحد جلداً، وقتلاً، وعزلاً، فعزل سعيد بن العاص وهو أحد ولاته، لأنه امتنع عن مساندة فعل السب، وجعل مكانه من لا يرعوي في إظهار عدائه لآل محمدﷺ مروان بن الحكم، الذي كان يرى (أن الأمر لا يستقيم لنا إلا بذلك أي بسب علي)[٣]، وذكر الحافظ

---

(١) الإسراء / ٣٤.

(٢) نهج البلاغة ـ شرح ابن أبي الحديد: ج٣/ ٣٦١.

(٣) الصواعق المحرقة ـ ابن حجر الهيتمي. أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي (٩٧٤هـ) ـ تح: عبد الرحمان التركي وكامل محمد الخراط ـ مؤسسة الرسالة.بيروت.ط١ ١٩٩٧م: ٣٣.

السيوطي هذا الإيغال في جاهلية السبِّ إلى أنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن فيها علي بن أبي طالب عليه السلام[١]، وناشراً ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تكريم عليٍّ عليه السلام: (من سبَّ عليّاً فقد سبني، ومن سبّني فقد سبَّ الله)، وإن المسلم ليس بسباب، ولا لعان، بل جرأةً على الله، وحقداً على محمدٍ وآله (صلوات الله عليهم)، ويعلل الإمام الحسن عليه السلام هذا الحقد (أيُّها الناس إن ربَّ عليّ كان أعلم بعليٍّ حين قبضه إليه، ولقد اختصه بفضلٍ لم تعهدوا بمثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهيهات هيهات، طال ما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم، وهو صاحبكم، وعدوكم في بدرٍ وأخواتها، جرّعكم رنقاً، وسقاكم علقاً، وأذل رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملومين على بغضه)[٢].

ومُنِع خراج دارابجرد من الوصول إلى يد الإمام عليه السلام لتوزيعها على المحتاجين، والمتعففين بتحريض مفتعل لأهلها من قبل معاوية في تفعيل هذا المنع، وقام بعد ذلك بمطاردة شيعة الإمام علي عليه السلام، في كل مكان، ومارس أبشع سياسات التنكيل بهم، وخاصةً مع أهل الكوفة، فسلّط عليهم أعتى العتاة، وأظلم الولاة، كالمغيرة بن شعبة، وزياد ابن سمية، وكان المرسوم الأموي الذي فرض سياسة الاستبداد على الولاة يقضي بمن قامت عليه البينة

(١) النصائح الكافية لمن يتولى معاوية ـ العلوي. محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر. مؤسسة الفجر. بيروت ١٩٩١م: ٧٩.

(٢) نهج البلاغة ـ شرح ابن أبي الحديد: ج٤/ ١٠.

بحبِّ عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام بشطبه من الديوان، ومنعه العطاء، بل تهديم داره، وتصفيته مادياً، وجسدياً، وإلى هذا يشير الإمام الباقر عليه السلام فقل: (وقتلت شيعتنا بكل بلدةٍ، وقُطِعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبنا، والانقطاع إلينا سُجِن، أو نُهِبَ ماله، أو هُدِمت داره)[1]، فقتل أصحاب العقيدة، ومنارات الفكر، أمثال حجر بن عدي الكندي ذلك الصحابي الجليل مع ثلة من أصحابه، وكان صك براءتهم التبرئ من حب علي عليه السلام فأبوا ضاربين مثلاً في المروءة، والولاء قل نظيره، وذعرت الأمة لقتل حجر، ولم تذعر لتولي أمرها ربيب الطلقاء، ولكن معاوية لم يرَ في قتله إثماً، بل عده ممن فارق الجماعة، وخلع الطاعة، وسجّل التاريخ صفحات دامية لمثل هذا الفعل الإجرامي، أما المخلصون لأمر العقيدة، فسجلوا صفحات خالدة في الإصرار على مقارعة كسروية معاوية، ونلخص موقفهم بمحمد بن أبي حذيفة الذي وقف طوداً شامخاً في مجلس معاوية، وعرى معاوية بلسان الموقنين بإمامة الحقِّ، فقال، وهو مقيد، وقد أراده أن يتبرئ من حب علي عليه السلام فقال: (وإني لأُشهد إنك منذ عرفتك في الجاهلية، والإسلام لعلى خلقٍ واحد ما زاد الإسلام فيك لا قليلاً، ولا كثيراً، وإن علامة ذلك لبينة فيك تلومني على حبِّي علياً، خرج مع علي كل صوامٍ قوامٍ مهاجري، وأنصاري، وخرج معك المنافقين، وأبناء الطلقاء، والعتقاء خدعتهم عن دينهم، وخدعوك عن

---

(١) نهج البلاغة ـ شرح ابن أبي الحديد: ج٣/ ٥.

دنياك)[١]، فتركه يتميز غيضاً، وأرجعه إلى السجن حتى مات.

وأخذ الإمام الحسن عليه السلام يعتمد الحجة التاريخية في قدح وعي الأمة بالعودة إلى بدايات الدعوة الإسلامية، حين كان الرمح الأموي يلوّح برايات وثنيته، ويجأر بلسان كفره، نافخاً أوداج فرسانه بالغيظ من دعوة النبيِّ محمد صلى الله عليه وآله، وأتباعه، وهو يرمي في لجج المكاره، حين تعيا القلوب، وتسدف الخطوب فارسه الأوحد، والبطل المُسدَّد أبا الحسن عليه السلام، فيلوي بفقاره رمحها معفراً، ويخرس ألسنتها رهبةً، ويدمي أوداج فرسانها، ويعود إلى سيده المصطفى صلى الله عليه وآله مثخناً بالجراح، باسماً كالصباح، تاركاً خلفه سادات قريش معفرةً هاماتهم، وبقاياهم يجرون أذيال الخيبة، ربما نظر معاوية حينذاك، وهمس مع نفسه: متى أثأر منكَ يا أبا الحسن عليه السلام؟.

وها هي الأيام تعود وينتزي معاوية على منبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله، فينبغ حقده القديم على أمير المؤمنين علي عليه السلام أشدَّ ما يكون، ساعياً إلى طمر مناقبه السنية بهجمة شرسة في تلفيق الأحاديث، وتوليفها لتشويه سيرة آل محمد صلى الله عليه وآله، والتمويه على بصيرة الأمة، وجرها إلى هاوية العمى، والإعلاء من شأن بني أمية، مضمراً بذلك عداءه للنبيِّ صلى الله عليه وآله، فلما بويع معاوية بالملك خطب بالناس فذكر عليّاً، ونال منه، والحسن عليه السلام جالس فما كان من الحسن عليه السلام إلّا قام، ليجدع أنوف بني أمية، وينتصر عليهم ببلاغة الحق مقارناً بين أصلين أحدهما

---

(١) رجال الكشي ـ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٦٤٠هـ).تح: محمد تقي فاضل الميبدي والسيد أبو الفضل الموسويان. وزارة الثقافة والإرشاد. طهران ط١ ١٣٨٢هـ: ٤٧.

يشخص بأنوار عظمته، وعظمة آبائه، وأمهاته، وآخر لا تسعفه محامد نفسه، ولا آبائه، ولا أمهاته أن يفخر بهم، فقال: (أيُّها الذاكر عليّاً، أنا الحسن، وأبي عليٌّ، وأنتَ معاوية، وأبوكَ صخر، وأمي فاطمة، وأُمّكَ هند، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدك حرب، وجدتي خديجة، وجدتكَ قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً، وشرنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً، ونفاقاً، فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين آمين)[1].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٤/ ٤٩.

# الفصل الثالث

# بلاغة التوثيق والحجاج

من يتوخى بلاغات السيرة الحسنية في امتداداتها المتشعبة يجد للجدل بلاغةً تتسق في شكلها ومحتواها مع الوعي الحجاجي لأئمة أهل البيت عليهم السلام وتتكشف في أبعادها البيانية، والبرهانية، والعرفانية عن نسقٍ خاصٍ من التفرّد المعرفي، والتوثيق التاريخي من الصعب مواجهته، أو الإتيان بمثله، أو الصمود أمامه مستمداً فاعليته الاقناعية من فيوضات العلم اللدني الراكز فيه، والمقدرة البيانية على استحضار الحجج المنطقية الدالة، والشواهد المعبّرة عن حقيقة الشيء، وسبكها في مدارٍ تعبيري، يجعل من البلاغة التي تنهض بها قريحة الأئمة عليهم السلام ليست وليدة نزعةٍ انفعالية أ أو ديباجة سردية تصرف الأذهان إلى الوشائج التي تبعث الاتساق في نسيج الألفاظ، والتراكيب، وآليات إنتاج الدلالة بقدر ما تحتفي بالدلالة التي تسمو بأنوار الحقيقة، فتضيئها، وتستضيء بها، فهي بلاغة قد يشاطرها الآدميون في شيءٍ من النسج الخارجي، ولكنها تنفرد بمضمونها المعرفي المتجدد في صدوره عن علمٍ لدني يجري مجرى الدم في عروقهم، وتشفُّ عنه عقولهم، ويفيض على ألسنتهم دليلاً ناصعاً، يتحرى تعرية الحقيقة ـ أيّاً كانت ـ من شوائب التضليل، وشبهات التمويه، وتكاد مقولة العتّابي في تعريف البلاغة (٢٠٨هـ) أن تستلهم هذه

التعرية في شطرها الأول، وهي (إظهار ما غمض من الحقِّ)[١]، وتنفر من شطرها اللاحق الذي وَلِع به المدلسون، وحاشية السلطة الحاكمة، ومحرفو الكلم عن مواضعه، وهو (تصوير الباطل في صورة الحق)[٢]، وهذا ما حذّر منه الإمام الحسن عليه السلام، وعدَّ من الأفك (أن ينطق الرجل بالخنا، ويصور الباطل بصورة الحق)[٣]، فصار لزاماً أن ينهض الحجاج في منطق الصالحين على إثبات الحقائق، ومناصرة الحق وتخليصه من براثن الشبهات، وفي لسان المارقين على تدليسها، وتعطيلها.

لذا كانت سمة الفصاحة بوصفها آلة البيان، من دلائل الإمامة المحضة، التي من دونها لا ينهض الوعي الحجاجي بمصاديقه المعرفية، ويكون ملكة ربانية اختصهم بها الله تعالى، ثُمَّ انصقلت، وتجوهرت، وتحررت بما جاورها من الدلائل الأخرى، التي صرّح بها الإمام زين العابدين عليه السلام في مجلس الطاغية الأموي يزيد، فقال: (أُعطينا ستاً، وفضلنا بسبع، أُعطينا العلم والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين...)[٤]، أي الفصاحة التي تعلو على مموهات العجمة، والعيِّ، والحصر، والتصنّع وما

(١) البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. دار إحياء التراث العربي. بيروت:ج١/ ١٨٩ .وفي ديوان المعاني. أبو هلال العسكري. موقع الوراق.

(٢) م.ن.

(٣) المحاسن والأضداد: الجاحظ. دار ومكتبة الهلال. بيروت:٧٠

(٤) بحار الأنوار. محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت. لبنان ١٤١٤هـ: ٤٥/ ١٣٧.

شاكلها من عيوب اللسان، والبيان، والتي تشرّبها بأنس القرب من نبيِّ الرحمةﷺ، الذي كان كلامه القرآن، ومنطقه البيان، فتغذى من نمير علمه، وجزيل فصاحته، واتساع حجته، وبما انطبع في ذهنه، وتجذّر في وجدانه وهو يمتح من صفو بيان أبيه علي بن أبي طالبعليه السلام، وقد عايشه خطيباً مُفوّهاً، وواعظاً مبصراً، ومفسراً ينفذ إلى غور المعنى، ومحاججاً فذّاً، يقدُّ شوكة الشرك، ويخرسُ ألسنة النفاق، يجادلهم بكتاب الله، وينطق بسنة رسول اللهﷺ، حتى تجلت ثمار ذلك الخليط المتجانس من المعارف، والعلوم، والفيوضات الربانية في كينونة الإمام المجتبىعليه السلام خَلقاً، وخُلقاً، وصار قبساً من تلك المشكاة، فتداعى العارفون ينهلون من فيض لسانه، ويستضيئون بنور جنانه، وتهاوى مجادلوه مذهولين أمام صولات بيانه، وسمو برهانه.

وكانت هذه البلاغة من مصاديق إمامته ترافقه في سكناته وحركاته، ومجرى أيامه، وتستضيء بها سيرته، لا ينقطع عنها، ولا تنقطع عنه بل تجد تكاملها فيه، كما يجدُ الطالب فيها غنيمته، والشارب ما يروي غلته، والمحبُّ ما يضيء بصيرته، ويغذي سريرته، وقد تفرض الظروف على الإمام الحسنعليه السلام أن يتخذ من المناظرة، أو المفاخرة منهجاً حوارياً، أو من الخطابة سبيلاً لإقامة الحجة، وإحياء الحق، ودحض الباطل، حتى ينعكس ذلك في إضاءة فحوى الحقيقة التاريخية كما هي، بما يجعلها تشفُّ عن صراعٍ متأزمٍ بين قوتين، الأولى غاشمة تنكفئ ببصرها عند حدود مصالحها الدنيوية الضيقة، ومعارفها المحدودة، تحفزها نعرة النفاق،

والطباع الخبيثة المتأصلة فيها، من حسدٍ، وحقدٍ، وطمعٍ، وحرصٍ على الملك تمثلها السلطة الأموية وأعوانها أنذاك، ومن شاكلها ظاهراً وباطناً، والثانية تنفتح ببصيرتها على ماهية الوجود، ومظهر العدالة الكونية، والنبل البشري تستشف من تجلياته المتباينة جوهر الانسجام الكامن في حركة الأضداد، وهي تتناوب، أو تتداخل وكأنها نسيجٌ واحدٌ كما هي في أصل فطرتها.

وجريان هذه الفطرة في الإنسان المسلم على نسقها الإلهي مقرون بالمعرفة، المعرفة التي تشدها، وتنفتح بها على جوهر الحقيقة، بحيث تتباين نسب الانقياد بمقدار هذه المعرفة في تجذير الولاء للحقِّ، والإيمان به، والذود عنه، والاقتباس منه، والولاء لأئمة الحق من آل محمد (صلوات الله عليهم)، ومودتهم، فهم تبيان شواهده، ومعين روافده، وزمام شوارده ودعاته، وقادته، فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن الحسن بن علي عليه السلام، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (الزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلّا بمعرفة حقنا)[1]، وهذا تأويل لقوله عز وجل في محكم كتابه: (﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾)[2]، وفسّرها الإمام الحسن عليه السلام

(١) إحياء الميت بفضائل أهل البيت ـ جلال الدين السيوطي:١٧ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. أبو الحسن نور الدين الهيثمي: ٩/ ١٧٢.

(٢) الشورى: ٢٣. وروى الهيثمي عن ابن عباس: قال: (لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم، قال: عليٌّ، وفاطمة، وابناهما) مجمع الزوائد:٧ـ١٠٣.

على أن: (اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت)[١]، فالمودة معراج الحبِّ إذا تكشّف عن فائض المعرفة، فكان لزومها مدعاة لرضى الله تعالى، وانعتاق للذات من أسر الدنيا، والعُجب بمفاتنها، والحرص عليها.

ولأن الحسن بن علي عليه السلام إمامٌ مفترض الطاعة، وهو كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله: (حجة الله على الأمة، أمره أمري، وقوله قولي، من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فليس مني)[٢]، أوجب على الأمة أن ترخي لهُ أزمة قلوبها، وتستضيء بنوره، وأن تتبعه ليوردها مناهل النجاة، ولكن ما جرى في سياق كثير من المناظرات، والمناقضات التي وثقتها لنا كتب التاريخ نتلمس ماهية الخطاب المضاد لهذا الوجوب الولائي وخاصة الخطاب الأموي بما ينطوي عليه من موجهات شعورية، وعقائدية، وجاهلية تنفذُ بأفعالها الكلامية إلى تفنيد مصاديق هذه الولاية الإلهية، وتعريتها تصريحاً، وتلميحاً من أدلتها الشرعية، ومن سياقاتها التاريخية، حتى تكون هذه الموجهات الأرضية الصالحة للوضع، والتزييف والقوة المحركة لطمر الحقائق، كما نتلمس أن الإرادة المخططة لهذه المناظرات، والمستفيد منها هو معاوية رأس السلطة المستبدة، والناب الضروس[٣] الذي يتخفى تحت برقع الدهاء، وحيادية الملك

---

(١) المستدرك ـ الحاكم النيسابوري: ٣ ـ ١٧٢.

(٢) المناقب ـ ابن شهراشوب: ٢٣/ ٣.

(٣) قال الإمام علي عليه السلام: ( لتجدنَّ بني أمية لكم أرباب سوءٍ بعدي كالناب الضروس) نهج البلاغة.تح.السيد هاشم الميالي. المجمع العالمي لأهل البيت.ط٥ ٢٠١٠.

المنصف في أكثر الأحيان، لذا استعار ألسنة الغواة من حوله، وأجمر فيهم نعرة شيطانه، وشرارة أضغانه، وأغواهم بعاجل الدنيا، وهيبة القرب منه، وأسكرهم بأمانيه، فأخذهم التيه، والخيلاء فاستشعروا أن لهم دولة، وأن بهم صولة لمقارعة سيد بني هاشم الإمام الحسن عليه السلام خصم معاوية اللدود، فهم يستبطنون ما يمور بداخل معاوية من غلٍّ لآل النبي صلى الله عليه وآله، لذا كان العزف على وتر رضاه يعني محاكاة ذلك الغلِّ، واستنساخه في شخوصٍ من سنخه، تتقمص أدوارها الممسوخة بشيءٍ من الاتقانٍ، وتهيئة الحبكة المسرحية التي تتخذ من قول عمرو بن العاص لمعاوية محفزاً للبدء: (ألّا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره، فقد أحيا سنة أبيه، وخففت النعال خلفه، أُمر فأُطيع، وقال فصدِّق، وهذان يرفعان به إلى ما هو أعظم منهما، فلو بعثت إليه فقصرنا به، وبأبيه، وسببناه، وسببنا أباه، وصغرنا بقدره، وقدر أبيه)[1]، فكأن الداء الذي ينخرهم من الداخل، ويغيضهم، ويستفزهم، هذا الإحياء الحقيقي لسنةٍ ربانيةٍ أرادوا لها أن تموت، وأن يخبو سنا منهاجها، ودليل معراجها، وينمحي أثرها، وأن يعبثوا بسنن الله كما يشاؤون، فكان الإمام الحسن عليه السلام هو المحيي لها، والمرآة التي تعكس ديمومة ذلك السنا، والنهج الذي ينهض به ذلك الدليل في آثاره التي تنطق به، وكان معاوية يعي خطورة المواجهة مع لسان سله الله تعالى لقمع الباطل، وإحياء الحق، فانبرى محذراً لهم رغم الرغبة الخفية

(١) الاحتجاج للطبرسي: ج٣/ ٣٩٢.

التي تنطوي عليها نفسه: (إنّي أخاف أن يقلدكم قلائد يبقى عليكم عارها حتى تدخلكم قبوركم، والله ما رأيته قطّ إلا كرهت جنابه، وهبت عتابه، وإني ان بعثت إليه لأنصفته منكم)، حينها أعنق ابن العاص بخيلائه فقال: (أتخاف أن يتسامى باطله على حقنا، ومرضه على صحّتنا)، وتعجب عتبة لهذه الرغبة الجامحة للمصاولة على ما فيها من التدليس، والتغرير، فقال: (هذا رأي لا أعرفه، والله ما تستطيعون أن تلقوه بأكثر ولا أعظم مما في أنفسكم عليه، ولا يلقاكم إلا بأعظم مما في نفسه عليكم، وإنه من أهل بيتٍ خصمٍ وجدلٍ)، وحين دعاه معاوية تهيأ الإمامعليه السلام متعوذاً بالله صاعداً على مدرجة التوكل بدعاءٍ سماهعليه السلام: (كلام الفرج) إذ قال: (اللهم إني أدرأُ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، وأستعين بك عليهم، فاكفنيهم بما شئت وأنّى شئت من حولك وقوتك يا أرحم الراحمين)، فما أن دخل الإمامعليه السلام مؤتزراً بيانه، تنجلي محاسنه عن سيماء الأنبياء، ارتعدت فرائصهم فهب له معاوية مصافحاً، وحيّاه مسالماً، فقال الإمامعليه السلام: إن الذي حييت به سلامة، والمصافحة أمن.

فقال معاوية: أجل.. إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ليقرورك: أنَّ عثمان قُتِلَ مظلوماً، وأنَّ أباك قتله فاسمع منهم ثم أجبهم بمثل ما يكلمونك، فلا يمنعك مكاني من جوابهم.

حينئذ نظر الإمامعليه السلام إليه بعين السابر لغور مراده، ومكنون فؤاده، فتطاير لبه، فهو يعي نظرة الإمامعليه السلام الذي سرعان ما سيعريه أمامهم، ويستصغره،

ويربقه بقيد ذلته، ويتركه حائراً، إذ خاطبه عليه السلام قائلاً: (فسبحان الله، البيت بيتك، والإذن فيه إليك! والله لئن أجبتهم إلى ما أرادوا إنّي لأستحيي لكَ من الفحش، وإن كانوا غلبوك على ما تريد، أنّي لاستحيي لكَ من الضعف، فبأيهما تقر؟، ومن أيهما تعتذر؟، وأما إنّي لو علمت بمكانهم، واجتماعهم لجئت بعدتهم من بني هاشم، مع أني مع وحدتي هم أوحش مني من جمعهم، فإن الله صلى الله عليه وآله لوليي اليوم، وفيما بعد اليوم، فمرهم فليقولوا فأسمع ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم) فالإمام عليه السلام يعي ضعفهم، وضآلتهم إذ نبذوا الحق وراء ظهورهم، ونطقوا بلسان غيِّهم.

فبعد أن عرى صارية الدهاء التي يستندون عليها تدافعت تلك الألسنة المزيفة تلوك غيضها، وتنفث أباطيلها، بحيث يمكن من خلال هذه المحاورات استقراء القوى المحرِّكة، والمسّخرة لكتابة التاريخ الإسلامي، وأثارها على الوعي العام حين تتمثله أقطاب السلطة الغاشمة لطمس السنن، والنواميس السماوية التي سعى الأنبياء، والأئمة، وأتباعهم الصالحين إلى تفعيلها، وتمثيلها في إطار المغزى الرسالي لوجودهم المقدس، فهم لسان الحقيقة، ومنطق الفضيلة، والحجة البالغة، فكان أول تلك الألسنة لسان عمرو بن عثمان بن عفان إذ قال: (ما سمعت كاليوم، أن بقي من بني عبد المطلب على وجه الأرض من أحد بعد قتل الخليفة عثمان بن عفان، وكان ابن أختهم والفاضل في الإسلام منزلة، والخاص برسول الله صلى الله عليه وآله أثرةً فبئس كرامة

الله حتى سفكوا دمه اعتداءً وطلباً للفتنة، وحسداً ونفاسةً، وطلب ما ليسوا بأهل لذلك مع سوابقه ومنزلته من الله، ومن رسوله ومن الإسلام، فياذلاه أن يكون (حسن) وسائر بني عبد المطلب قتلة عثمان أحياء يمشون على مناكب الأرض، وعثمان مضرج بدمه مع أن لنا فيكم تسعة عشر دماً بقتلى بني أمية ببدر)، تلاه عمرو بن العاص، الذي بدأ بالحمد، ثم تهافتت أقاويله لإثارة الفتنة، وتكثيف خيوط الإدانات، وافتعالها، وتشويه السرد التاريخي لمسار الأحداث، وتزييف الحقائق محاولةً بائسة منه لترويع الإمام عليه السلام المنفرد في قبضة السلطة الحاكمة، فقال: (أي ابن أبي تراب بعثنا إليك لنقررك أن أباك سمَّ أبا بكر الصديق، واشترك في قتل عمر الفاروق، وقتل عثمان ذي النورين مظلوماً، وادعى ما ليس له حق، ووقع فيه، وذكر الفتنة، وعيره بشأنها، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك فتركبون فيه ما لا يحل لكم، ثم أنت يا حسن تحدث نفسك بأنك كائن أمير المؤمنين، وليس عندك عقل ذلك، ولا رأيه، وكيف وقد سلبته، وتركت أحمق في قريش، وذلك لسوء عمل أبيك، وأنما دعوناك لنسبك وأباك، ثم أنك لا تستطيع أن تعيب علينا، ولا أن تكذبنا به، فإن كنتَ ترى أنا كذبناك في شيء، وتقوّلنا عليك بالباطل، وادعينا عليك خلاف الحق فتكلم، وإلا فاعلم أنك وأباك من شرِّ خلق الله، فإما أبوك فقد كفانا الله قتله، وتفرّد به، وأما أنتَ فإنك في أيدينا نتخيّر فيك، والله أن لو قتلناك ما كان في قتلك إثم عند الله، ولا عيب عند الناس).

وتكلم بعده عتبة بن أبي سفيان: (يا حسن، إن أباك كان شرّ قريش لقريش أقطعه لأرحامها، وأسفكه لدمائها، وإنك لمن قتلة عثمان، وإن في الحق أن نقتلك به، وإن عليك القود في كتاب الله عزّ وجلّ، وإنا قاتلوك به، فأما أبوك فقد تفرّد الله بقتله فكفاناه وأما رجاؤك للخلافة فلست منها لا في قدحة زندك، ولا في رجحة ميزانك).

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط بنحوٍ من كلام أصحابه، وقال: (معاشر بني هاشم، كنتم أول من دب بعيب عثمان، وجمع الناس عليه حتى قتلتموه حرصاً على الملك، وقطيعة للرحم، واستهلاك الأمة، وسفك دمائها، وطلباً للدنيا الخسيسة وحباً لها، وكان عثمان خالكم فنعم الخال كان لكم، وكان صهركم فكان نعم الصهر لكم، قد كنتم أول من حسده، وطعن عليه، ثم وليتم قتله، فكيف رأيتم صنع الله بكم).

ثم تكلم المغيرة بن شعبة، وكان كلامه، وقوله كله وقوعاً في علي عليه السلام ثم قال: (يا حسن إن عثمان قُتِل مظلوماً، فلم يكن لأبيك في ذلك عذر بريءٍ، ولا اعتذار مذنب، غير أنّا يا حسن قد ظننا لأبيك في ضمّة قتلته، وايوائه لهم وذبه عنهم، أنه بقتله راضٍ، وكان والله طويل السيف واللسان: يقتل الحيَّ، ويعيب الميت، وبنو أمية خيرُ لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، ومعاوية خير لك يا حسن منك لمعاوية. وقد كان أبوك ناصب رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، وأجلب عليه قبل موته، وأراد قتله، فعلم ذلك من أمره رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم

كره أن يبايع أبا بكر حتى أتي به قوداً، ثم دسّ إليه فسقاه سما فقتله، ثم نازع عمر حتى هم أن يضرب رقبته فعمل في قتله، ثم طعن على عثمان حتى قتله، كل هؤلاء قد شرك في دمهم، فأيّ منزلة له من الله يا حسن، وقد جعل الله السلطان لوليّ المقتول في كتابه المنزل، فمعاوية وليّ المقتول بغير حق، فكان من الحق لو قتلناك وأخاك والله ما دمُ عليٍّ بخطرٍ من دم عثمان، وما كان الله ليجمع فيكم يا بني عبد المطلب الملك والنبوة)، ثم سكت.

وبما أن السيرة استقراء معرفي لحقيقة الرجال في مسيرتهم الحياتية، وأثرها في ترجمة أفعالهم إلى مسوغات سلوكية، وأيدلوجية لكشف الحقيقة التاريخية التي تولد منها، والحدث الذي اتصل بها لذا ركزوا في جدالهم على تعرية الأغشية الاجتماعية المزيفة بما فيها من طبقية، ومن ظاهرٍ ينهض على دليل، وموقف هو الشاهد على حقائقهم، ومن باطن خُفي على الناس فكان شاهداً على ظاهرهم.

وكانت الأمة بجميع أطيافها بحاجة إلى إضاءة هذه الحقائق حتى تعرف بمن تقتدي، وبمن تهتدي، وكانت السلطة الأموية تخشى هذه الإضاءة وتسعى إلى إطفاء مشكاتها، وطمر أثارها، وتعويمها، وكان لزاماً على معاوية أن يحتفي بزبانيته، ويغذي عرق العداوة فيهم، ويستقوي بحجاجهم، وينهض بنزعتهم لمغالبة الإمام الحسن عليه السلام رغم ما يدركه من بهتان حجتهم، وانكسارهم أمام تيار بلاغته عليه السلام، وصفو بيانه، ونور برهانه، إذ كانوا في نظر الإمام عليه السلام صنفاً من

البشر جبلوا على الخسة تعلو به غثاثته، وتنبو به جهالته تحركه نوازع أسياده مما اقتضى أن يبتدئ حجاجه في أغلب تلك المناقضات بالرأس اعقبها بالأطراف التي يتكئ عليها ضرباً بالحجة الناصعة حتى تكشّفت عن خبث معادنهم، وحقيقتهم، وكانت ترهبهم صولة بيانه، وضراوة حجته، وهيبة مقامه، فهو إذ يجري على تعرية معاوية وبني أمية من زيف مناقبهم ومواقفهم التي أرادوا بها أن يطفئوا جذوة الرسالة المحمدية التي ترسخت أصولها على يد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام ينهض في الوقت ذاته على إضاءة سيرة أبيه لينكشف الصراع بينهما عن حقيقة التضاد بين منهجين لا يلتقيان في سنخ المبادئ التي قام عليها كل منهج.

ورغم الوسطية المزيفة التي أراد أن يحتكم إليها معاوية بأنّه لا لهذا ولا لذاك إلّا أن الإمام عليه السلام لم تنطلِ عليه حنكته الخاوية، لذا ابتدأ به، فخاطبه يا أزرق[1] كناية عن العداوة الشديدة التي يضمرها معاوية في قلبه وتفضحها

(١) عدو أزرق: أي شديد العداوة، لأن زرقة العيون غالبة على الروم والديلم وكان بينهم وبين العرب عداوة شديدة فسمّي كل عدوٍ بذلك وإن لم يكن أزرق العين، وقد تأتي بمعنى الأعمى لتحول عينه إلى الزرقة وذهاب السواد والبياض، و( أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن سعيد بن جمهان قال: قلت لسفينة: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم. قال: كذب بنو الزرقاء بل هم ملوك من أشد الملوك، وأول الملوك معاوية). تأريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي. تح: عبد الله المنشاوي. مكتبة الإيمان. ط١ ٢٠٠٣)، أو مستمدة من الأزارقة وهم فرقة من الخوارج نُسبوا إلى نافع بن الأزرق الحنفي كفروا عليّاً وأصحابه والقاعدين عن القتال وجوزوا قتل المخالفين وسبي نسائهم.

أفعاله، وأقواله، وجرى رينها في زبانيته، فللكناية فضاء دلالي يتسع في إماطة اللثام عن حقيقة المخاطَب به، فهو كالأعمى الذي اختلطت عليه حقائق الأمور فزل قدمه عن مواضع إدراكها، منقاداً لعرق العداوة المتجذر فيه لفسح المجال لنزعة المناظرة، ورغبة المشاجرة، وظاهر هذه العداوة تكشفها سُنّة اللعن والسب التي أقاموها بنو أمية على منابر ملكهم استظهاراً لفحش الباطن المتصل بهوى النفس، وسوء الرأي المتصل بغشاوة البصيرة، والبغي والعدوان الناتج عنهما حتى استغلظت جذور هذه العداوة متصلاً حديثها بقديمها في رسم أبعاد الصراع، وموجهاته القبلية والعقائدية بما يقتضي تمثل سيرة أبيه عليه السلام التي من خلالها تتجلى المسيرة التاريخية للإسلام من بداياته بما تنطوي عليه من مواقف مشرفة يشهد بها القاصي والداني، لذا خاطب عقولهم، واستنطق آثار الفطرة في داخلهم التي طمرتها الشهوات وحب الدنيا، وملكها الفاني، فقال: (أعيروني فهمكم) ومتخذا من القسم لازمةً حجاجية: (أنشدكم بالله هل تعلمون؟) ينطلق منها في إبانة حقيقة المواقف التي خاضها أبيه عليه السلام في مواجهة أقطاب الشرك واحداً تلو الأخر حتى كانت كلماته تبياناً لحقيقة التأريخ في مجرى أيامه، ومضامين أحداثه، وحقيقة رجاله، وبلاغةً تنتهي إلى فحوى المعنى، وقلب السامع بما يقرر جدلية الحجة التي قامت عليها، ومصداقية القول، وفصل الخطاب بلا توعرٍ، ولا تقعّرٍ، موضحاً أن معاوية وزبانيته نسيج واحد، ومنظومة من القيم الفاسدة التي يحكم العقل

بقبحها، والشرع بحرمتها، فقال: (فاسمعوا مني أيّها الملأ المعاونون عليَّ، ولا تكتموا حقاً علمتموه ولا تصدّقوا بباطلٍ نطقت به، وسأبدأ بك يا معاوية فلا أقول فيكَ إلا دون ما فيك.

أنشدكم بالله! هل تعلمون: أن الرجل الذي شتمتموه صلى القبلتين كلتيهما، وأنتَ تراهما جميعاً ضلالة، تعبد اللات والعزّى؟ وبايع البيعتين كلتيهما: بيعة الرضوان وبيعة الفتح، وأنتَ يا معاوية بالأولى كافر، وبالأخرى ناكث؟.

أنشدكم بالله! هل تعلمون: أن ما أقول حقاً، أنه لقيكم مع رسول الله ببدرٍ، ومعه راية النبي ومعك يا معاوية راية المشركين تعبد اللات والعزى وترى حرب رسول الله والمؤمنين فرضاً واجباً، ولقيكم يوم أحد ومعه راية النبيِّ صلى الله عليه وآله، ومعك يا معاوية راية المشركين، ولقيكم يوم الأحزاب ومعه راية النبي ومعك يا معاوية راية المشركين، كل ذلك يفلج الله حجته، ويحقق دعوته، ويصدق أحدوثته، وينصر رايته، وكل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله يرى عنه راضياً في المواطن كلها؟.

ثم أنشدكم بالله هل تعلمون: أن رسول الله حاصر بني قريظة وبني النضير، ثم بعث عمر بن الخطاب ومعه راية المهاجرين وسعد بن معاذ ومعه راية الأنصار، فأما سعد بن معاذ فجرح وحُمِل جريحاً، وأما عمر فرجع وهو يجبن أصحابه ويجبنه أصحابه، فقال رسول الله (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبه

الله ورسوله كرّار غير فرار، ثم لا يرجع حتى يفتح الله عليه، فتعرّض لها أبو بكر وعمر وغيرهما من المهاجرين والأنصار، وعلي يومئذ أرمد شديد الرمد، فدعاه رسول الله ﷺ فتفل بين عينيه، فبرأ من الرمد، فأعطاه الراية فمضى ولم يثنِ حتى فتح الله عليه بمنّه وطوله وأنت يومئذ بمكة عدو لله ورسوله، فهل يُسوّى بين رجلٍ نصح لله ولرسوله، ورجل عادى الله ورسوله؟

ثم أقسم بالله ما أسلم قلبك بعد، ولكن اللسان خائف فهو يتكلم بما ليس في القلب.

ثم أنشدكم بالله أتعلمون: أن رسول الله استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، ولا سخطه ذلك ولا كرهه، وتكلم فيه المنافقون، فقال: (لا تخلفني يا رسول الله فأني لم أتخلّف عنك في غزوةٍ قط، فقال رسول الله ﷺ: (أنتَ وصيّي وخليفتي في أهلي بمنزلة هارون من موسى) ثم أخذ بيد عليّ عليه السلام، وقال: (أيّها الناس من تولاني فقد تولى الله، ومن تولى عليّاً فقد تولاني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أحب علياً فقد أحبني)؟.

أنشدكم بالله، هل تعلمون: أن رسول الله قال في حجة الوداع: (أيّها الناس إني قد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده كتاب الله فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنّا بما أنزل الله من الكتاب، وأحبوا أهل بيتي وعترتي ووالوا من والاهم، وانصروهم على من عاداهم،

وانهما لم يزالا فيكم حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة).

ثم دعا ـ وهو على المنبر ـ عليّاً فاجتذبه بيده فقال: (اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، اللهم من عادى عليّاً فلا تجعل له في الأرض مقعداً، ولا في السماء مصعداً واجعله في أسفل درك من النار).

أنشدكم بالله أتعلمون: أن رسول الله قال له: (أنتَ الذائد عن حوضي يوم القيامة تذود عنه كما يذود أحدكم الغريبة من وسط أبله)؟.

أنشدكم بالله أتعلمون: أنه دخل على رسول الله في مرضه الذي توفى فيه، فبكى رسول الله، فقال علي: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: (يبكيني أني أعلم: أن لك في قلوب الرجال من أمتي ضغائن لا يبدونها حتى أتولى عنك)؟.

أنشدكم بالله أتعلمون: أن رسول الله حين حضرته الوفاة واجتمع أهل بيته، قال: (اللهم هؤلاء أهلي وعترتي، اللهم والِ من والاهم، وانصرهم على من عاداهم) وقال: (إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من دخل فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق)؟.

أنشدكم بالله: أتعلمون أن أصحاب رسول الله قد سلّموا عليه بالولاية في عهد رسول الله وحياته؟.

أنشدكم بالله: أتعلمون أن عليّاً أول من حرم الشهوات كلّها على نفسه من أصحاب رسول الله، فأنزل الله ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا

طَيِّبَٰتٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وكان عنده علم المنايا، وعلم القضايا، وفصل الخطاب، ورسوخ العلم، ومُنزل القرآن، وكان في رهطٍ لا نعلمهم يتمّون عشرةً، نبّأهم الله أنهم به مؤمنون، وأنتم في رهطٍ قريبٍ من عدة أولئك لعنوا على لسان رسول الله، فأشهد لكم، اشهد عليكم أنكم لُعناء الله على لسان نبيّه كلكم.

وأنشدكم بالله هل تعلمون: أن رسول الله بعث إليك لتكتب لبني خزيمة حين أصابهم خالد بن الوليد، فانصرف إليه الرسول فقال: هو يأكل، فأعاد الرسول إليكَ ثلاث مرات كل ذلك ينصرف الرسول ويقول: هو يأكُل، فقال رسول الله: (اللهُمّ لا تشبع بطنه) فهي والله في نهمتك وأكلك إلى يوم القيامة؟.

أنشدكم بالله هل تعلمون: إنما أقول حقاً إنكَ يا معاوية كنت تسوق بأبيك على جملٍ أحمر، ويقوده أخوك هذا القاعد، وهذا يوم الأحزاب، فلعن رسول الله الراكب والقائد والسائق فكان أبوك الراكب وأنتَ يا أزرق السائق، وأخوك هذا القاعد القائد؟.

ثم أنشدكم بالله هل تعلمون: أن رسول الله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن:

**أولهن**: حين خرج من مكة إلى المدينة، وأبو سفيان جاء من الشام فوقع فيه أبو سفيان فسبّه وأوعده وهمّ أن يبطش به، ثم صرفه الله ﷻ.

**والثاني**: يوم العير حيث طردها أبو سفيان ليحرزها من رسول الله.

---

(١) المائدة: ٨٧.

**والثالث**: يوم أحد، يوم قال رسول الله: (الله مولانا ولا مولى لكم) وقال أبو سفيان: لنا العزى ولا لكم العزى، فلعنه الله وملائكته ورسوله والمؤمنون أجمعون.

**والرابع**: يوم حنين يوم جاء أبو سفيان بجمع قريش وهوازن، وجاء عيينه بغطفان واليهود فردهم الله ﷻ بغيظهم لم ينالوا خيراً، هذا قول الله ﷻ له في سورتين في كلتيهما يسمى أبا سفيان وأصحابه كفارا، وأنت يا معاوية يومئذ مشرك على رأي أبيك بمكة، وعلي يومئذ مع رسول الله وعلى رأيه ودينه.

**والخامس**: قول الله ﷻ ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾[1]، وصددت أنت وأبوك ومشركو قريش رسول الله ﷺ فلعنه الله لعنةً شملته وذريته إلى يوم القيامة.

**والسادس**: يوم جاء أبو سفيان بجمع قريش، وجاء عيينة بن حصن ابن بدر بغطفان، فلعن رسول الله القادة والاتباع والساقة إلى يوم القيامة، فقيل يا رسول الله: أما في الاتباع مؤمن؟ فقال: لا تصيب اللعنة مؤمنا من الاتباع، وأما القادة فليس فيهم مؤمن، ولا مجيب، ولا ناجٍ.

**والسابع**: يوم الثنية يوم شُدَّ على رسول الله اثنا عشر رجلاً سبعة منهم من بني أمية، وخمسة من سائر قريش، فلعن الله تبارك وتعالى ورسوله من حلّ الثنية غير النبي وسائقه وقائده.

---

(١) الفتح:٢٥.

ثم أنشدكم بالله هل تعلمون: أن أبا سفيان دخل على عثمان حين بويع في مسجد رسول الله، فقال: يابن أخي هل علينا من عين؟ فقال: لا، فقال أبو سفيان: تداولوا الخلافة فتيان بني أمية فوالذي نفس أبي سفيان بيده ما من جنةٍ ولا نار.

أنشدكم بالله أتعلمون: أن أبا سفيان أخذ بيد الحسين عليه السلام حين بويع عثمان، وقال: يابن أخي أخرج إلى بقيع الغرقد فخرج حتى إذا توسط القبور اجتره فصاح بأعلى صوته: يا أهل القبور الذي كنتم تقاتلوننا عليه صار بأيدينا وأنتم رميم، فقال الحسين بن علي: قبّح الله شيبتك، وقبّح وجهك ثم نتر يده وتركه، فلولا النعمان بن بشير أخذ بيده ورده إلى المدينة لهلك[1].

ومن لعنتك يا معاوية، أن أباك أبا سفيان كان يهم أن يسلم، فبعثت إليه بشعر معروف مروي في قريش وغيرهم تنهاه عن الإسلام، وتصدّه، أوتنسى قولك لأبيك:

**يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا ... بعد الذين ببدرٍ أصبحوا مزقا**

**خالي وعمي وعم الأم ثالثهم ... وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا**

**لا تركنن إلى أمرٍ تكلّفنا ... والراقصات به في مكة الخرقا**

**فالموت أهون من قول العداة لقد ... حاد ابن حربٍ عن العزّى إذا فرقا**

---

(١) الاحتجاج: ٤٠٩، بحار الأنوار: ج٤٨، ص ٤٤.

ومن سيئ أعمالك: أن عمر بن الخطاب ولّاك الشام، فخنت بهِ، وولّاك عثمان فتربّصت به ريب المنون.

ثم أعظم من ذلك أنّك قاتلت علياً صلوات الله عليه وآله، وقد عرفت سوابقه وفضله، وعلمه على أمرٍ هو أولى به منك، ومن غيرك عند الله وعند الناس، ولا دنية بل أوطات الناس عشوةً، وأرقت دماء خلقٍ من خلق الله بخدعك وكيدك وتمويهك فعل من لا يؤمن بالمعاد، ولا يخشى العقاب، فلما بلغ الكتاب أجله صرتَ إلى شرٍّ مثوى، وعليّ إلى خير منقلب والله لك بالمرصاد.

فهذا لك يا معاوية خاصةً، وما أمسكت عنه من مساويك وعيوبك فقد كرهت به التطويل فهل تستطيع أن ترد علينا شيئاً؟.

واختزال مساويء معاوية كراهة التطويل تقدح في ذهن السامعين بلاغة الإمام عليه السلام في إضاءة هذه المساويء من جهات عدة تتواشج جميعها في رسم المسار الاستدلالي لسيرة بني أمية عامة، ومعاوية خاصة في امتدادتها التوثيقية، وأبعادها الاعتبارية المعادية للعقيدة المحمدية، والمجافية لنظام الفطرة البشرية، والمنحرفة عن قيم الحقِّ، ومنهج الفضيلة والقائمة على نزعة براغماتية مُضللِة تنحدر معها النفس البشرية إلى ما يشينها، ويجعل منها ألعوبة بيد الشيطان.

ومن مقتضيات البلاغة الحجاجية أن تُري خصمك ضآلة قدره، وحمقه،

ووضاعة مكانته الاجتماعية في نفسه، وفي مجتمعه، حتى لا يجري بـه العُجـب، ويلقي به مرغماً على أنفـه، وللمثـل الحكـائي قـدرة عـلى تمثـل هـذه الضـآلة، وتجسيدها بأسلوبٍ تهكمي يغني السرد عن الإطالة، والتقصي، واللجاج، لذا استحضره الإمام عليه السلام حينما خاطب عمرو بن عثمان: (وأما أنت يـا عمـرو بـن عثمان فلم تكن حقيقاً لحمقك أن تتبع هذه الأمور، فإنما مثلك مثـل البعوضـة إذ قالت للنخلة: استمسكي فإني أريد أن أنزل عنك، فقالـت لهـا النخلـة: مـا شعرت بوقوعكِ فكيف يشقُّ عليّ نزولك؟ وإني والله ما شعرت أنـك تحسـن أن تعادي لي فيشقّ عليّ ذلك وإني لمجيبك في الذي قلت.

إن سبك عليّاً أبنقصٍ في حسبه؟ أو تباعده من رسول الله، أو بسوء بلاءٍ في الإسلام؟ أو بجورٍ في حكمٍ؟ أو رغبةٍ في الدنيا؟ فإن قلـت واحـدة منهـا فقـد كذبت، وأما قولك أن لكم فينا تسعة عشر دماً بقتلى مشركي قريش بنـي أميـة ببدرٍ، فإن الله ورسوله قتلهم ولعمـري ليقـتلنّ مـن بنـي هاشـم تسـعة عشـر وثلاثة بعد تسعة عشر ثم يقتل من بني أمية تسعة عشر وتسعة عشر في موطنٍ واحدٍ سوى ما قتل من بني أمية لا يحصى عددهم إلا الله.

وكان مـن الـضروري استحضـار حـديث رسـول الله صلى الله عليه وآله في تأويـل رؤيـاه والحقيقة المستقبلية المؤلمة التي ينطوي عليها، وكان لمفردة (الـوزغ)[1] حضـوراً

(١) كما ورد في المعجم: الوَزَغُ: سامُ أبرص، أصابه الوَزَغُ: الارتعاش، والارتعاد، رجلُ وزغُ: جبانُ ضعيف.

دلاليا في تشخيص هذه الحقيقة، وما يلازمها من توكيد معرفي يقوم على تعرية الصلب الذي انحدروا منه من مظاهر النجابة، والمروءة، والطهارة، وتأويل الوزغ لدى ابن سيرين دلالة على الشيطان أو الجن، فالوزغ بطبيعته خفيف الحركة تسرع به أهواؤه الشيطانية إلى المخاتلة، والحسد، والشر، ومجافاة الحق لبلوغ مآربه، وهذه الطبيعة تسرد الخسة البشرية التي تستبطنها أغلب الشخوص التي يرد ذكرها على لسان الإمام عليه السلام في طلب الدنيا: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (إذا بلغ ولد الوزغ ثلاثين رجلاً أخذوا مال الله بينهم دولاً، وعباده خولاً، وكتابه دغلاً فإذا بلغوا ثلاث مائة وعشرا حقت عليهم اللعنة، ولهم إذا بلغوا أربع مائة وخمسة وسبعين كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة) فأقبل الحكم بن أبي العاص وهم في ذلك الذكر والكلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (اخفضوا أصواتكم فإن الوزغ يسمع) وذلك حين رآهم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن يملك بعده منهم أمر هذه الأمّة يعني في المنام، فساءه ذلك وشقَّ عليه، فأنزل الله عز وجل في كتابه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فأشهد لكم وأشهد عليكم ما سلطانكم بعد قتل عليٍّ إلّا ألف شهر التي أجّلها الله عز وجل في كتابه). وخاصةً شخصية عمرو بن العاص في نشوزها عن الحق، ومعاداتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وعترته متخذاً من الشاهد القرآني دليلاً على مصداقية ما يقول، وتوثيقاً على هامش السيرة للمواقف الجوهرية المشينة التي تتكشف عن حجم العداء الذي تجاهر به هذه الشخوص للنبي صلى الله عليه وآله وعترته عليه السلام وتتوارثه من صلبٍ لأخر.

وأمّا أنتَ يا عمرو بن العاص الشانئ اللعين الأبتر فإنما أنت كلب أول أمرك أمّك لبغيّة، وأنّك ولدت على فراشٍ مشترك فتحاكمت فيكَ رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وعثمان بن الحارث، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل كلهم يزعم أنك ابنه، فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً، وأخبثهم منصباً، وأعظمهم بغية.

ثم قمت خطيباً وقلت: أنا شانئ محمد، وقال العاص بن وائل: إنَّ محمداً رجل أبتر لا ولد له، فلو قد مات انقطع ذكره فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فكانت أُمّك تمشي إلى عبد قيس لطلب البغية تأتيهم في دورهم ورحالهم، وبطون أوديتهم، ثم كنت في كلِّ مشهد يشهد رسول الله عدوه أشدهم له عداوة، وأشدهم له تكذيبا.

ثم كنتَ في أصحاب السفينة الذين أتو النجاشي، والمهرج الخارج إلى الحبشة في الإشاطة بدم جعفر بن أبي طالب، وسائر المهاجرين إلى النجاشي، فحاق المكر السيء بك، وجعل جدّك الأسفل، وأبطل أمنيتك وخيّب سعيك، وأكذب أحدوثتك، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

وأما قولك في عثمان فأنت يا قليل الحياء والدين ألهبت عليه ناراً ثم هربت إلى فلسطين تتربص به الدوائر فلما أتاك خبر قتله حبست نفسك على معاوية، فبعت دينك يا خبيث بدنيا غيرك ولسنا نلومك على بغضنا، ولا نعاتبك على

حبنا، وأنت عدو لبني هاشم في الجاهلية والإسلام، وقد هجوت رسول الله بسبعين بيتا من الشعر، فقال رسول الله: (اللّهم إني لا أحسن الشعر، ولا ينبغي لي أن أقوله، فالعن عمرو بن العاص بكل بيت ألف لعنة، فعليك إذاً من الله ما لايحصى من اللعن، وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولاً، ويحك يا بن العاص، ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي:

**تقول ابنتي: أين هذا الرحيل ... وما السير مني بمستنكرِ**

**فقلتُ:ذريني فإني امرؤ ... أريدُ النجاشيّ في جعفرِ**

**لأكويه من عنده كيّةً ... أُقيمُ بها نخوة الأصغرِ**

**وشأني أحمد من بينهم ... وأقوالهم فيه بالمنكرِ**

**وأجري على عتبةٍ جاهداً ... ولو كان كالذهب الأحمر**

**ولا انثني عن بني هاشم ... وما اسطعتُ في الغيب والمحضرِ**

**فإن قبل العتب مني له ... وإلا لويتُ لهُ مشفري**

ثم أنت يا عمرو المؤثر دنيا غيرك على دينك أهديت النجاشي الهدايا، ورحت إليه رحلتك الثانية، ولم تنهك الأولى عن الثانية، كل ذلك ترجع مغلولاً حسيراً، تريد بذلك هلاك جعفر وأصحابه فلما أخطأك ما رجوت وأمّلت، أحلت على صاحبك عمارة بن الوليد.

وأما أنت يا وليد بن عقبة فوالله ما ألومك أن تبغض عليّاً وقد جلدك في الخمر ثمانين سوطاً، وقتل أباك بين يدي رسول الله ﷺ وأنت الذي سماه الله الفاسق، وسمى عليّاً المؤمن حيث تفاخرتما، فقلت له: أسكت يا عليّ فأنا أشجع منك جنانا، وأطول منك لساناً فقال لك علي: أسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق فأنزل الله في موافقة قوله ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[1]، ثم أنزل الله في موافقة قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[2].

ويحكَ يا وليد! مهما نسيت فلا تنسَ قول الشاعر فيك وفي عليٍّ:

**أنـــزل الله في الكتـــاب علينـــا ... في عـــليٍّ وفي الوليـــد قرأنـــا**

**فتبـــوّا الوليـــد منـــزلَ كفـــرٍ ... وعـــليٍّ تبـــــــوأ الإيمانـــا**

**لـيس مـن كـان مؤمنـا يعبـد الله ... كمـــن كـــان فاســـقاً خوانـــا**

**سـوف يـدعى الوليـد بعـد قليـلٍ ... وعـــليٍّ إلى الجـــزاء عيانـــا**

**فعـــليٌّ يجـــزى هنـــاك جنانـــاً ... وهنـاك الوليـد يُجـزى هوانـا**[3]

وما أنت وذكر قريش، وإنما أنت ابن عليجٍ من أهل صفورية يقال له: ذكوان.

---

(١) السجدة ـ آية ١٨.

(٢) الحجرات ـ آية ٦.

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق: المجلس ٧٤ الرقم ٤.

وأما زعمك أنا قتلنا عثمان، فو الله ما استطاع طلحة والزبير وعائشة أن يقولوا ذلك لعليّ بن أبي طالب، فكيف تقوله أنت؟ ولو سألت أمك: من أبوك؟ إذ تركت ذكوان فألصقتك بعقبة بن أبي معيط اكتست بذلك عند نفسها سناءً ورفعةً مع ما أعدّ الله لك ولأبيك وأمّك من العار والخزي في الدنيا والآخرة، وما الله بظلامٍ للعبيد.

ثم أنت يا وليد ـ والله ـ أكبر في الميلاد ممن تدّعي له النسب فكيف تسبّ عليّاً؟ ولو اشتغلت بنفسك لبينت نسبك إلى أبيك لا إلى من تدّعي له، ولقد قالت لك أمك: يا بنيّ أبوك ـ والله ـ ألأم وأخبث من عقبة.

وأما أنت يا عتبة بن أبي سفيان فوالله ما أنت بحصيف فأجاوبك، ولا عاقل فأعاتبك، وما عندك خير يرجى ولا شر يخشى، وما كنت لو سببت عليّاً لأغار عليك لأنك عندي لست بكفؤٍ لعبد علي بن أبي طالب عليه السلام فأردّ عليك وأعاتبك، ولكن الله عز وجل لك ولأبيك وأمك وأخيك بالمرصاد، فأنت ذريّة آبائك الذين ذكرهم الله في القرآن فقال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1].

وأما وعيدك إيّاي بقتلي فهلا قتلت الذي وجدته على فراشك مع حليلتك وقد غلبك على فرجها، وشاركك في ولدها حتى ألصق بك ولداً ليس لك ويلاً لك لو شغلت نفسك بطلب ثأرك منه كنت جديراً وبذلك حريّاً إذ

---

(١) الغاشية ـ آية ٣.

تسومني القتل وتوعدني به، أما تستحي من قول نصر بن الحجاج فيك:

**يـا للرجـالِ وحـادث الأزمـانِ ولسـبّةٍ تخـزى أبـا سـفيان**
**نُبئـتُ عتبـة هيأتـه عرسـه لصـداقة الهـذلي مـن لحيـانِ**
**ألفاهُ معهـا في الفـراش فلـم يكـن فحـلاً وأمسـكَ خشـية النسـوانِ**
**لا تعتـبن يـا عتـب نفسـك حبهـا إن النسـاء حبائـل الشـيطان**

ولا ألومكَ أن تسبَّ عليّاً، وقد قتل أخاك مبارزة، واشترك هو وحمزة بن عبد المطلب في قتل جدّك حتى أصلاهما الله على أيديهما نار جهنم، وأذاقهما العذاب الأليم، ونفى عمك بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وأما رجائي الخلافة فلعمر الله لئن رجوتها، فإنّ لي فيها لملتمساً وما أنت بنظير أخيك، ولا خليفة أبيك، لأن أخاك أكثر تمرداً على الله، وأشد طلباً لإراقة دماء المسلمين، وطلب ما ليس بأهل، يخادع الناس ويمكرهم، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وأما قولك: إن عليّاً كان شرَّ قريش لقريش فو الله ما حقّر مرحوماً ولا قتل مظلوماً.

وأما أنت يا مغيرة بن شعبة فإنك عدو الله، ولكتابه نابذ، ولنبيّه مكذّب،

---

(١) ملاحظة دقيقة يذكرها السيد حسن الشيرازي في كتابه (كلمة الإمام الحسن عليه السلام) ص١٥١ وهي (وهذا لا يناسب عتبة بن أبي سفيان وهو أخو معاوية لأبويه، وإنما يناسب الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه أروى بنت كريز، والحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وآله ولعينه عم عثمان حقيقة، وعم الوليد بن عقبة بهذا السبب، والظاهر أنه اضطراب في الرواية).

وأنت الزاني وقد وجب عليك الرجم، وشهد عليك العدول البررة الأتقياء، فأخّر رجمكَ، ودفع الحق بالباطل، والصدق بالأغاليط، وذلك لما أعدّ الله لك من العذاب الأليم، والخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى.

وأنت ضربت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أدميتها، وألقت ما في بطنها استذلالاً منك لرسول الله صلى الله عليه وآله ومخالفة منك لأمره، وانتهاكاً لحرمته، وقد قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: (أنتِ سيدة نساء العالمين) والله مُصيّرك إلى النار، وجاعل وبال ما نطقت به عليك.

فبأي الثلاثة سببت عليّاً أنقصاً في حسبه؟ أو بعداً من رسول الله، أم سوء بلاءٍ في الإسلام؟ أو جوراً في حكمٍ؟ أم رغبةً في الدنيا؟ فإن قلت بها فقد كذبت وكذبك الناس.

أتزعم أن عليّاً قتل عثمان مظلوماً؟ فعلي والله أتقى وأنقى من لائمه في ذلك، ولعمري إن كان علي قتل عثمان مظلوماً فوالله ما أنت من ذلك في شيء فما نصرته حيّاً، ولا تعصبت له ميتاً، ومازالت الطائف دارك تتبع البغايا، وتحيي أمر الجاهلية، وتميت الإسلام حتى كان في أمس ما كان.

وأما اعتراضك في بني هاشم وبني أمية فهو ادعاؤك إلى معاوية، وأما قولك في شأن الإمارة، وقول أصحابك في الملك الذي ملكتموه، فقد ملك فرعون مصر اربعمائة سنة، وموسى وهارون عليهما السلام نبيان مرسلان يلقيان ما يلقيان، وهو ملك الله يعطيه البر والفاجر، وقال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ

فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٢].

ثم قام الحسن عليه السلام فنفض ثيابه، وهو يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ هم والله يا معاوية: أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٣] هم عليّ بن أبي طالب وأصحابه وشيعته.

ثم خرج وهو يقول: (ذق وبال ما كسبت يداك، وما جنيت وما قد أعد الله لك من الخزيّ في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة).

فقال معاوية لأصحابه: وأنتم فذوقوا وبال ما قد جنيتم، فقال له الوليد بن عقبة: والله ما ذقنا إلا كما ذقت، ولا أجترأ إلا عليك، فقال معاوية: ألم أقل لكم إنكم لن تنتصفوا من الرجل؟ فهلا أطعتموني أول مرة أو انتصرتم من الرجل إذ فضحكم والله ما قام حتى أظلم عليّ البيت وهممت أن أسطو به فليس فيكم خير، اليوم ولا بعد اليوم).

وسمع مروان بن الحكم بما لقي معاوية وأصحابه المذكورون من الحسن بن علي عليه السلام فأتاهم فوجدهم عند معاوية في البيت فسألهم: ما الذي بلغني عن الحسن وزعله؟ قالوا: قد كان ذلك فقال لهم مروان: فهلا أحضرتموني ذلك،

---

(١) الأنبياء ـ ١١١.

(٢) الإسراء ـ ١٦.

(٣) النور ـ ٢٦.

فو الله لأسبنّه ولأسبّنَّ أباه، وأهل البيت سبّاً تغني بـه الإمـاء والعبيـد، فقـال معاوية، والقوم: لم يفتك شيء ـ وهم يعلمون من مروان بذر لسانٍ وفحـش ـ فقال مروان: فأرسل إليه يا معاوية، فأرسل معاوية إلى الحسن بن عليعليه السلام فلـما جاءه الرسول قال له الحسنعليه السلام: (ما يريد هذا الطاغية منـي؟ والله لـئن أعـاد الكلام لأوقرنّ مسامعه ما يبقى عليه عاره وشناره إلى يوم القيامة).

فأقبل الحسنعليه السلام فلمّا أن جـاءهم وجـدهم بـالمجلس عـلى حـالتهم التـي تركهم فيها، غير أن مروان قد حضر معهم في هذا الوقت فمشـى الحسـنعليه السلام حتى جلس على السرير مع معاوية وعمرو بن العـاص، ثـم قـال الحسـنعليه السلام لمعاوية: لِمَ أرسلتَ إليَّ؟ قال: لست أنا أرسـلت إليـك، ولكـن مـروان الـذي أرسل إليك.

فقال مروان: أنت يـا حسـن السـباب رجـال قـريش؟ فقـال: ومـا الـذي أردت؟ فقال: والله لأسبّنّك سبّاً تغنّى بـه الإمـاء والعبيـد، فقـال الحسـن بـن عليعليه السلام: أما أنتَ يا مروان فلست أنا سـببتك ولا سـببت أبـاك ولكـن الله عزوجل لعنكَ ولعن أباك وأهل بيتك وذريتك، وما خـرج مـن صـلب أبيـك إلى يـوم القيامة على لسان نبيه محمدصلى الله عليه وآله.

والله يا مروان: ما تنكر أنت ولا أحد ممن حـضر هـذه اللعنـة مـن رسـول اللهصلى الله عليه وآله لك ولأبيك من قبلك، وما زادك الله يا مروان بـما خوّفـك إلا طغيانـاً كبيراً صدق الله وصـدق رسـوله يقـول: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ

فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾[١]، وأنت يا مروان وذرّيتك الشجرة الملعونة في القرآن عن رسول الله ﷺ فوثب معاوية فوضع يده على فم الحسن عليه السلام وقال: يا أبا محمد ما كنت فحّاشاً فنفض الحسن عليه السلام ثوبه، وقام وخرج، فتفرّق القوم عن المجلس بغيظٍ وحزنٍ وسواد وجوه)[٢].

وقادته الأيام إلى مناظرة ثانية [٣] جرت على سنخ ما قبلها في مجلسٍ اجتمعت فيه أغلب بطانة البيت الأموي، وهم يتفاخرون، فنظر لهم معاوية بعين الداهية الذي يعرف من أين تؤكل الكتف، وتلمّظ الشيطان على لسانه، ثم أزبد لإثارتهم، فقال: (أكثرتم الفخر، فلو حضركُم الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس لقصَّرا من أعنتكم ما طال)[٤].

فقال زياد لمعاوية: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ ما يقومان لمروان بن الحكم غرب منطقه، ولا لنا في بواذخنا فابعث إليهما في غدٍ حتى تسمع كلامنا.

---

(١) الإسراء ـ ٦٠.

(٢) كلمة الإمام الحسن عليه السلام ـ السيد حسن الشيرازي. دار الكفيل. ط ١/ ١٥٥: ٢٠١٧.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام ـ باقر شريف القرشي: ج٢/ ٢٧١ـ ٢٧٦.

(٤) م.ن: وقد ورد فيها (قال ابن العاص: ياحسن، إنّا قد تفاوضنا، فقلنا: إنَّ رجال بني أمية أصبر عند اللقاء، وأمضى في الوغى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب، ثم سكت، فقال مروان بن الحكم: وكيف لا نكون كذلك، وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا، ثم تكلم زياد: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله، ويجحدوا الخير في سلطانه، نحن أهل الحملة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديما وحديثاً).

فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص مستشيراً: ما تقول؟

فقال ابن العاص: ابعث إليهما غداً.

ولما حضرا واستقر بهما المجلس التفت إليهما معاوية مبتدئاً:

إنّي أجلّكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولاسيّما أنت يا أبا محمد فإنّك ابن رسول الله، وسيد شباب أهل الجنة، ثم قال ابن العاص: يا حسن إنّا قد تفاوضنا فقلنا: إنّ رجال بني أمية أصبر عند اللقاء، وأمضى في الوغى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب.

ثم سكت، فقال مروان بن الحكم: وكيف لا نكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم فإن شئنا عفونا، وإن شئنا بطشنا.

ولما سكت مروان تكلم ابن زياد: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله، ويجحدوا الخير في سلطانه نحن أهل الحملة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

فقال الإمام عليه السلام: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الأفك أن ينطق الرجل بالخنا، ويصور الباطل بصورة الحقِّ.

ثم وجه خطابه إلى عمرو بن العاص فقال له: يا عمرو أفتخاراً بالكذب، وجرأةً على الإفك؟ مازلت أعرف مثالبك الخبيثة أُبديها مرةً وأمسك عنها أخرى، فتأبى إلا انهماكاً في الضلالة، أتذكر مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، وفرسان الطّراد، وحتوف الأقران، وأبناء الطّعان، وربيع الضيفان، ومعدن

النّبوة، ومهبط العلم؟ وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبيّن ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال، وتساورت الأقران، واقتحمت الليوث، واعتركت المنية، وقامت رحاها على قطبها وافترت على نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم ومنَّ النبيّ على ذراريكم، فكنتم لعمري في ذلك اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب.

ثم التفت إلى مروان، فقال له: وأمّا أنت يا مروان فما أنت والإكثار في قريش وأنت طليق، وأبوك طريد يتقلب من خزايةٍ إلى سوأة، ولد جيء بك إلى أمير المؤمنين فلمّا رأيت الضرغام قد دميت براثنه، واشتبكت أنيابه كنت كما قال القائل:

**ليثٌ إذا سمع الليوث زئيره بصبصن ثم قذفن بالأبعار**

فلمّا منّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعدما ضاق عليك، وغصصت بريقك لم تقعد معنا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتجارينا ونحن مما لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية.

ثم وجه عليه السلام خطابه إلى زياد فقال له:

وما أنت يا زياد وقريشاً؟ لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً، ولا فرعاً نابتاً، ولا قديماً ثابتاً، ولا منبتاً كريماً بل كانت أمّك بغيّاً تداولها رجال قريش، وفجّار العرب، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً، فادّعاك هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ بعد ممات أبيه مالك افتخار تكفيك سميّة ويكفينا رسول الله وأبي

علي بن أبي طالب عليه السلام سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه، وعمّي حمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار، وأنا وأخي سيدا شباب أهل الجنّة.

ثم انعطف على ابن عباس قائلاً: يابن العم إنما هي بغاث الطير انقض عليها أجدل.

وحين خرجا التفت معاوية إلى بطانته مستهزئاً بهم: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت، وتكلم مروان لولا أنه نكص، ثم التفت إلى زياد فأنكر عليه هذا التّدخل قائلاً: ما دعاك إلى محاورته ما كنت إلّا كالحجل في كف البازي؟

فقال ابن العاص لمعاوية: ألا رميت من ورائنا؟

فردّ عليه معاوية: إذاً كنت شريككم في الجهل، أُفاخر رجلاً رسول الله جدّه وهو سيّد من مضى ومن بقي، وأمّه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين.

ثم التفت إلى ابن العاص: والله لئن سمع به أهل الشام لهي السّوءة السوآء.

فقال عمرو: لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرحى بثفالها، ووطأهما وطء البازل القراد بمنسمه.

فقال زياد: قد والله فعل، ولكن معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما.

وخلص ابن عباس بالإمام عليه السلام، فقبّل ما بين عينيه وأظهر الإعجاب بحديثه ورده على القوم قائلاً: أفديك يا ابن العم، والله مازال بحرك يزخر، وأنت تصول حتى شفيتني من أولاد البغايا.

ولم تخبو تلك النزعة التحريضية في نفس معاوية، يسعرها كلما وجد إلى ذلك حطباً أيبسته الضغينة لآل محمدﷺ عامة، وللإمام الحسنعليه السلام خاصة، وفي يومٍ دخل الإمام الحسنعليه السلام على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير، فلم يهدأ حتى استل نفس لسانه الموبوء محرضاً إياه للتطاول على الإمامعليه السلام عارفاً طوية نفسه، وما تضمره من غلٍّ لبني هاشم، فقال: (لو افتخرت على الحسن، فإنّك ابن حواري رسول اللهﷺ، وابن عمته، ولأبيك في الإسلام نصيب وافر)، فتجشأ ذلك الغل عن أحمقٍ لا يعي ضآلة نفسه أمام عظمة خصمه فقال: (أنا لهُ) فلما أستوى المجلس بالإمام الحسنعليه السلام بادره قائلاً: (لولا أنّك خوّار في الحرب غير مقدام، ما سلمت لمعاوية الأمر، وكنت لا تحتاج إلى اختراق السهوب، وقطع المفاوز، تطلب معروفه، وتقوم ببابه، وكنت حريّاً أن لا تفعل ذلك، وأنتَ ابن علي في بأسه، ونجدته، فما أدري ما الذي حملك على ذلك؟ أضعف في الرأي، أم وهن ونحيزة، فما أظنُّ لك مخرجاً من هاتين الخلّتين، أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أنّي ابن الزبير، وأني لا أنكص عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدتي صفية بنت عبد المطلب، وأبي الزبير من حواري رسول اللهﷺ، وأشدُّ الناس بأساً، وأكرمهم حسباً في الجاهلية، وأطوعهم لرسول الله).

فقال له الإمامعليه السلام: (أما والله لولا أنّ بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوناً، ولكن سأبين لك ذلك لتعلم أني لستُ بالعيِّ، ولا الكليل اللسان، إيّاي تُعيِّر، وعليَّ تفتخر، ولم يكن لجدك بيت في الجاهلية، ولا

مكرمة، فزوجته جدتي صفية بنت عبد المطلب، فبذخ على جميع العرب بها، وشرُف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها، نحن أكرمُ أهل الأرض زنداً، لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب، ثم تزعم: أني سلمتُ الأمر، فكيف يكون ذلك ويحك هكذا؟ وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتني فاطمة سيدة نساء العالمين، وخيرة الإماء، لم أفعل ذلك ويحك جبناً ولا ضعفاً، ولكنه بايعني مثلك، وهو يطلبني بترةٍ، ويداجيني المودة، ولم أثق بنصرته، لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول؟ وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكث بيعته، ونكص على عقبيه، واختدع حشيةً من حشايا رسول الله ﷺ ليضلَّ بها الناس، فلما دلف نحو الأعنة، ورأى بريق الأسنة، قُتِل مضيعةً لا ناصر له، وأتى بك أسيراً، قد وطأتك الكُماة بأظلافها، والخيل بسنابكها، واعتلاك الأشتر، فغصصت بريقك، وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشهُ الليوثُ، فنحن ويحك نور البلاد، وأملاكها، وبنا تفخر الأمة، وإلينا تلقى مقاليد الأمة، أتصول وأنتَ تختدع النساء؟ ثم تفخر على بني الأنبياء، لم تزل الأقاويل منا مقبولة، وعليك وعلى أبيك مردودة، دخل الناس دين جدي طائعين، وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين، فسار إلى أبيك، وطلحة حين نكثا البيعة، وخدعا عُرْسَ رسول الله، فقتل أبوك وطلحة، وأتى بك أسيراً، فبصبصت بذنبك، وناشدته الرَّحِم أن لا يقتلك فعفا عنك، فأنت عتاقةُ أبي، وأنا سيِّدُكَ وسيِّدُ أبيكَ، فذق وبال أمرك)، فسكت ابن الزبير، وخجل، ثم وعى الشراك الذي أوقعه فيه معاوية، فقال معتذراً:ـ

اعذُرْ يا أبا محمّد، فإنّما حملني على محاورتك هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ فهلاّ إذ جهلت أمسكت عني، فأنكم أهل بيتٍ سجيتكم الحلم، والعفو.

ثم التفت الإمام عليه السلام إلى معاوية قائلاً: انظرْ هل أَكيعُ عن محاورة أحد، ويحك أتدري من أيِّ شجرةٍ أنا، وإلى من أنتمي؟ انتهِ قبلَ أن اسمك بميسمٍ تتحدث بهِ الركبان في الآفاق والبلدان.

فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل.

فقال له معاوية: أما إنّهُ قد شفا بلابل صدري منك، ورمى بمقتلك، فصرت كالحجل في كف البازي، يتلاعب بك كيف أراد، فلا أراك تفتخر على أحد بعدها)[1]. فبلاغة الإمامة تقتضي حين تواجه نوعاً من التدليس في الحقائق، وتغريبها على ألسنة مارقة أن تعيد الأمور إلى نصابها، وأن تضيء دياجير تدليسها حتى ينجلي الحق صبحاً مبيناً، ويعي مجادليه أن صدى لسانه عليه السلام أفصح بياناً، وأمضى حدّاً، وأبلغ في التصريح، والتلميح، والتصحيح، والتوثيق من عيٍّ فاحشٍ يصور الباطل بصورة الحقِّ، وهذه البلاغة نتاج شجرة النبوة، وثمرة الإمامة تستضيء بمشكاتيهما في إنارة الشبهات، وإبانة الملتبسات التي تنحرف بمسارات السرد التاريخي عن حقيقتها، فالأحداث متصلة ببعضها تتساوق في مجملها إلى إضاءة حقيقة القوى المتصارعة، وأي تغيير فيها، أو تدليس هو تعضيد لتلك الشبهات.

---

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقي ج١ ص٥٨ـ ٦١.

وكثيراً ما يصرّح الإمام الحسن عليه السلام مُشيداً بنسبه القرشي في توثيق سيرته، والصفات التي تنهض بها إمامته، وأرومته، فقد تحدث عليه السلام يوماً في مجلس معاوية قائلاً: (قد علمت قريش بأسرها: أني منها في عزِّ أرومتها، لم أطبع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهي، وأُدعى لأبي.

فاغتاظ ابن العاص، وقال: (قد علمت قريش أنّك من أقلها عقلاً، وأكثرها جهلاً، وان فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منهن لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك، لعمر الله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لأكبسنّ لك حافةً كجلد العائط، أرميك من خللها بأحرَّ من وقع الأثافي، أعرك منها أديمك عرك السلعة، فإنّك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت في أعراض الوعر التماساً للفرقة، وإرصاداً للفتنة، ولن يزيدك الله إلا فظاعة.

فرد عليه الإمام عليه السلام قائلاً: أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك ما سلكت فجّ قصد، ولا حللت رابية مجد، وأيم الله لو أطاعني معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح، فإنه طالما طويت على هذا كشحك، وأخفيته في صدرك، وطمع بك الرجاء إلى الغاية القصوى التي لا يورق لها غصنك، ولا يخضر لها مرعاك، أما والله ليوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغام من قريش، قوي ممتنع، فروس ذي لبد، يضغطك ضغط الرحا للحبِّ، لا ينجيك منه الروغان إذا التقت حلقتا البطان.

فقال ابن العاص: يا حسن أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك؟

فلقد رأيت الله ﷻ أقامه بمعاوية، فجعله راسياً بعد ميله، وبيناً بعد خفائه، أفرضي الله قتل عثمان؟ أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين، عليك ثياب كغرقى البيض، وأنت قاتل عثمان؟ والله إنّه لا ألمّ للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك.

فردَّ عليه الإمام عليه السلام موبخاً، وكاشفاً التباين الأسري، والعقائدي، والاجتماعي، والبلاغي بينهما بما ينتهي به إلى خساسة أصلٍ ومعتقدٍ توسمه بصفات أهل النار: (إن لأهل النار علامات يعرفون بها وهي الإلحاد لأولياء الله، والموالاة لأعداء الله، والله إنك لتعلم أن علياً عليه السلام لم يتريب في الأمر، ولم يشك في الله طرفة عين، وأيم الله لتنتهين يا ابن أم عمرو أو لأنفذن حضنيك بنوافذ أشد من الأقضية، أو لأقرعنّ جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت، فإياك والإبراز عليّ فأني من قد عرفت، لست بضعيف الغميزة، ولا بهش المشاشة، ولا بمريء المأكلة، وإني من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبي ولا أدعى لغير أبي وأنت تعلم ويعلم الناس وتحاكمت فيك رجال قريش، فغلب عليك جزّارها ألأمهم حسباً وأظهرهم لؤما فإياك عني فإنك رجس ونحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرا[1]، فأفحم عمرو واكتأب).

وأغلب هذه المناقضات والمحاورات تقوم من جهة أعداء الإمام عليه السلام على

(١) نهج البلاغة ـ شرح ابن أبي الحديد ج٤ ص٤.

نقض الحقائق، والأدلة وتفريغها من رسوخها العقائدي، ومحتواها المعرفي كتعرية مفهوم الإمامة من ماهيتها التي قام بها في أبعاده الاعتبارية، والعملية، والمعرفية، والأثار المترتبة عليها، حتى تنطوي على آلية الانبساط والانقباض عند تأويلها بما يخدم مشروع التعرية، ولا يمكن لهذه التعرية أن تتجذر في الوعي إلا بتوهين أقطابها وتجريدهم من صفاتهم الإنسانية والربانية السامية التي تتوافق مع الوجود الذهني لماهيتها في ذاكرة العامة، وتكتسب عمقها الحقيقي من خلال فرض نوع من التبعية مقرونة بأمر الله، وفارضة هالةً من القداسة تجعل هذه التبعية أمراً عباديا لا يخالطه الشك، ولا يمكن تجاوزه، وهذه الإمامة تكليف رباني يقتضي من الإمام أن يكون عالماً ربانياً قد تكشفت له حقائق الأشياء، وبواطن الأسرار، لذا يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على تفرّد آل محمد عليهم السلام بهذا الرسوخ المعرفي قائلاً: (ما يعلم المخزون المكنون المجزوم المكتوم الذي لم يطلع عليه ملكُ مُقرّب، ولا نبيّ مرسل غير محمدٍ وذريته)، تقابلها في الصراع العقائدي نظرة أخرى لا تبالي بهذا الرسوخ بل تجعل من الاجتهاد في الأمور العبادية، والفقهية، والدنيوية صفةً اعتبارية هشة يمكن من خلالها للمتصدي لها أن يصيب ويخطئ، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ.

فالاصطفاء الإلهي الذي يمنح الإمامة عمقها البلاغي في استظهار الحق، ودحض الباطل، وإبانة المسار العرفاني الذي يهدي به الإمام الناس كافة إلى

موارد النجاة، بما يصرفها من كونها ملكاً دنيوياً، أو شأناً وضعياً يقوم على فرضية الشوري والاختيار والقوة والإمام الحسن عليه السلام يتقصى مسار الحوادث من حيث اتصالها بااجتماع الناس على كلمة الحق، ومناهضة الباطل، وهذا مقرون بفهم الإمامة كموجهٍ عقائدي لهم، ومعرفة الإمام الذي يحمي الأمة من الانحراف، لذا حاجج معاوية الذي يرى في نفسه معدن الخلافة موضحاً الأمور التي أجتمع عليها الناس، والسنن التي أفترقوا عنها قائلاً: (العجب منك يا معاوية ومن قلة حيائك، ومن جرأتك على الله حين قلت: قد قتل الله طاغيتكم وردَّ الأمر إلى معدنه، فأنت يا معاوية معدن الخلافة دوننا؟ كلا: ما أنت أهله ولكني أقول لتسمعه بنو أبي هؤلاء حولي: إن الناس اجتمعوا على أمور كثيرةٍ ليس بينهم اختلاف فيها، ولا تنازع ولا فرقة على شهادة أن لا إله إلا الله، وإن محمدا رسول الله وعبده، والصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت ثم أشياء كثيرة من طاعة الله التي لا تحصى ولا يعدها إلا الله واجتمعوا على تحريم الزنا، والسرقة، والكذب، والقطيعة، والخيانة، وأشياء كثيرة من معاصي الله لا تحصى ولا يعدها إلا الله.

واختلفوا في سنن اقتتلوا فيها، وصاروا فرقاً يلعن بعضهم بعضاً وهو الولاية ويبرأ بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم بعضاً أيهم أحقّ وأولى بها إلا فرقة تتبع كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله فمن أخذ بما عليه أهل القبلة الذي ليس فيه اختلاف، وردَّ علم ما اختلفوا فيه إلى الله، سلم ونجا به مت النار، ودخل

الجنة، ومن وفقه الله ومنّ عليه، واحتج عليه، بأن نوّر قلبه بمعرفة ولاة الأمر من أئمتهم ومعدن العلم أين هو؟ فهو عند الله سعيد ولله وليّ، وقد قال رسول اللهﷺ: (رحم الله امرءاً علم حقاً فقال فغنم، أو سكت فسلم).

نحن نقول أهل البيت: إنّ الأئمة منا، وإن الخلافة لا تصلح إلا فينا، وإن الله جعلنا أهلها في كتابه وسنة نبيّهﷺ وإن العلم فينا ونحن أهله وهو مجموع كله بحذافيره وإنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة، حتى أرش الخدش إلا وهو عندنا مكتوب بأملاء رسول اللهﷺ وخط عليعليه السلام بيده.

# الفصل الرابع

# بلاغة العبادة

تعكس الطبيعة العبادية الصادرة عن ذات النبي صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام في سلوكها الظاهري محتواها الباطني، حتى تشف في ظاهرها عن سنة تستنطق الحدود، وفي باطنها عن معرفة تستغرق الوجود، وتتمثل إشراقاتها في تجليات الهاجس الشعوري للخضوع الكلي لله تعالى، بحيث تنسلخ كلُّ ذرة جسمانيةٍ من ثقلها المادي، وتنصهر في أتون تلك التجليات، ملبّيةً طواف الروح في الملكوت الأعلى، وعالقةً بفيوضات الأنوار، وتكشّف الأسرار، حتى يغشى واحدهم عليه في صلاته، كمن فارق حياته، وتصرّمت أنفاسه، وعرج بقلبه إلى منازل التجلي، مستوحشاً من الدنيا، مجافٍ لها، عارفاً حقيقتها، وكأن المعنى الكامن في محراب القلب المشغوف بحبِّ الله قد أشرق في ألفاظ قيامه، وقعوده، فطال سجوده مشدوداً في وله الروح لطاعة مولاه، متسامياً في نجواه.

والموروث العبادي للإمام الحسن عليه السلام يضيءُ لنا تلك الطبيعة، واسترسالها في سجية الطاعات بأتقى ما يكون متصلة بالفرائض الواجبة، ومنقطعة إلى النوافل المستحبة، فهو غارق في صلاة الروح قبل صلاة الجسد، واستغراق الحواس في المناجاة، فلا عجب لمثله أن تهيأ للصلاة اضطرب، وفاضت عيناه،

وغُشي عليه، وما ان يقوم للوضوء حتى تراه وقد (ارتعدت مفاصله، واصفرَّ لونه، فقيل له في ذلك!؟، فقال: (حقُّ على كلِّ من وقف بين يديْ ربِّ العرش أن يصفر لونه، وترتعد مفاصله)[١]، فإذا هي خلوة الروح، التي ضاء قنديل تهجدها، وتنفّس صبح مواعظها، فقال مبصّراً، ومذكّراً: (يا بن آدم: من مثلك وقد خلّى ربك بينه، وبينك؟ متى شئت أن تدخل عليه، توضأت، وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً، ولا بوّاباً، تشكو إليه همومك، وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه في أمورك)[٢]، فغاية الروح أن تتحرر من ثقل المادة، والحجب، وتخلو بمعشوقها، وتعلو بمنطوقها، فهم كمن خالطهم أمر عظيم من خشية الله، واستشعروا حقيقة التقوى، وكأن الدنيا إذا عرضت لهم زخرفها (كانوا يقولون ليس لنا في الدنيا حاجة، وليس لها خُلِقنا، إلا بالسعي لها أمرنا، أنفقوا أموالهم، وبذلوا دماءهم، واشتروا بذلك رضا خالقهم، علموا أن الله اشترى منهم أموالهم، وأنفسهم بالجنة فباعوه، وربحت تجارتهم، وعظمت سعادتهم، وأفلحوا، وأنجحوا، فاقتفوا أثارهم رحمكم الله، واقتدوا بهم فإن الله تعالى وصف لنبيهﷺ صفة آبائه إبراهيم وإسماعيل، وذريتهما، وقال ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[٣]، واعلموا عباد الله: أنكم مأخوذون بالاقتداء بهم، والإتباع لهم، فجدّوا، واجتهدوا،

---

(١) المناقب:٤/ ١٤، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٩.

(٢) إرشاد القلوب للديلمي: ٩٢.

(٣) الأنعام:٩٠.

واحذروا أن تكونوا أعواناً للظالم، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه، فقد خرج من ربقة الإسلام، ومن حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد حادّ الله، ورسوله، ومن أعان ظالماً ليبطل حقاً لمسلم فقد بَرئ من ذمة الله، وذمة رسوله صلى الله عليه وآله، ومن دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله، ومن ظُلِمَ بحضرته مؤمن، أو اغتيب وكان قادراً على نصره، ولم ينصره فقد باء بغضب من الله، ومن رسوله، ومن نصره فقد استوجب الجنة من الله تعالى، وإن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: قل لفلان الجبار: أني لم أبعثك لتجمع الدنيا على الدنيا، ولكن لتردّ عني دعوة المظلوم تنصره، فأني آليت على نفسي أن أنصره، وأنتصر له، ممن ظُلِمَ بحضرته، ولم ينصره)[1]، فحقيقة العبادة تؤتي أُكلها بإغاثة المظلوم، والانتصار له، وتجريد الظالم من المساند التي يتكئ عليها، وابطال الحجج التي يضلُ بها مجرى الحق.، فمن استضاء بهذه الكلمات كان قاضياً على نفسه يقيم عليها الحد إن مال بها الهوى، وحب الدنيا.

وما أن يبلغ عليه السلام باب المسجد، حتى تقشعر جوارحه تذللاً، ويرفع رأسه خاشعاً، مناجياً مولاه: (ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم)[2]، و(كان إذا فرغ من صلاة الفجر

---

(١) إرشاد القلوب ـ الديلمي: ٩٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهر آشوب المازندراني ٣ / ١٨٠ وبحار الأنوار ـ المجلسي: ٤٣ / ٣٣٩.

لم يتكلم حتى تطلع الشمس وإن زحزح)[١]، فصوم اللسان بين يدي رحمته ينطوي على مناجاة عرفانية لقلب واله تمتد به عوالم المناجاة إلى نشوةٍ من التذلل والوصال لا يريد الخروج من أسارها.

وهذه الآداب العبادية تصدر عن خشوعٍ كلي جعلته يعايش أهوال العوالم الأخرى، فقد ورد: (عن المفضل بن عمر قال: قال الإمام الصادق عليه السلام حدثني أبي عن أبيه عليه السلام: أنّ الحسن بن علي عليه السلام كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم، وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجَّ ماشياً، وربما مشى حافياً، وكان إذا ذُكر الموت بكى، وإذا ذُكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقةً، يغشى عليه منها، وكان إذا قام إلى صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عز وجل، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله الجنة، وتعوذ به من النار، وكان عليه السلام لا يقرأ من كتاب الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلّا قال: لبيك اللهم لبيك)[٢].

وهذه العبادة لا تقف عند حدٍّ محدود أو أفقٍ ضيقٍ بل تستغرق الحياة كلها، حتى تتسامى في مراتبها المعرفية، وكأن ذلك الاستغراق الحضوري تأويلاً لما تضمنه الحديث القدسي: (لم يسعني أرضي، وسمائي، ووسعني قلب عبدي

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ٤٣/ ١٨٠.

(٢) الأنوار البهية ـ الشيخ عباس القمي. تح: محمد كاظم الخراساني ـ دار الأضواء. بيروت:٨٧.

المؤمن)[١]، فمن لحظة الاضطراب الشعوري التي تنقاد لها جوارحه، إلى صعقة الارتعاد والخشيةً لله، ومع فيضان العين تفيض الروح فيغشى عليها متصلةً بملكوت الله تعالى، ومنفصلةً عمن سواه.

وهذا التمثل الشعوري إزاء المواقف التي يثير ذكرها لديه إحساساً عباديا يحيط بكل جارحة من جوارحه أن تجري بتكاليفها إلى أقصى حد وتطبيقها على أرض الواقع، فحين يجد رجلُ من شيعته قد أقضه دين، وهو معتكف يطوف بالكعبة، يقطع الطواف ويسعى معه لقضائها، فيعجب ابن عباس لهذا ويخاطبه: يا بن رسول الله أنسيتَ أنّكَ معتكف؟

فقال: لا، ولكني سمعتُ أبيعليه السلام، يقول: سمعتُ رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: من قضى لأخيه حاجة كان كمن عبد الله تسعة آلاف سنة صائماً نهاره، وقائماً ليله)[٢].

وكان الإمامعليه السلام ينظر بعين الله تعالى في تعامله اليومي مع خلقه، حتى تنعكس اشراقاتها في عتمة النفوس، فيحيلها إلى مشكاة من الوعي، وكأنه يضرب على وتر الفطرة، فتصدر ألحان استجابتها، وينكأ داء العمى في النفوس، حتى تضيء، وتستضيء، وتسترد وعيها المسلوب، كمن يؤوب لرشده، فحين رأى الإمامعليه السلام، وهو راكب رجلاً شامياً يسبه، و يلعنه تركه

(١) إحياء العلوم ـ أبو حامد الغزالي. دار المعرفة. بيروت: ج٣ / ١٥.
(٢) سفينة البحار ـ الشيخ عباس القمي: ج١ ص٣٥٤ مادة حوج.

حتى أفرغ غله، وتجشأ بقوله أقبل عليه بوجهه، وسلّم عليه، وهالة الروح تتخلل بأنوارها ثناياه، وتنطق على لسانه ببلاغة اللطف التي تسري أثارها الوجدانية في قلب مخاطبه ملتمساً له العذر، وفاتحاً له أبواب الاعتذار، فقال: (أيّها الشّيخ أظنّك غريباً ولعلّك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لانّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلمّا سمع الرّجل كلامه بكى فما اعجب كلماته حين يكون لها هذا الأثر الفعال بإزالة ماران على القلب من كدر، أو غلٍّ حتى فاضت عيناه معتذراً: «أشهد أنّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته)[1].

فالبلاغة العبادية للإمام عليه السلام تكمن في إزالة الحجب التي تمنع رؤية الحق، واستظهار حالة من الوعي القادر على الإقرار بالحقيقة الربانية، وتأويلها بحكم قرآني، بحيث يتحول التنافر الشعوري إلى انقياد سلسٍ للذات، واتصال معرفي ينفذُ إلى ماهية الحبِّ التي تفسر وشيجة انقياد المأموم لإمامه، حتى تشعر أن المعنى القرآني حين يتجلى أفعالاً سلوكية اجتماعية، تمتص الأحقاد، والأحن،

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير: ١ / ١٩٠ ـ مواقف ابن شهراشوب: ٢ / ١٤٩.

وتقدح نور التجلي في الطباع التي غذتها النزعة الأموية القائمة على مجافاة الحقِّ، وتأليه الباطل كنزعة براغماتية محضة، فإذا مكنون قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ يصبح سلوكاً مشهوداً، ونسقاً معرفياً خير من يترجمه، ويجعل منه معراجاً اجتماعياً ترقى به النفس البشرية إلى تلاوة أفعالها الخيرة، وتنبذ انقيادها لشهوة الكره لائمة العدل عليه السلام لأنهم الصورة المادية للطف الإلهي.

فالعودة بالذات إلى فطرتها الإنسانية، وتعريتها من رين الأهواء ينطوي على ممارسة سلوكية خلاقة تستشعر حاجة النفس إلى تلك التعرية، وإمكانية تحريرها من عقد النقص، فلما نظر إلى شاةٍ قد كُسرت رجلها، فقال عليه السلام لغلامه: من فعل هذا بها؟

ـ أنا ـ

ـ لِمَ ذلك؟!

ـ لأجلب لكَ الهم والغم

فتبسم عليه السلام، وقال له: لأسرك، فاعتقه وأجزل له في العطاء[٣]

ولا عجب أن يجري تقييم صفاته العبادية على ألسنة محبيه ومبغضيه، فعن محمد بن سعد قال: أخبرنا علي بن محمد، عن محمد بن عمر العبدي عن أبي سعيد: إن معاوية قال لرجل من أهل المدينة من قريش: اخبرني عن الحسن بن علي عليه السلام قال: يا أمير المؤمنين إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع

الشمس، ثم يساند ظهره فلا يبقى في مسجد رسول اللهﷺ رجل له شرف إلا أتاه فيتحدثون، حتى إذا ارتفع النهار صلى ركعتين، ثم نهض، فيأتي أمهات المؤمنين فيسلم عليهن فربما تحفنه، ثم ينصرف إلى منزله، ثم يروح فيصنع مثل ذلك، فقال: ما نحن معه في شيء).

فالعبادة عنده تتشعب بتشعب منافذ الحياة والجاً منها إلى مرضاة ربه، ناشراً آثارها على مريديه، فهو يجد في قضاء حقوق إخوانه، والتواضع لهم مرقاة لبلوغ صفة الصديقين، وشيعة أمير المؤمنين، فقالعليه السلام: (أعرف الناس بحقوق أخوانه، وأشدهم قضاءً لها أعظم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه، فهو عند الله من الصديقين، وشيعة علي بن أبي طالبعليه السلام)[1].

وشاء لتواضعه أن يفيض على الوجود رحمةً، وعلى قلوب المساكين، والفقراء حناناً، وجوداً، فيشاركهم كالوالد الحاني موائدهم البسيطة، وقد دعوه إلى كسيرات خبزٍ على الطريق[2]، ونداء روحه يتلو: (إن الله لا يحب المتكبرين)، ثم يدعوهم إلى ضيافته ناشراً بين أيديهم زاد كرمه، وملقياً على أكتافهم العارية أردية فضل الله عليه، أو يدعوه صبيانٌ إلى مائدتهم، فيشاركهم ناشراً عليهم سماء أبوته، ثم يحملهم إلى منزله، ويغدق عليهم من فيض برِّه، ويسمو ببرهم عليه، فيقول:(اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني، ونحن

(١) مجموعة ورام: ٣١٢.

(٢) أعيان الشيعة: ٤/ ٢٤.

نجد مما أعطيناهم)[١]، ويجري جوده مجرى البحر المتلاطم، فلا يجد صاحب حاجة إلا قضى حاجته، ولا عائلاً إلا أغناه بمعروفه، لذا كانت الأجوبة المختزلة الذي يردُّ بها على أسئلة أبيه مضماراً لروحة في تأويل مصاديقها إلى أفعالٍ تسمو بالحياة، لذا كان مفهوم السماحة لديه البذل في العسر، واليسر، والشح أن ترى ما في يدك شرفاً، وما أنفقته تلفاً، وتمثلت مكارم الأخلاق لديه كما روى جابر: (سمعت الحسن عليه السلام يقول: مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنايع، وصلة الرحم، والتذميم على الجار ـ أي حمايته ـ ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء)[٢].

لذا كان قرآناً ناطقاً يفسر آيات القرآن بأفعاله، وأقواله بما يلجم أفواه المعترضين، ويبهج قلوب المريدين لأن تجليات القرآن لديه تجري بمنطق الأخذ به، واستنطاق مضامينه التي ترسخت في ذاته، وصارت مناط تفكيره، وتفكره، ونبض روحه، لأن (هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور، فليجل جالٍ بضوئه، وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور)[٣]، ومن أراد مجاراة القرآن فليتخذه إماماً

---

(١) حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام دراسة وتحليل. باقر شريف القرشي: ج١/ ٢٩٢.

(٢) الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ـ مجموعة مؤلفين ـ المجمع العالمي لأهل البيت. قم المقدسة. ط٣:٢٠٥.

(٣) حياة الأمام الحسن عليه السلام دراسة وتحليل ـ باقر شريف القرشي: ١/ ٣٤٦.

تجري نواهيه وأوامره على النسق الالهي المتأصل في الفطرة بما يجلو رينها، حتى تكون نية العمل به هي الأصل المترتب على فعل قراءته، وتلاوته، ومقتضى العمل به التفقه بأحكامه، وفهمه، والوقوف على حقائقه، ومواثيقه، والولوج إلى حالة الخشوع التي تعتري أهل الصفة من الزهاد النافرين من هوى الدنيا، وهذا يضيء لك حقيقة من التزم به، وتمثله قولاً وفعلاً، ومن حرّفه، ونبذه وراء ظهره، وكأن تدبّره قراءة في سّير العاملين به حقاً، وحقيقة من زاغوا عن عرى ميثاقه، وحق تلاوته وصولاً إلى حملته وهم أئمة الهدى (واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا التقي حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلو الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف، ورأيتم الفرية على الله، ورأيتم كيف يهوى من يهوى، ولا يجهلنكم الذين لا يعلمون والتمسوا ذلك عند اهله، فأنهم خاصة نور يستضاء بهم، وأئمة يقتدى بهم، بهم عيش العلم وموت الجهل)[1]، وتكرار حرف التوكيد (لن) ينطوي على بلاغة التقسيم، والتوثيق حتى يصبح الفعل العبادي للمتمسك بميثاق الكتاب جارياً على سنن هذا الميثاق، ودون هذا السنن يكون المجال مفتوحاً للتحريف، والتسويف، والتكلف، لذا وجب التماس ذلك عند أئمة الهدى، حملة أسراره، ومشكاة أنواره، الذين تصدر أفعالهم على ضوء هداه، وأدبيات الرسالة

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام دراسة وتحليل ـ باقر شريف القرشي: ١/ ٣٤٦.

المحمدية (فإذا حيته جاريته بطاقةٍ من ريحان، قال عليه السلام لها: أنتِ حرةٌ لوجه الله، فلامه أنس على ذلك، فأوّل الإمام عليه السلام فعله، فقال: (أدبنا الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، وكان أحسن منها إعتاقها[1].

وكان يرى في الحرص على الدنيا رأس كل خطيئة، فهو يقول عليه السلام: (من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد حرصاً على الدنيا لم يزدد إلا بعداً، وازداد هو من الله بغضاً)[2]، لأن حب الدنيا يذيب عرق الإيمان في النفس، ويبلس بها إلى حيث يكون الشيطان، مرخياً له قياده، فيمنيه بحب المال، وركوب الخطايا، ويستفرغ الرحمة من قلبة، والنور من بصيرته، فيرى ما تحت يديه نتاج جهده، فلا يزكيه بالإنفاق، والشكر فلا توجعه أنة جائع، أو دمعة يتيم، أو تأوه ملهوف، أو حاجة الناس إليه، فكانت مواعظ الإمام الحسن عليه السلام ترسم بلاغة الجود ببيان السخاء، وضياء الحكمة، وتأويل المعنى بسائلٍ أفاض عليه الرحمن بركات غناه، فكيف يرد سائلاً، وكيف تجري على لسانه ألفاظ المنع، وهو يقول: (إني لله سائل، وفيه راغب، وأنا استحي أن أكون سائلاً، أردُّ سائلاً، وإن الله عودني عادة أن يفيض نعمه عليَّ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعني العادة، وأنشأ يقول:

---

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٤٣/ ٣٤٣.

(٢) كلمة الإمام الحسن عليه السلام ـ السيد حسن الشيرازي: ٤٩.

**إذا ما أتاني سائل قلت مرحبا بمن فضله فرض علي معجل**

**ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يسأل**[١]

فالإمام يرفض لسائل أن ينشر مديحه، يأخذه العُجب إلى إطراء نفسه، ففعل الإمام عليه السلام أضاء سجية النفس المعطاء، وسنن الكرم، وأصول السخاء، بلا تصنعٍ، أو تبريرٍ بل يعطي للسائل فضل عليه.

## العبادة المعرفية

يفسر مفهوم العبادة توجه العبد على نية العبودية الخالصة لله تعالى، أي بجوهر الانقياد الكلي، لذا فهي متصلة بمعرفته عقلياً نزوعاً إلى كمال المعرفة، وقلبياً وصولاً إلى كمال المحبة، وسلوكياً خضوعاً لمنطق التكليف، فالإمام المعصوم يمارس عبادته في ضوء هذا الاتصال على أنها ممارسة معرفية تعكس نزوعه المطلق باتجاه الكمال، فهي في ظاهرها مرآة تنعكس عليها مظاهر الطاعات كأفعال، وسلوكيات مثل الصلاة، والصوم، والحج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، وفي باطنها فعل معرفي يتدبّر به ما وراء هذه الأفعال، والسلوكيات من آفاقٍ مفتوحةٍ للتفكر، والاستنباط، والاستغراق، حتى تكون وظيفة العقل كما يصفها الإمام علي عليه السلام: (إقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية)[٢]، فيصير العقل بذلك كما يصفه النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) نور الأبصار. الشبلنجي الشافعي: ١١١.

(٢) روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار ـ ابن قاسم الأماسي (٩٤٠ هـ): ١٥.

(رسول باطن والرسول عقل ظاهر)[١]، وكلما انقاد القلب لهذا الرسول الباطن، وتمرد على النفس الأمارة بالسوء كلما حافظ على تقواه، وخلص من الشوائب وآمن بما جاء به العقل الظاهر، بل العقل مشكاة الذات في تمثل أحوالها، وأفعالها، والنفاذ إلى عالم البصيرة، والترقي في شأن العبادات، واستحصال ثمر الطاعات، وفضيلة العقل عند الإمام الحسن عليه السلام تتجلى بقوله: (لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً)[٢].

فمن استنار بعقله أحيى قلبه، وعرف ربّه، فلا عجب أن يتعجب الإمام الحسن عليه السلام بقوله: (عجبتُ لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه)[٣] نافذاً إلى المعنى بحجةٍ عقلية تختزل مضمونها بإيقاع بلاغي يسهم في استنطاق مداليله المتشعبة، إذ التفريق بين المأكول الحسي، والمعقول الذهني هي استنطاق لماهية العبادة حين تتحكم في تشخيص صفة العابد إذ لا عبادة كالتفكر، والمعقول ما يمكن إدراك حقيقته بعد تمحيص، وتدبّر وما يمكن من خلاله الولوج إلى عالم المُثل والكمال لأن معقول الشيء (هو الشيء بعينه إلا أن معقوله هو ذلك الشيء

---

(١) التشريع الإسلامي ـ المدرسي: ١/ ٨٧.

(٢) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن بن علي عليه السلام ـ مصطفى الموسوي: ١١٥.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ـ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج١٩/ .

من حيث هو في النفس، والشيء هو ذلك المعقول من حيث هو خارج النفس)[١].

فالأفعال العبادية تجري عند الإمام مجرى الألطاف الإلهية التي يريد للنفوس أن تسمو بها، وتمحصها، وتنجلي عن تفاوتٍ في مراتبها المعرفية، ومجرى الأحكام الشرعية التي تتحرى حدود أدلتها القطعية في معرفة الأولى من جهة القرائن، فقد يترك فريضة الطواف لقضاء حاجة رجلٍ دعاه، فيعترضه أحدهم: يا أبا محمد تركت الطواف وذهبت مع فلان إلى حاجته؟ فقال عليه السلام: وكيف لا أذهب معه ورسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من ذهب في قضاء حاجة أخيه المسلم فقضيت حاجته كتبت له حجة وعمرة، وإن لم تقضَ له كتبت له عمرة فقد اكتسبت حجة وعمرة ورجعت إلى طوافي)[٢].

بل أن أولوية الأفعال العبادية تتحقق بمدى قضاء حوائج الناس، وتبصرتهم إلى ما أشكل عليهم مبيناً مناهج الصلاح، واقفاً على ماهية الحقائق مفسراً ظاهرها بنور باطنها، وتأويلها بما يوافق معقولها، ويضيء مدلولها، فقد يشكل الأمر على يهودي ابصره وقد سار في حلةٍ فاخرة زادها جمالاً اشراقات وجهه تحف به حاشيته فقال: يابن رسول الله عندي سؤال؟

ـ ما هو؟ قال: ن جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الدنيا سجن المؤمن وجنة

---

(١) الفارابي في حدوده ورسومه. د. جعفر آل ياسين. دار ومكتبة البصائر. بيروت ط١ ٢٠١٢: ٣٩١.

(٢) تأريخ دمشق لابن عساكر: ١٤٩.

الكافر، فأنتَ المؤمن وأنا الكافر، وما الدنيا إلا جنة لك تتنعم فيها، وتستلذ بها وأنت مؤمن، وما أراها إلا سجناً قد أهلكني حرها وأجهدني فقرها؟ فكان جواب الإمام عليه السلام:

ـ لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر لعلمت أني قبل انتقالي إليها وأنا في هذه الحالة في سجن، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في دار الآخرة من سعير نار جهنم، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنك في جنةٍ واسعةٍ ونعمة جامعةٍ)[1]، وقد يشكل على الناس أمرٌ يجعلهم يتخبطون في إدراك حقيقته، وإبانة معقوله كما حصل في البصرة من جدل حاد حول مسألة الجبر، فرفعوا إليه عليه السلام حاجتهم، فجاء الرد نافذاً بمنطقه الحجاجي على بلاغة التقسيم، والمقابلة لتتضح الرؤية، وتنجلي الشبهة، وتستوعب المسألة من أعم جهاتها حتى لا يدع للمعاند ثغرةً ينفذ منها خاصةً وان المسلمون تباينوا في مسألة الجبر على أقوال عدة، فقال: (من لا يؤمن بالله وقضاؤه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، فالله لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى لغلبة، ولو أجبر الله الخلقَ على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة، ولكن فيهم المشيئة التي غيّبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له

(١) الفصول المهمة في معرفة الأئمة ـ ابن الصباغ. تح: سامي الغريري: ج٢/ ٦٨٢.

المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت الحجة عليهم)[١].

فالاسترسال بالعبارات المكثفة بلا إطالة، وتكرار بعض الأدوات اللغوية يضمن الترابط الدلالي، والمنطقي، ويخلق اتساقاً في تقسيم الأطوار التكليفية، والمنطقية، والمعرفية يمكن لوعي المعاند أن يلين لها فينكفئ في أذيال حجته، ولطالب الحقيقة أن يستضيء بنور بلاغتها في استظهار المعنى، وتوثيق صلة العبد بربِّه، وأن يتمثلها دليلاً عقلياً يأنس به من جهة القطع واليقين والرضا، فالتكرار الثنائي لـ(من) الموصولة على أساس التقاطع في الرؤية والفعل، وتكرار (لو) يفضي إلى قطع الحجة بالحجة.

وحتى لا ينقاد القلب لظلمة اللجاج، وفتنة الحجاج في حقيقة صدور الفعل من العبد أو من خالقه ﷻ أنار في موقفٍ آخر حقيقة (التقوى) بوصفها مشكاة الإيمان، إذ مهد لهم بياناً حقيقة الخلق والخالق والمخلوق حين يمهد الخالق لمخلوقه سبل المعرفة، فالتباين في الآجال والمعايش تحتاج إلى تدبر معرفي بأن الله هو المدبر، وإن الأفعال التي كلفكم بها هي الدليل إلى معرفته، وكلما وهن حبل الانشداد لهذه الأفعال خفت نور القلب من الاستضاءة بها، وعند تأملها نجدها تنسبك في وحدةٍ عضوية لا يمكن التفريط بواحدةٍ منها، وجرت في مسار تصاعدي يصل بصاحبها لذروة التوق العبادي، والتوهج المعرفي، والاطمئنان النفسي إذ قال: (اعلموا أن الله لم يخلقكم عبثاً، وليس

---

(١) جمهرة رسائل العرب. أحمد زكي صفوت:٢/ ٢٥.

بتاركم سدىً، كتب آجالكم وقسّم بينكم معائشكم، ليعرف كل ذي لبٍّ منزلته، وأن ما قدر له أصابه، وما صرف عنه فلن يصيبه قد كفاكم مؤونة الدنيا وفرغكم لعبادته وحثكم على الشكر، وافترض عليكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل حكمةٍ، وشرف كل عملٍ بالتقوى فاز من فاز من المتقين قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[1]، وقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أنه من يتقِ الله يجعل له مخرجا من الفتن ويسدده في أمره ويهيئ له رشده ويفلجه بحجته ويبيض وجهه ويعطه رغبته مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)[3]، حيث كانت التقوى خلاصة العبادة المعرفية لأنها منتهى رضاه، ومنتهى التدبر العرفاني لأن التقوى أعالي كل شيء فيه مرضاة الله، فبها يتحدد موقف العبد في اختيار منهجه العبادي، وسبل النفاذ إلى مرضاة الله.

وقد يقتضي نفي التشبيه عن الله ﷻ أن يكون الجواب متسقاً نافذاً من جهاته التي تنفي إمكانية الإحاطة به، إذ يروي: (أن رجلاً جاء إلى الحسن عليه السلام، فقال له: (يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله صفْ لي ربَّكَ حتى كأني أنظرُ إليه، فأطرق

---

(١) النبأ:٣٢.

(٢) الزمر:٦١.

(٣) بحار الأنوار ـ المجلسي:ج٧٥/ ١١٠ ــ تحف العقول. ابن شعبة البحراني:٢٣٢.

الإمام عليه السلام ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: (الحمدُ للهِ الذي لم يكن لـه أول معلـوم، ولا آخر متناهٍ، ولا قبل مُدرك، ولا بُعدُ محدود، ولا أمدُ بحتـى، ولا شـخُصَ فتجزئ، ولا اختلاف صفةٍ متناهي، فلا تدرك العقـول أوهامهـا، ولا الفكـر وخطراتها، ولا الألباب أذهانها صفته، فيقول متى، ولا بـدئ ممـا، ولا ظـاهر على ما، ولا باطنُ فيما، ولا تارك فهلّا، خلق الخلق فكان بديئاً ابتدع ما ابتدع، وابتـدع مـا ابتـدأ، وفعـل مـا أراد، وأراد مـا اسـتزاد، ذلكـم الله ربي ربِّ العالمين)[1]، فمن بلاغة البيان تنجلي الغبرة عـن سـفه العقـول، والألبـاب في إدراك صفته، لأن الصفة موكولة بالحدود، وموصولة بالتجزئ.

وعند تأمل الأجوبة القصار للأسئلة التي وجههـا الإمـام عـلي عليه السلام لولـده الحسن عليه السلام[2] نجدها إشراقات بيانية تضيء روح العقل وعقـل القلـب حتـى

---

(١) التوحيد ـ الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: ٤٦.

(٢) وجه الامام علي عليه السلام الى الحسن اسئلة تتعلق بأصول الأخلاق والفضائل، فأجابه الحسـن عليه السلام بـما هو عفو البداهة والخاطر فكان الجواب آية من آيات البلاغة والإعجاز:

الإمام علي: يا بني ما السداد ؟ الحسن: يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف.

ـ ما الشرف ؟ ـ اصطناع العشيرة وحمل الجريرة.

ـ ما المروءة ؟ ـ العفاف واصلاح المرء ماله.

ـ ما الدنيئة ؟ ـ النظر في اليسير ومنع الحقير.

ـ ما اللوم ؟ ـ احتراز المرء نفسه وبذله عرسه.

ـ ما السماحة ؟ ـ البذل في العسر واليسر.

ـ ما الشح ؟ ـ أن ترى ما في يديك شرفا وما أنفقته تلفا.

ـ ما الأخاء ؟ ـ الوفاء في الشدة والرخاء.

يشعر السامع أن للموعظة فلسفة لا يعيها إلا من همَّ بإصلاح نفسه

---

ـ ما الجبن ؟ ـ الجرأة على الصديق والنكول عن العدو.
ـ ما الغنيمة ؟ ـ الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا.
ـ ما الحلم ؟ ـ كظم الغيظ وملك النفس.
ـ ما الغنى ؟ ـ رضى النفس بما قسم الله وإن قل فانما الغنى غنى النفس.
ـ ما الفقر ؟ ـ شره النفس في كل شيء.
ـ ما المنعة ؟ .شدة البأس ومقارعة أشد الناس.
ـ ما الذل ؟ ـ الفزع عند المصدوقية؟
ـ ما الجرأة ؟ ـ موافقة الأقران.
ـ ما الكلفة ؟ ـ كلامك فيما لا يعنيك.
ـ ما المجد ؟ ـ أن تعطى في الغرم وأن تعفو عن الجرم.
ـ ما العقل ؟ ـ حفظ القلب كل ما استرعيته.[1]
ـ ما الحزق ؟ ـ معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك.
ـ ما الثناء ؟ ـ اتيان الجميل وترك القبيح.
ـ ما الحزم ؟ ـ طول الأناة [2] والرفق بالولاة والاحتراس من الناس بسوء الظن

---

(١) وفى رواية أبي نعيم في الحلية ٢ / ٣٦ حفظ القلب كل ما استوعيته، وفى رواية أخرى حفظ القلب لكل ما استتر فيه.

ما الأناة ؟ الوقار والحلم والانتظار.

هو الحزم.

ـ ما الشرف ؟ ـ موافقة الاخوان.
ـ ما السفه ؟ ـ اتباع الدناة ومصاحبة الغواة.
ـ ما الغفلة ؟ ـ تركك المسجد وطاعتك المفسد.
ـ ما الحرمان؟ ـ تركك حظك وقد عرض عليك.
ـ ما السيد ؟ ؟ ـ الأحمق في ماله المتهاون في...، يشتم فلا يجيب، المتحزن[1] بأمر العشيرة هو السيد[2].؟

وترويضها على منهجٍ عبادي يضمن لها الوصول، ومجانبة العدول، والتأسي بآل الرسول (صلوات الله عليهم)، فمن مجموعها واتصالها ببعضها يمكن أن نتشرّبها حقائق عرفانية، ونفحات وجدانية تسهم في إضاءة قلب المؤمن، وتصحيح مساراته، وفهم مضامينها، فإذا كان السداد هو دفع المنكر بالمعروف فإنه منتهى الشرف الذي يجعل من المرء قادراً على اصطناع العشيرة وحمل الجريرة وأن يكون من أهل المروءة الذي يسمو بهم نور العفاف، وتعلو بهم السماحة أي البذل في العسر واليس، وروح الوفاء للأخوة في الشدة والرخاء.

فالإمام يتمثل الفضائل متصلة في مسار تكاملها، والرذائل متصلة في مسار انحدار صاحبها إذ كل واحدة تركسه شيئاً فشيئاً في ظلماتها النفسية بما تجعل منه تابعاً لها تقوده إلى (الخرق) الذي من مظاهره (معاداة إمامك، ورفعك عليه كلامك) لا على أساس الحجة بل هو من باب السفه، و مسايرة الغفلة التي تقحمه في أودية الحرمان بترك حظه من الاستنارة بعلومه، وطاعته، ونصرته، لأن المسار العبادي للمرء يقتضي أن يعرف بأيِّ ساريةٍ يعتصم، وبأيِّ إمامٍ يقتدي حتى تجري به الأحكام والفضائل التي يتشرّبها من منهله الروي إلى منافعها الدنيوية والأخروية، فكم ساريةٍ ألقت براكبيها في لجج الغواية، وكم مدعٍ للإمامة التبس عليه الباطل بالحق فأردى مريديه في مهوى الضلالة، لذا أراد الإمام الحسن عليه السلام من الناس الاعتقاد المحض بولاية آل محمد صلوات الله عليهم قائلاً: (ولولا محمد صلى الله عليه وآله وأوصياؤه كنتم حيارى لا

تعرفون فرضا من الفرائض، وهل تدخلون داراً إلا من بابها)، والذين ولجوا من باب هدايتهم، وساروا على نهجهم، وذابوا في مودتهم، وتحملوا الشدائد جراء ذلك فهم صلوات الله عليهم محل نور رحمته منها خلقوا، فأفاضوها على محبيهم كما ورد على لسان الحسن عليه السلام: (سمعتُ جدي صلى الله عليه وآله يقول: (خُلقتُ أنا من نور الله وخلق أهل بيتي من نوري، وخُلِق محبوهم من نورهم وسائر الناس من الناس)[1].

وكان عليه السلام يحثُّ على مكارم الأخلاق، ويتمثلها بسيرته نسقاً قرآنيا ويرى أن ثمراتها المحتوى الحقيقي للعبادة، وجعلها في ضوء التقسيم العددي (عشرة) وكل واحدة تسمو بافاضاتها على أخواتها بما جعل من خُلق (الحياء) من الله رأسهن، أي الموجه الشعوري، والنهر الذي يغذي بقية الصفات ويمتزج فيها حتى تصير الذات مرآةً لتلك الصفات (قال جابر: سمعت الحسن عليه السلام يقول: مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذمم على الجار ومعرفة الحق للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء)، وقد يأتي طلب المشورة من أعدائه لفهم الحقائق، والفضائل وتأويل محتواها بما تسعه علمية الإمامة، فقد ورد: أن معاوية التفت يوماً إلى الحسن عليه السلام فقال له: يا أبا محمد ثلاث خصال لم أجد من يجيبني عنها؟ قال عليه السلام: ماهي؟ قال: المروءة، الكرم، النجدة) حينها

(١) حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام. باقر شريف القرشي: ١/ ٣٦٥ نقلاً عن ينابيع المودة: ٣/ ١٥١.

لابد أن يتسع تأويلها ليعي معاوية أن مصاديقها لا تنطبق عليه، بل هو بعيد عنها لا يجري على منهاجها، ولا يستضيء بسراجها، فقال: أما (المروءة) فاصلاح الرجل أمر دينه، وحسن قيامه على ماله، وإفشاء السلام، والتحبب إلى الناس، أما (الكرم) فالعطية قبل السؤال، والتبرع بالمعروف والإطعام في المَحلِ (أي أيام الشدة والعوز)، و (النجدة) فهي الذب عن الجار، والمحامات في الكريهة، والصبر عند الشدائد).

وقد يرد السؤال على وجه المقارنة بين شيئين منطوياً في ذاته على غاية دلالية لتكثيف البون الشاسع بينهما، والنفاذ إلى التفريق بينهما من جهةٍ واحدةٍ تقوم على الضد في رسم ماهية الشخصية وأفعالها العبادية من خلال الصفة التي تجلى بها، كما ورد أنه: (جاء إليه شخص فقال: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله من أحسن الناس؟

ـ من أشرك الناس في عيشه.

ـ من أشر الناس؟

ـ من لا يعيش في عيشه أحد.

فالإنسان مقرون بخصاله، فبها تكون نجاته، وبها هلاكه، لذا تحدّث الإمام عليه السلام في موضع أخر عن شر الخصال التي بها هلاك الناس والكشف عن مضمون كل خصلة مقرونةً بشاهدٍ قرآني يحاكي توصيفها، والجزاء الذي ناله من تمثلها وعَمِلَ بها كي تعلو بمراتبها الوعظية والاعتبارية والبلاغية لدى

السامع فقال عليه السلام: (هلاك الناس في ثلاث ـ الكبر، الحرص، الحسد:

(الكبر): به هلاك الدين، وبه لُعِن إبليس.

(الحرص):عدو النفس وبه أُخرج أدم من الجنة.

(الحسد): رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل)[1].

فتشخيص هذه الخصال الثلاث بهذا التوصيف الاستعاري يفتح أفق التبصر بتقريبها من باطنها الذهني إلى ظاهرها الحسي حتى يستوعبها طالب الحقيقة ثمرةً معرفيةً، ومحاولةً لتهذيب النفس من أثارها.

وكلمات الإمام عليه السلام قامت على أنساقٍ من المواعظ الأخلاقية تنبلج عن مكنونها بيسر، وتنفذ نوراً شفيفاً إلى نفس سامعها، بما يقربها من الخصال التي بها تعلو، وينفّرها مما بها تنحدر في ظلمات الغفلة، والغواية، فهو ينفّر عليه السلام من صفة البخل إذ عده: (جامعاً للمساوئ والعيوب، وقاطعاً للمودات من القلوب)، وفي موقفٍ أخر سُئِل عن البخل فقال: (هو أن يرى الرجل ما أنفقه تلفاً وما أمسكه شرفاً)، فالبخل ينافي الشأن العبادي الذي افترضه الله على عباده، بحيث يوهم المرء بصحة معتقده، وصواب رأيه، وفي جانب هذا يفسر لنا معنى (الجواد) بعدما سُئل، فقال عليه السلام: إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض عليه، والبخيل الذي يبخل بما افترض عليه، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد أن

---

(١) نور الأبصار. المازندراني:١١٠.

منع لأنه إن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له، وإن منع منع ما ليس له)[١].

وهذا التوسع في إضاءة المعنى بأقل الألفاظ يتغشى بفنون بديعية تقوم أغلبها على بلاغة التوازي، وتكرار النداء في جملٍ متوافقة في نسيجها التركيبي، والدلالي بما يفسح آفاق التلقي لدى السامع، والعبور به من مقامٍ لأخر عن طريق الأفعال وهي تنفتح على مضمونها الأخلاقي، والعبادي، فهو حين يخاطب الناس عامة بـعبارة (يا بن آدم) لتعِ أن التكاليف العبادية التي فرضها الله ﷻ عليهم قائمة مذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، وإن شرائط قبول الأعمال وتحقق الكينونة مقرون باتباع الأوامر الإلهية المتصلة بتلك الأفعال: (يا بن آدم عفَّ عن محارم الله تكن عابداً، وارضَ بما قسم الله تكن غنياً، واحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً، إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيرا ويبنون مشيدا ويأملون بعيدا أصبح جمعهم بورا وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً، يا ابن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك فجد بما في يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع وكان يتلو عقيب كلامه هذا قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٢]، وهذا التعقيب هو توثيق للخلاصة المعرفية التي أراد من المخاطبين استيعابها، والعمل بها وهي (إن المؤمن يتزود والكافر يتمتع) تأويلاً لمضمون الآية القرآنية في تمثل صفات المتقين، وهذا

---

(١) الإمام الحسن المجتبى ـ سلسلة أعلام الهداية: ٢٠٢.

(٢) نور الأبصار. المازندراني: ١١٠.

يحاكي من جهة الأسلوب، والمضمون ما رواه عليه السلام عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله: (يا مسلم! اضمن لي ثلاثاً أضمن لك الجنة: ان أنت عملت بما افترض عليك في القرآن فأنتَ أعبد الناس، وإن قنعت بما رُزِقت فأنتَ أغنى الناس، وإن اجتنبت ما حرّم الله فأنتَ أورع الناس)[1]، لذا كان عليه السلام يتخذ من إضاءة مفهوم تقوى الله الفائض الدلالي الذي يوجه وعي المتلقي إلى علة خلقه، والغاية التي من أجلها أصبح خليفة الله في أرضه، والمسارات التي بها يكون مسدداً، وراشداً، ومفلحاً في دنياه وآخرته، فهو عليه السلام يقول: (إن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتاركك سدىً، كتب آجالكم، وقسّم بينكم معايشكم ليعرف كل ذي منزلةٍ منزلته، وإن ما قدر له أصابه وما صرف عنه فلن يصيبه قد كفاكم مئونة الدنيا، وفرغكم لعبادته، وحثكم على الشكر، وافترض عليكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل حكمةٍ، وشرف كل عملٍ، بالتقوى فاز من فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فاتقوا عباد الله واعلموا أن من يتقِ اللهَ يجعل له مخرجاً من الفتن، ويسدده في أمره ويهيأ له رشده، ويفلحه بحجته، ويبيّض وجهه، ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئكَ رفيقا)[2].

---

(١) الإمام الحسن المجتبى ـ سلسلة أعلام الهداية: ١٩٧.

(٢) تحف العقول ـ الحسن بن علي بن شعبة البحراني: ٥٥.

# الفصل الخامس

# بلاغة الشهادة

قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام في أشد لحظات احتضاره ألماً، وكبده يتقطع دماً:

(أخرجوني إلى صحن الدار أنظرُ في ملكوت السماء).

**ماهية الشهادة**

ما إن تعرج بنا تداعيات السيرة الحسنية إلى تقصي الأثر البلاغي الذي تنطوي عليه النهايات التراجيدية لحياة العظماء من آلِّ محمدٍ (صلوات الله عليهم)، وهم يتقبلونها بالرضا والتسليم التاميّن، صاعدين معراج الشهادة متلمسين آثارها في تشكيل الفعل الاستبصاري للأمة، صعوداً بهذا الفعل إلى تعرية الوعي المعرفي من القناعات الناقصة، أوالمبتورة، أو المسورة بالشبهات، وإعادة قراءة التاريخ الرسالي للسيرة، وتجريده من آثار تلك القناعات المُضِلّة، حتى يكون المغزى الكامن في ضوء التصريح النبوي، وهو يختزل في إشاراته الدلالية فضاءً من التساؤلات المرتدة لا إرادياً إلى هاجس البدايات، وهي تتكشّف في سياقاته العرفانية عن معرفةٍ غيبية مسبقة نحتاج إليها في تقييم المسار الارتقائي لتلك الحياة، فالإمام الحسن عليه السلام حين رقى المنبر بعد استشهاد أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: (..ولقد حدثني حبيبي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله إن الأمر

يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته، وصفوته، ما منا إلّا مقتول أو مسموم)[١]، مؤكداً حقيقة ما صرّح به النبيﷺ بتوثيق مضامينه الرسالية في وعي الأمة، إذ لم تكن الغاية من سرد الحديث تأجيجاً عاطفياً لمشاعر المسلمين، بقدر ما هي توثيقُ لمرتبةٍ إلهيةٍ تنطوي على مضمون الشهادة الخالصة لله تعالى، وعظمة المواجهة، ومنهج الجهاد في سبيل الله، واستشعار التقوى في ضوء السنن الإلهية، فكانوا مصداق قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢]، فكان الجهاد (باباً فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى....)[٣].

والحقيقة التي لا يمكن تحريفها إن موجهات الحكم الأموي قائمة على تضليل وعي الأمة، وصرفها عن موارد تبصّرها، ومحاولة طمس البعد المعرفي لضمير المتكلمين (نا) في الروايات التي تؤكد حقيقة الشهادة[٤] بوصفه ضميرا جمعياً ينفذ إلى تأصيل الترابط المصيري، والانتماء العقائدي بين النبيﷺ، وأهل بيتهعليهم السلام، الذي يشكل وشيجة دلالية، تضيء حقيقة

---

(١) كفاية الأثر ـ القمي: ١٦٢.

(٢) الحج: ٧٧/ ٨٧.

(٣) نهج البلاغة ١/ ٧٤.

(٤) قال الصادقعليه السلام: (والله ما منّا إلا مقتول شهيد) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٥١، وقال الرضا: (ما منا إلا مقتول) عيون أخبار الرضاعليه السلام للشيخ الصدوق: ٢/ ٢٠٣.

التفويض الإلهي للذرية الطاهرة في تولي منصب الإمامة بوصفها اصطفاءً إلهياً يعلو بصاحبها إلى تحمل أعباء الأمانة الملقاة على عاتقه، والرضا بها، وتكشف عن استعداد النفس المسبق لمواجهة التحديات، والأزمات، واحتمال الأذى، والقمع، والتشريد، بحيث إن سيرة أي إمام معصوم عليهم السلام تتوخى في أدوارها الحياتية الأثر العبادي لمعنى الشهادة المؤجل من تأويل أفعال الإمام عليه السلام وصدورها عن ماهية الكمال المعرفي، وانفتاحه على بلاغة الرضا بأمر الله تعالى، والانقياد له، وكأن المجرى البياني لمسيرة الحياة تختزل روافدها، وشواهدها في المغزى الدلالي لذلك الأثر كنتيجة حتمية تفرضها الأدوار الرسالية للأئمة في صراعهم مع الباطل، حتى ينبجس فعل الشهادة عن التجلي الأمثل، والأكمل لكينونة الاصطفاء في توجيه وعي الأمة إلى تمثل وتدبّر البعد المعرفي، والشعوري لهذا الاصطفاء، وانقيادها لمنهج العترة العقائدي، ومحاكاة أفعالهم، وتقصي آثارهم، والتعبّد بولايتهم على نية الشهادة، فـ (من مات على حبِّ آل محمدٍ مات شهيداً)[1].

## المخطط الأموي للقضاء على الإمام الحسن عليه السلام

تبنت العقلية السياسية لمعاوية أيدلوجية المكر، والنفاق، والمناورة، والتسلط القهري، والانحراف البراغماتي بالسلطة، مداراً تنكفئ فيه خارج

(١) حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله تفسير الكشاف: ٣/ ٣٠٣، وتفسير الفخر الرازي: ٧/ ٤٠٥.

موجهات العقيدة الإسلامية، وتنفذ إليها في الوقت نفسه لتضربها من العمق، لأنها في ضوء تلك الموجهات سلطة غاشمة، ضالة، تفرض على الأمة وجوب الخروج عليها.

لذا كان جُلُّ تفكير معاوية هو كيفية اطفاء الهالة المعرفية التي تضيء فاعلية هذه الموجهات في ضمير الأمة، وهم آل محمدﷺ يتقدمهم الإمام الحسنعليه السلام، فهو ما إن استوثق من معاهدة الصلح مع الإمام الحسنعليه السلام، وظنَّ الأمور قد صلُحت له، نزا على منبر رسول اللهﷺ إمام ضلالةٍ، وداعية فتنةٍ وصارت الخلافة تحت يديه ملكاً هرقلياً، يدير دفتها كيفما يشاء، ومتى شاء، لم تركد رغوة النفاق في نفسه، ولم تخفت نار ضغائنه على العترة المحمدية، بل استفحلت نعرته الجاهلية، والطائفية، حتى انتقلت آثارها ورماً خبيثاً في جسد الأمة ينهشها من الداخل، وهذه الضغائن قد يخفيها جاهداً تحت برقع الدهاء والمداهنة، والإيمان المزيف، ولكنه ينشرها صلعاء، شوهاء أمام الملأ مراتٍ عديدةً لا مبالٍ بنتائجها، بل جعلها سنّةً مقيتة يتوارثها بني أمية في رسم معالم سياستهم المعادية للإسلام، مستخفاً بكل ما يضمن للأمة صلاحها، وقاده تجبّره إلى أن وطئ المضامين التي وثّقتها معاهدة الصلح بقدميه.

وكان يغذي هذه الضغائن خوفه المستديم من ميل الناس لأهل البيتعليهم السلام، وبالتالي خوفه من فقدان السلطة، خاصةً، وإن زبانيته سبروا هذا الخوف في نفسه، فراحوا يحرضونه على الترويع، والفتك بهم، وتشتيت الموالين لهم،

وتجويعهم، وصلبهم، وسلبهم، حتى تضعف شوكتهم، ويتداعى جمعهم، وكانوا له سيوفاً، وعيونا، وعقلاً بها يبطش، ويرى، ويفكر، ولما عرفوا ميله ليزيد، صقلوا له فكرة توريثه في مهزلةٍ رثّةٍ أقرب إلى الكوميديا السوداء، بحجة ألا تكون الأمة بلا راعٍ، فيتآكلها الوهن، ويفتك بها الأعداء، وكان معاوية يعي من أين تؤكل الكتف، وكيف ينفذ مغرزه في الخفاء، فكان كلما هدأت سريرته، واستغرق في سكرة الملك تمثل له الإمام الحسن بن علي عليه السلام طوداً شامخاً من المروءة، والتقوى تهوى إليه نفوس المستضعفين، وأصحاب الطوية الخالصة لله، ومشرطاً حاداً تعلو به رغبة المحق لذلك الورم الواغل في جسد الأمة، بينما يزيد ربيب الكفر، واللهو، فما عساه يفعل؟، وقد دبت في أطرافه نوازع الوهن، ولاحت بوادر الرحيل، فنظر إلى الأنفس من حوله فوجدها أعناقاً تلويها الأطماع، ويشحذ فيها نزغ الشيطان حب الدنيا، وأخيراً وجد ضالته في مروان بن الحكم الذي يضمر حقداً أسوداً لآل محمد صلوات الله عليهم لا يقدر على كبح جماحه، بل أصبح موجهاً شيطانياً لإيذاء العترة المحمدية، لذا دعاه معاوية إلى إقناع جعدة بنت الأشعث (سليلة ذلك البيت المشؤوم)[1] أن تسقي الحسن عليه السلام شربة عسلٍ ديفت بسمٍّ استجلبه من ملك الروم[2]، فإذا أنجزت

(١) فأبوها كما يقول الإمام الصادق عليه السلام شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وابنه محمد شرك في دم الحسين عليه السلام ـ أعيان الشيعة: ٤/ ٧٨.

(٢) ينظر: بحار الأنوار: ١/ ١٧٣.

المهمة زوّجها يزيد، وأعطاها مئة ألف درهم[١] وضياعاً من سواد الكوفة[٢].

وامتدت اليد الآثمة لجعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، وقد عميت بصيرتها، فلم تستضئ بنور القرب من إمام زمانها، ولم تتطهر بنور معاشرته، وتاه لبّها بسراب الأماني، واشرأب بعنقها الشيطان، فسقته ذاك السم بإغواء معاوية (في برادة من الذهب في السويق المقند، فلما استحكم فيه السم قاء كبده)[٣]، وقيل سقته في يومٍ حار، وكان صائماً لبناً مسموماً، فلمّا أحس بحرارة السمِّ قال: (يا عدوة الله قتلتيني قتلك الله، والله لا تصيبين مني خلفاً، ولقد غرّك، وسخر منك، والله يخزيه ويخزيك)[٤]، فكان كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما أخبر الإمام عليه السلام أهل بيته: (إني أموت بالسم كما مات جدي رسول الله صلى الله عليه وآله).

فقيل: ومن يفعل ذلك؟.

قال: امرأتي جعدة بنت الأشعث بن قيس.

قالوا: أخرجها من منزلك، وباعدها من نفسك.

قال: كيف أخرجها، ولم تفعل شيئاً، ولو أخرجتها ما قتلني غيرها، وكان لها عذر عند الناس. فبلاغة التأويل تقتضي أن الحكم بعد الجرم، والقصاص قبل حصول الفعل ظلم.

---

(١) ينظر: مروج الذهب:٢/ ٣٥٣.

(٢) ينظر: تحف العقول:٣٩١.

(٣) دلائل الإمامة للطبري: ١

(٤) [ الخرائج والجرائح: ١ / ٢٤١ـ ٢٤٢.

وظل الإمام يعاني أربعين يوماً، أو أكثر، ودمه يتنخع، وأصحابه من حوله يتألمون، ويعلو بهم إحساس القصور في الاستجابة لدعوته، فقالوا: (ألا تتداوى يا بن رسول الله، فقال: (لقد سقاني معاوية السم مرتين، وهذه الثالثة لا أجد لها دواء، ولقد رقي إليَّ أنّه كتب إلى ملك الروم يسأله أن يوجه إليه من السم القتّال شُربةً، فكتب إليه ملك الروم: إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا، فكتب إليه معاوية: إن هذا ابن الرجل الذي خرج بأرض تهامة قد خرج يطلب ملك أبيه، وأنا أريد أن أدس من يسقيه ذلك، فأريح العباد والبلاد منه، ووجه معاوية إليه بهدايا، وألطاف، فوجه إليه ملك الروم بهذه الشربة...)[1]، فانسل بها إلى أفعى المغيرة، فتماهى لها بلسان شياطينه، فقال: ألا أدلكِ على ملك لا يبلى، وجاهٍ لا يُعلى، حين يكون يزيد زوجك بعد الحسن عليه السلام، وبلاط الملوك موضع دارك، و نفائس الدنيا تجري بين يديك، فتلبّسها الشيطان، وجرى القضاء على يديها الآثمتين، فقال الإمام عليه السلام: (لقد حاقت شربته، وبلغ أمنيته، والله ما وفى بما وعد، ولا صدق فيما قال) من حيث شروط معاهدة الصلح، ولا بوعوده لجعدة، ويقال إنها حين التحقت بأبيها في الشام، طالبت معاوية بما وعدها، فتبسّم ساخراً، وسألها عن صفات الحسن عليه السلام، فإذا هي عكس صفات يزيد، فقال لها: (إذا كنتِ قتلت الحسن، وهو جامع لهذه الصفات الحسنة)[2] فكيف

(١) بحار الأنوار ـ المجلسي: ١/ ١٧٣.

(٢) معالي السبطين: ١ / ٤٧ نقلاً عن ابن مخنف.

بيزيد، وهو لا يملك منها خردلة، فتركها نهباً للندم، والألم، إذ تلاشى حلم الاقتران الملكي، ويقال وفى لها بالمال.

ودخل الحسين عليه السلام فرآه يجود بروحه، فقال: كيف تجدك يا أخي؟

قال عليه السلام :ـ (أجدني في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، واعلم أني لا أسبق أجلي، وأني وارد على أبي، وجدي صلى الله عليه وآله على كرهٍ مني لفراقك، وفراق أخوتك، وفراق الأحبة، واستغفر الله من مقالتي هذه، وأتوب إليه، بل على محبة مني للقاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، وأمي فاطمة عليها السلام، وحمزة وجعفر عليهما السلام، وفي الله خلف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودرك من كل ما فات، رأيت يا أخي كبدي في الطشت، ولقد عرفت من دها بي، ومن أين أُقتيت، فما أنت صانع يا أخي؟

فقال الحسين عليه السلام: أقتله والله.

قال: فلا أخبرك به أبداً حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن أكتب يا أخي: (هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين بن علي: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له في الملك، ولا ولي له من الذل، وأنه خلق كل شيءٍ فقدره تقديرا، وأنه أولى من عُبِد، وأحقَّ من حُمد، من أطاعه رشد، ومن عصاه غوى، ومن تاب إليه اهتدى.

فإني أوصيك يا حسين بما خلفت من أهلي، وولدي، وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم، وتقبل من محسنهم، ويكون لهم خلفاً، ووالداً، وأن تدفني مع

رسول الله صلى الله عليه وآله، فإني أحقُّ بهِ وببيته ممن أدخل بيته بغير إذنه، ولا كتاب جاءهم من بعده، قال الله فيما انزل على نبيه صلى الله عليه وآله في كتابه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ﴾، فوالله ما أُذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير إذنه، ولا جاءهم الإذن في ذلك بعد وفاته، ونحن مأذون لنا في التصرف فيما ورثناه من بعده، فإن أبت عليك الامرأة فأنشدك الله بالقرابة التي قرب الله عز وجل منك، والرحم الماسّة من رسول الله صلى الله عليه وآله أن تريق فيَّ محجمة من دم حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وآله، فنختصم إليه، ونخبره بما كان من الناس إلينا بعده ثم قبض)[1].

فبكى الحسين عليه السلام حتى اخضلت لحيته، فقال له الحسن عليه السلام: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟

قال عليه السلام: أبكي لما صنع بك.

وكأن الإمام الحسن عليه السلام استحضر ما يجري على أخيه من الأهوال الجسام في كربلاء، ليسليه عما يرى، ويريه حقيقة الأمة التي تاجرت بدينها، يغويها أبناء الطلقاء للفتك بهِ، وبحرمه، فقال عليه السلام: (إن الذي أوتي إليَّ سم أُقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً، يدعون أنهم من أمة جدنا محمد صلى الله عليه وآله، وينتحلون دين الإسلام، فيجمعون على قتلك، وسفك دمك، وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك، ونساءك، وانتهاب ثقلك)[2].

---

(١) المناقب: ج٤ / ٤٤ ـ بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٤٤ / ١٥١ ـ ١٤٥ ـ ١٥٦.

(٢) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج١٠/ ١٢٣.

ولما قيل له بأن أخته زينب تريد الدخول عليه، وهو يتقيأ كبده، أمر برفع الطشت اشفاقاً عليها، فأيّ عاطفةٍ ساميةٍ تنطق بها سريرتك، وتنجلي عن ألطاف بصيرتك وتنشرها نور محبةً على ذويك ومريديك تطهرهم حزناً عليك.

وها هي المدينة التي تنوّرت بنور محمدٍ وآله (صلوات الله عليهم) ينكفئُ نورها يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر، سنة خمسين من الهجرة، أو تسع وأربعين، وكأن ما رواه الجويني بإسناده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ يشخص أمام الأبصار، وكأن العيون التي حزنت عليه، والقلوب التي تصدعت لفقده في الدنيا، وكان سرورها النظر إلى وجهه الكريم، حيث تغدق شمائل رسول الله ﷺ المشعة فيه عن نور يجلي بصر العيون، وبصيرة القلوب، فتأنسان إليه، وتغتسلان بهالته، وتخفق فراشات الأرواح على مشكاة مهابته ملبيةً، وتهفو إليه كما شفُّ ماءٍ لظاميء، وهو كما يسرُّها في الدنيا، يسرّها في الآخرة، فتتغير لمحبته طبيعة الأشياء، فإذا هي مبصرةٌ في العمى، وفرحةٌ في الحزن الشديد، ومن تجشّم عناء الطريق إليه في الدنيا ثبت على حد الصراط في الآخرة: (... وإني إذا نظرت إليه تذكرتُ ما يجري عليه من الذلِّ بعدي، ولا يزال الأمر به حتى يقتل بالسم ظلماً وعدواناً، فعند ذلك تبكي الملائكة، والسبع الشداد لموته.. فمن بكاه لم تَعمَ عينه يوم تعمى العيون، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب، ومن زاره في

بقعته ثبتت قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام)[١].

وجرى تغسيل الإمام عليه السلام، وتكفينه، وتحنيطه على يد الإمام الحسين عليه السلام، ثم حمل الجسد الطاهر على أطراف الأصابع، وزفرات القلوب، وتكبير المعزين، فلما تداعى النبأ إلى أرجاء يثرب، تداعت كالسيل المنكوب، يترامى من بعيد هدير البكاء، وأنين الثكالى، وآنات الأيتام، وتزاحموا حول جثمانه مذهولين، تكاد تزهق أرواحهم من الجزع، حتى وصف ثعلبة بن مالك زحام المشيعين، بحيث (لو طرحت فيه أبرة لما وقعت إلا على رأس إنسان)[٢].

ولم يخالط الناس شك بأنه سيدفن بجوار جده المصطفى صلى الله عليه وآله حيث تأنس الروح، ويستريح الجسد، ولكن سهام الحقد الأموية ظلت موتورة بأقواسها، فلما سمعت بانحدار المشيعين صوب القبر الشريف، نعق شيطانهم بجمعهم كالموتور: (يا رب هيجاء هي خير من دعة، أيدفن عثمان بأقصى المدينة، ويدفن الحسن عند جده!؟)[٣]، ثم مالوا صوب عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله، لمنع دفنه عند جده صلى الله عليه وآله، فأركبوها بغلةً، وأقبلت صوب المشيعين، وهي تصيح: (لا تدخلوا بيتي من لا أحب، إن دُفِنَ الحسن في بيتي لتجزَّ هذه ـ وأومأت إلى ناصيتها)[٤]، وكأنها لم تسمع أقوال الرسول صلى الله عليه وآله في فلذة كبده، وخاطبها ابن

(١) فرائد السمطين ـ إبراهيم بن محمد بن حموي الجويني: ٢ / ٣٥ـ ٣٦ ح ٣٧١.
(٢) جواهر التاريخ ـ الشيخ علي الكوراني العاملي: ج٣/ ٢٦١.
(٣) الإرشاد ـ الشيخ المفيد: ج٢/ ١٨.
(٤) تذكرة الخواص. ابن الجوزي: ٢٢٣/ مقاتل الطالبيين: ٥٢.

أخيها القاسم بن محمد، مؤنباً، مذكّراً: (يا عمة ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر، أتريدين أن يقال يوم البغلة الشهباء)[١]، وحتى تقطع دابر الحِجاج، خاطبت الحسين عليه السلام: (نحّوا ابنكم واذهبوا به فإنكم قوم خصمون)[٢]، وتألم الناس لهذا العداء الراسخ لعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لاحق الحسن عليه السلام حياً، وميتاً، وفسح المجال لبني أمية أن تؤول حقدها، وأن تتنمر، وتنتفخ أوداجها، وتستعرض عداءها لابسةً لامّة الحرب، محتجة بهذا المنع إن عثمان دفن في...، فصاح مروان: لا كان هذا أبداً.

فقال له الحسين عليه السلام: (يا بن الزرقاء مالك ولهذا أو أولى أنتَ به؟!).

واشتد الموقف، حتى كانت المراماة بالنبل، حينها نهض ابن عباس، وخاطب مروان: (أرجع يا مروان من حيث جئت، فإنا لا نريد دفن صاحبنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن نريد أن نجدد به عهداً، ثم ندفنه عند جدته فاطمة بنت أسد عملاً بوصيته، ولو أوصانا بدفنه عند جده لعلمت من هو اقصر باعا).

ويقال إن أبا هريرة احتج عليهم، فقال: (أرأيتم لو مات ابن لموسى بن عمران أما كان يدفن مع أبيه، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)، فجأر به مروان منكراً: لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله[٣].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٠.
(٢) الكافي: ١/ ٣٥١.
(٣) أعيان الشيعة: ٤/ ٨١.

نعم، لقد طمرتم سنة رسول الله صلى الله عليه وآله بتراب أحقادكم، ومداد الوضع، وأضعتم ما يرأب الجمع، وظلت ثاراتكم الجاهلية تستوقد صدوركم غيضاً، وتدلق ألسنتكم بغضاً.

فلما خشي الحسين عليه السلام أن تفلت الأمور من السيطرة، ويحدث ما لا يُحمد عقباه، خاطب بني هاشم: (الله الله يا بني هاشم لا تضيعوا وصية أخي، واعدلوا به إلى البقيع، فإنه أقسم عليَّ إن أنا منعت من دفنه مع جده أن لا أُخاصم فيه أحداً، وأن أدفنه في البقيع مع أمه).

والتفت صوب الأمويين قائلاً: (والله لولا عهد الحسن إليَّ أن لا أهريق في أمره محجمة من دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد الذي بيننا، وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا).

وبعد انتهاء مراسيم الدفن، وقف الحسين عليه السلام مفجوعاً، مهدوداً، وقد وارى هالة الحق في حفرته، ولكن نورها العالق في خلجات روحه، وذاكرته، أرخى بيان التجلي لصورته أن تنفتح على أبهى معالمها الإنسانية، وكأن بلاغة الإمام يستنبطها الإمام الحسين عليه السلام من سيرة أخيه الحسن عليه السلام ناشراً جوهرها الرباني في هذه الكلمات التي تخشع لها النفس، وتصغى إلى مضمونها وهي تجرده من شوائب النقص، وتلهمها شوقاً إلى الكمال، فقال عليه السلام:

(رحمكَ اللهُ أبا محمد، إن كنت لتناصر الحق مظانة، وتؤثر الله عند التداحض في مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعينٍ

لها حاقرة، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف، نقية الأسرة، وتردعُ بادرةً غرت أعدائك بأيسر المؤونة عليك، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان، وجنة نعيم أعظم الله لنا ولكم الأجر، ووهب لنا ولكم حسن الأسى عليه)[١].

أما أخوه محمد بن الحنفية فقد سالت روحه من الأسى، وبلت دموعه تراب قبره، فاسترجع عظمة تلك الروح التي خلدت إلى مستقرها بعد عناءٍ طويل، وهي تضفي على الأشياء التي تحلها نور عظمتها، وعلى الأشياء التي تجاورها نور محبتها، معللاً ذلك بأصولها الهاشمية، والحواضن الأسرية التي غذته، وأرضعته ثدي إيمانها، فقال: (رحمك الله أبا محمد، فو الله لئن عزت حياتك، لقد هدت وفاتك، ولنعم الروح روحُ عمّرَ بدنك، ونعم البدن بدنُ تضمنه كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك، وكيف لا تكون كذلك، وأنت سليل الهدى، وحليف أهل التقى، وخامس أصحاب الكسا، وجدك المصطفى، وأبوك المرتضى، وأمك فاطمة الزهراء، وعمك جعفر الطيار في جنة المأوى، غذتك أكف الحق، وربيت في حجر الإسلام، وأرضعتك ثدي الإيمان، فطبتَ حياً، وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير قالية لحياتك، ولا شاكةً في الخيار لك، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة فعليك أبا محمدٍ منا السلام)[٢].

---

(١) عيون الأخبار. ترجمة الإمام الحسن بن علي عليه السلام ـ ابن عساكر: ٢٣٣.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ـ إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري الحصري القيرواني. دار الجيل. بيروت: ج١/ ٥٥.

فلما بلغ الخبر معاوية (وكان بالخضراء فكبّر وكبّر معه أهل الخضراء ثم كبّر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف زوج معاوية من خوخة لها فقالت: سرّك الله يا أمير المؤمنين، ما هذا الذي بلغك فسررت به؟.

قال: موت الحسن بن علي، فقالت: إنّا لله وإنّا له راجعون، ثم بكت، وقالت: مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله)[1].

(١) الإمام الحسن المجتبى ـ سلسلة أعلام الهداية: ١٨٥.

## قطاف الخاتمة

لا يمكن للخاتمة أن تكون معيار انتهاء بل هي قراءة لتصوراتٍ جديدة للخاتمة بلاغة تجري على شيءٍ من التروي يجعل منها قراءة أخرى لما تم طرحه، والخوض فيه تختزل ذاتها في ملاحظَ موجزةٍ، دالةٍ خاصةً ونحن أمام سيرة إمامٍ عظيمٍ تعجز الكلمات أن تحتوي لطائف مضمونها، وأسرار كمالاتها، ولكن لنا بهذا القليل قطاف محبةٍ، وتوسلٍ عسى أن تشفع لنا في الدنيا والأخرة.

ـ إن ما يجعل الإمامة (بلاغةً، وإبلاغاً، وبلاغاً) إنها شأنُ إلهي، واصطفاء رباني يمنح الإمام عصمة ذاتية تؤهله لقيادة الأمة بما يخدم المشروع الإلهي، وتبليغ الرسالة، والبلاغة تستدعي اكتمال الشيء في مظاهر البلاغ، والإبلاغ سواء في ظاهرها الحسي، أو باطنها المجازي بما يجعل من الإمامة هوية الكمال البشري متجليةً في شخص الإمام الذي اجتباه الباري ﷻ ليكون خليفته في الأرض، ومدعاةً للنظر إليها لا كمدارسةٍ عقليةٍ، ومعرفيةٍ فقط بل ممارسة عبادية، وعرفانية نسمو بها جهاتٍ عدة على أنها سبيل الرشاد، ومنهاج السداد.

ـ السيرة في حقيقتها (ترجمة لحياة) لذا فهي قراءة في مسارات النفس وهي تتحرر أفعالاً، واستبصاراً في بلاغة اللسان وهي تنتج أقوالاً، فإذا كان الفعل حركةً باتجاه الحق لنصرته كان القول فعلاً آخر باتجاه الحقيقة لنشرها، وتخليصها من أدران الشبهات التي سادت في عصره، وصار لها دعاة وأئمة فكانت كالحرب الطاحنة بين الحجة والشبهة، وكان الإمام الحسن عليه السلام يذيع سيرته بين الناس بلسانه وتفرعها من شجرة النبوة، وتجلّيها بنور الإمامة متخذاً منها حجة في مناهضة أعدائه، وتعريتهم، وحجة على مريديه وتبصرتهم إلى حقيقة الولاء، والاقتداء به، لأن التيار الأموي سعى جاهداً إلى سياسة التشويه، وصناعة الشبهة لحقيقة بني هاشم عسى أن تثمر عدولاً عن الحق، وانحرافاً بالحقيقة إلى مظانٍ أخرى.

ـ وبما أن قراءة السيرة تقتضي تتبع المراحل التي شكلت بمجموعها الأطوار الحياتية للإمام الحسن عليه السلام في مسارات تجلياتها سواء في جانبها الغيبي أو الواقعي فكان لمسار البدايات الموجه الأول لوعي المتلقي أن يتلمس الاستعدادات العقلية والروحية التي أنطوى عليها في بلوغ الكمالات التي من شأنها أن تجعل منه مثار تأملٍ، وتدبّرٍ، وتبصّرٍ تقتضي في جانبها الغيبي سرد الأحداثٍ، والمقولات التي تبشّر بقرب انبلاج صبح ولادته المبارك، وفي جانبها الواقعي تقصى ما بعد انبلاج شمس ولادته إذ ينهل ذلك الوليد من مشارب النبوة، والإمامة، والأمومة ما يزكو بروحه أن تعلو عما يشينها،

وتزهر بما يزينها تملأه الغبطة والسرور وهو يدرج في بيوت حباها الله بمصابيح رحمته، وأعلام هدايته، ويلفها بعد ذلك حزن عميق، وألم شديد وهو يرى أيادي الظلام والكفر، والنفاق تريد لهذه المصابيح أن تنطفئ، وأن تخمد نور الرسالة التي حملوا مشكاتها ضاربين أثباج كفار قريش بسيوف بني هاشم الحداد، وشاء الله لهذه المصابيح أن تستشهد تباعاً وهي تؤدي أدوارها الرسالية، ويمضي الإمام الحسن عليه السلام في أداء دوره الرسالي كإمامٍ مفترض الطاعة صابراً، لابساً مدرعة الجهاد، ناشراً نور علمه، بما يرأب الصدع، ويوحّد الجمع على كلمة الحق.

ـ تمثّل المتن البياني للإمام الحسن عليه السلام في مداراته المتعددة اضاءاتٍ، وبلاغاتٍ عدة في شؤون الحياة، والفقه، والحكمة، والتأويل، والأخلاق، والعلوم الإلهية، والتربية في مضامينها العبادية، والمعرفية، والمتمثلة في (أقواله، وخطبه، وحكمه، واحتجاجاته، وأفعاله)، وشكّل أرثاً صخماً يمكن من خلالها ترجمة السيرة الحسنية على أنها امتداداً لسيرة جده المصطفى صلى الله عليه وآله، وأبيه المرتضى عليه السلام، وقد صرّح أعدائه بهذه الحقيقة من أنه (أحيا سيرة أبيه).

ـ كان للمظهر العبادي للإمام الحسن عليه السلام جوهر عرفاني اقتبس مصاديقه من جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وتنفس أوراده من أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام ومن أمه الزهراء عليها السلام فكان مثالاً في التقوى، والطاعة، وكانت العبادة تلازمه ملازمة أنفاسه، وتصدر عن حواسه كما تصدر الشمس ضوؤها بلا تكلفٍ، مما ترك

لهذا المظهر في سيرته المعطرة أثاراً جمةً من أخذ بها، واستولت على جوارحه كان من مريديه، والسائرين على نهج الله تعالى، وما هذا الاستغراق في العبادة إلا توجه ذاتي تنقطع به الروح إلى خالقها يسايره ناتج معرفي، وأثر عرفاني أراد أن يرسخها في مشكاة الوعي الجمعي ينصرف بها إلى تدبّر حقيقة الإمامة حين تكون اصطفاءً إلهياً خالصاً.

ـ إن كل فعلٍ، أو قول يصدر عن الإمام هو اشارة نورانية نافذةٌ بعمقها المعرفي إلى تدوين سيرته، وغرس آثارها في وعي الأمة، وشكّلت هذه الاشارات ذخيرةً معرفيةً تنطوي على جملةٍ من اللطائف البلاغية، والعرفانية التي تروم لوعي الأمة أن تنفذ من ظاهرها المحدود إلى باطنها المطلق، ومن قدرة الانجاز على تمثل الاعجاز الذي يقارب فهم العصمة من جهات الملكات التكاملية التي تنطوي عليها ذاته المقدسة.

ـ عند قراءة السيرة الحسنية تصدمنا الكثير من الشبهات التي وسمته بها ألسنة أعدائه قديما وحديثاً، وأرادت بها أن تصرف وعي العامة عن المغزى الرسالي لإمامته، واطفاء نور كمالاته، وانتسابه للعترة الطاهرة، وكأن الأفعال المقرونة بتلك الشبهات لا تؤهله لقيادة الأمة علماً أن تلك المآخذ والشبهات بما انطوت عليه من تزويقٍ بياني، وانفعال درامي لم تصمد أمام مصاديق السيرة العظيمة للإمام الحسن عليه السلام.

ـ مازالت السيرة الحسنية بحاجةٍ لكثيرٍ من القراءات المعرفية، والفلسفية

المتعمقة التي تنصرف إلى محاكاة أثرها الكوني في بلورة مفهوم الإمامة، وأثرها الميداني في تحديد المسار الرسالي لدعوته، والقدرة على المجابهة وتعرية خصومه من أردية الزيف التي توشحوا بها.

ـ اقترنت نهايات حياة آل محمد عليهم السلام بنور الشهادة الذي يجعل منها فاجعة إنسانية تظهر خسة أعدائهم، والعمق الرسالي الذي جعلهم مستعدين لهذه النهاية، وراضين بها وهذا ما يمنح سيرَهم بعداً دراميا، وروحياً، وعقائديا تتذكره الأمة بعين الأسى، والتأسي وتراجعه بين الحين والآخر لترجمة انتمائها الولائي لنهجهم، ومودتهم على أنّه احياء لكلمة الحق ودحض لكلمة الباطل.

ـ اعتمد الإمام الحسن عليه السلام المنهج الاصلاحي في قيادة الأمة من خلال إشاعة سنن التعامل الإنساني الذي تقتضيها معايير الإمامة في إقامة الحق ودحض الباطل، وتمثل المعروف وإماتة المنكر، وإحياء الفضائل البشرية التي هي من سنخ تلك المعايير بحيث تظهر في بعدها العملي ماهية الإمام الذي اختاره الله تعالى من جهة الكمال البشري في إحياء معالم الدين، والترفع عن الدنيا وحطامها، وفي بعدها الاحتجاجي حقيقة الصراع المتأزم مع خصومه الذين انقادوا لذلك الحطام فأرادوا طمس معالم الدين، والكشف عن منطويات نفوسهم والحقد المتأصل فيها على العترة المحمدية صلوات الله عليهم بحيث أخذ العداء صبغة دموية لا تبالي من أجل إقامة مشروعها الشيطاني إبادة العترة الطاهرة، وتشويه معالم الدين.

## مكتبة الدراسة


* القرآن الكريم.

١ـ إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، العلامة الجليل والمؤرخ النسابة الرحالة أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، ط٥، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ب.ت.

٢ـ الاحتجاج ـ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، دار الاتحاد الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.

٣ـ الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مطبوعات دار الأندلس، النجف، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٤ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مبارك البغدادي، ط١، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥ـ إحياء العلوم، أبو حامد الغزالي، ب.ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ب.ت.

٥ـ إرشاد القلوب، المحقق السيد هاشم الميلاني، دار الأسوة للطباعة والنشر التابعة لمنظمة الشؤون الخيرية، إيران، ١٤٢٤هـ.
٦ـ الإرشاد، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن نعمان العكبري، (ت ٤١٣هـ)، ب.ط، المطبعة الحيدرية، النجف، قم، ب.ت.
٧ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي النمري(ت٤٦٣هـ)، صححه وخرَّج أحاديثه: عادل مرشد، ط١، دار الإعلام، الأردن، عمان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٨ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، الإمام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ)، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
٩ـ الإصابة في تمييز الصحابة، شيخ الإسلام وعلم الأعلام وقاضي القضاة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المصري الشافعي المعروف بابن حجر رحمه الله (٧٧٣-٨٥٢هـ)، طبعت هذه النسخة طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣م في بلدة كلكتا بعد مقابلتها على النسخة الخطية المحفوظة في دار الكتب بالأزهر الشريف بمصر، ثم على النسخة الموقوفة على طلبة العلم برواق الشوام من الأزهر المذكور، ب.ت.
١٠ـ أعيان الشيعة، الإمام السيد محسن الأمين، حققه حسن الأمين، ب.ط، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١ـ أمالي الصدوق، الشيخ الأقدم والمحدث الأكبر أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، قدم له العلامة الجليل السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، ب.ط، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

١٢ـ الإمام الحسن بن علي عليه السلام، الشيخ محمد حسن آل ياسين، ب.ط، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، العراق، ب.ت.

١٣ـ الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تح: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاؤه.

١٤ـ الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تح: أحمد أمين، أحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت.

١٥ـ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري(ت٢٧٩هـ)، تح: سهيل رزكار، رياض رزكلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٦ـ الأنوار البهية ـ الشيخ عباس القمي

١٧ – الأئمة الاثنا عشر: دراسة تحليلية، عادل الأديب، ط٣، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٨ـ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) تح محمد الباقر البهبودي، وعبد الرحيم الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢،

١٩٨٣م.
١٩ـ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي(ت٧٧٤هـ)، تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٢٠ـ البلاغة العربية بين التخييل والتداول، محمد العمري، إفريقيا الشرق البيضاء، ٢٠٠٧م.
٢١ـ البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
٢٢ـ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٣ـ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، ب.ط، مكتبة نور، قسم الأدب، تاريخ الإنشاء يوليو ٢٠١٨م.
٢٤ـ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، الإمام الفقيه المفعم المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، طبعة مقدم لها بتوضيح في أسانيد الطبري وبيان المؤاخذات عليه، وصححت النسخة على أصح النسخ الموجودة وخدمت بفهارس الآيات وفهارس الأحاديث وفهارس للموضوعات، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، ب.ط، بيت الأفكار الدولية، الأردن، المؤتمن للتوزيع، السعودية، ب.ت.
٢٥ـ تاريخ الخميس في تاريخ أنفس نفيس، الإمام العالم العلامة الشيخ حسين

بن محمد بن الحسن الديار بكري، ط١، مطبعة الفقير عثمان عبد الرزاق، ١٣٠٢م.

٢٦ـ تاريخ السبطين سيرة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، الشيخ كاظم ياسين، ط١، دار جواد الأئمة عليه السلام، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

٢٧ـ تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (ت٣١٠هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٥، ١٩٨٩م.

٢٨ـ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري (ت٢٩٢هـ)، ب.ط، من منشورات المكتبة المرتضوية في النجف، مطبعة الغري، النجف، ب.ت.

٢٩ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، ب.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ب.ت.

٣٠ـ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الدمشقي(ت٥١٧هـ)، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٣١ـ تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن وهب الله بن عبد الله الشافعي الدمشقي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تح: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر. ط١ ١٩٨٠.

٣٢ـ تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني من أعلام القرن الرابع، قدم له العلامة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، ب.ط، منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٣٣ـ تذكرة الخواص المعروف بتذكرة خواص الأئمة عليهم السلام في خصائص الأئمة عليهم السلام، العلامة سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ)، تأليف يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن ابن جوزي الحنفي (٥٨١-٦٥٤هـ)، قدم له العلمة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، ب.ط، مكتبة نينوى الحديثة، طهران، ب.ت.

٣٤ـ تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر الشهير بخطيب الري نفع الله به المسلمين (٥٤٤-٦٠٤هـ)، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٥ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: مجموعة ورَّام، الشيخ الزاهد رام بن أبي فراس المالكي الأشتري الحلي (ت٦٠٥هـ)، تحقيق وتعليق: باسم محمد مال الله الأسدي، ط١، أصداء شعبة التحقيق، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة، العراق، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م.

٣٦ـ التوحيد، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن

الحسين بن بابويه القمي (٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: المحقق البارع السيد باسم الحسيني الطهراني، ب.ط، مكتبة الصدوق، طهران، ١٣٨٧هـ.

٣٧ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ). دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٣٨ـ جلاء العيون، الفقيه المحقق والعلَّامة المدقق السيد الأكبر السيد عبد الله شبر (١١٨٨-١٢٤٢هـ)، تصدى لتصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه بقدر الواسع والطاقة حفيده العلَّامة السيد علي بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد حسين بن المؤلف السيد عبد الله، ب.ط، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

٣٩ـ الخرائج والجرائح، الشيخ أبو الحسين سعيد بن هبة الله قطب الدين الرواندي، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي، ط١، قم، إيران، ب.ت.

٤٠ـ دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، ب.ط، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م.

٤١ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، الإمام الحافظ المحدث المؤرخ محب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري المكي (٦١٥-٦٩٤هـ)، حققه وعلق عليه: أكرم البوشي، قرأه وقدم له: محمود الأرناؤوط، ط١، بالاعتماد على نسختين خطيتين، مكتبة نور، تاريخ

الإنشاء ٢٠٠٦م.

٤٢ـ رجال الكشي، أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي، قدم له وعلق عليه ووضع فهارسه: السيد أحمد الحسيني، ب.ط، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، كربلاء، ب.ت.

٤٣ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، الإمام الشيخ أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري، عنى بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ط١، محل السادات محمد أمين الخانجي وشركاه بالاستانة ومصر، ب.ت.

٤٤ـ زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: علي محمد البجاوي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

٤٥ـ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار مع تطبيق النصوص الواردة فيها على بحار الأنوار بطبعته القديمة والجديدة، المحدث الخبير والمحقق الجليل المرحوم الشيخ عباس القمي، ط٢، دار الأسوة للطباعة والنشر التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، إيران، ١٤١٦هـ.

٤٦ـ السلطة وصناعة الوضع والتأويل، كمال الحيدري، بقلم: علي المدني، مركز شعر للنشر والتوزيع، ط١، طهران، ٢٠١٢م.

٤٧ـ السنة والإصلاح، عبد الله العروي، ب.ط، المركز الثقافي العربي،

بيروت، ٢٠٠٨م.

٤٨ـ سنن ابن داود، الإمام الحافظ أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤٩ـ سنن الترمذي وهو الجامع الكبير، الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، ط١، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٥٠ـ السنن الكبرى، الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥١ـ سؤال في معاوية بن أبي سفيان، ابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

٥٢ـ سيرة الإمام الحسن بن علي عليه السلام، سيد مهدي آية الله، ترجمة: كمال السيد، ب.ط، مؤسسة أنصاريان، قم، إيران، ب.ت.

٥٣ـ السيرة النبوية ابن هشام ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري(ت٢١٣هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت، ٢٠٠٠م.

٥٤ـ شرح العقائد النَّسَفيَّة، العلَّامة سعد الدين التفتازاني، تحقيق: أحمد حجازي السَّقا، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥٥ـ شرح العقيدة الطحاوية، الإمام العلَّامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطَّحاوي، تأليف العلَّامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ)، حققه وخرَّجَ أحاديثه: أبو عبد الله مصطفى العدوي، ط١، دار ابن رجب، المنصورة، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥٦ـ شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركا، منشورات آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، إيران، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٥٧ـ شرح نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ب.ط، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ب.ت.

٥٨ـ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٥٩ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ويليه كتاب تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان، المحدث أحمد بن حجر الهيثمي المكي (ت٩٧٤هـ)، كتب مقدمته وعلق

حواشيه وخرج أحاديثه وراجع أصوله: عبد الوهاب عبد اللطيف، ب.ط، مكتبة القاهرة لصاحبها علي يوسف سليمان، ميدان الأزهر، مصر، دار الطباعة المحمدية، درب الأتراك بالأزهر، القاهرة، ب.ت.

٦٠ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (ترجمة حياة الإمام الحسن عليه السلام)، تح: السيد عبد العزيز الطباطبائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، إحياء التراث، قم، ط١.

٦١ـ علل الشرائع (سلوا أهل البيت)، العلَّامة الشيخ الصدوق، ط١، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٦٢ـ العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي، قدم وعلق عليه: محب الدين الخطيب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

٦٣ـ العوالم في أحوال الإمام الحسن عليه السلام، المحدث الكبير المتتبع الخبير الشيخ عبد الله البحراني الأصفهاني، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، ب.ط، مكتبة أهل البيت، قم المقدسة، ب.ت.

٦٤ـ عيون أخبار الرضا، الشيخ الأقدم والمحدث الأكبر جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، اعتنى بتصحيحه وتذييله: الأستاذ الفاضل السيد مهدي الحسيني الأجودي، الناشر محمد

رضا المشهدي، دار الهلم، قم، ١٣٧٧هـ.
٦٥ـ غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام عن طريق الخاص والعام، السيد هاشم البحراني الموسوي التوبلي، تحقيق العلَّامة: السيد علي عاشور، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٦٦ـ الفتنة الكبرى (علي وبنوه)، طه حسين، ب.ط، الناشر مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٧م.
٦٧ـ فرائد السمطين، المحدث الكبير إبراهيم الجويني الخراساني، تحقيق: العلامة محمد باقر المحمودي، ب.ط، مؤسسة المحمودي، بيروت، لبنان، ب.ت.
٦٨ـ الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ط٤، مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٦٩ـ الفصول المهمة في تأليف الأمة، العلَّامة السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي، ط١، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، شارع المتنبي، بغداد، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
٧٠ـ فن السيرة، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط٥، ١٩٨٨م.
٧١ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، العلَّامة المحدث محمد عبد الرؤوف المناوي، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ/

١٩٧٢م.

٧٢ـ قواعد المرام في علم الكلام، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، تحقيق: أنمار معاد المظفر، ط١، العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، كربلاء المقدسة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧٣ـ الكافي (أصول الكافي)، ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، ط١، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٧٤ـ الكامل في التاريخ، المؤرخ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد أبو عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ)، حققه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، ب.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

٧٥ـ الكامل، الإمام العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠-٢٨٥هـ)، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: محمد أحمد الدَّالي، ط٣، طبعة جديدة ومصححة ومنقحة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٦ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلاَّمة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(٤٦٧-٥٣٨هـ)، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، ب.ط، مكتبة نور، تاريخ الإنشاء مارس ٢٠١١م.

٧٧ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ)، دار الكتاب الإسلامي، حلب.
٧٨ـ كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، أبو القاسم علي بن محمد بن علي الخزار القمي الرازي من علماء القرن الرابع، حققه العلم الحجة: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوه كمراسي النحوي، ب.ط، الناشر بيدار، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠١هـ.
٧٩ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، العلَّامة أبو الحسن علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين بن القاضي عبد الملك بن قاضي خان الشهير بالمتقي الحسندي (٨٨٨ ـ٩٧٥هـ)، اعتنى به: اسحق الطيبي، ط٢، بيت الأفكار الدولية، الأردن، المؤتمن للتوزيع، السعودية، ٢٠٠٥م.
٨٠ـ لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.
٨١ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، ب.ط، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ب.ت.
٨٢ـ المحاسن والأضداد، الجاحظ عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
٨٣ـ المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي المعروف بأبي الفداء (٦٢٧-٧٣٢هـ)، تقديم الدكتور:

حسين مؤنس، تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب، والأستاذ يحيى سيد حسين، ط١، دار المعارف، مصر، ب.ت.

٨٤ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٨٥ـ المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، ب.ط، دار المعرفة بيروت، لبنان، ب.ت.

٨٦ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، حققه ووضع حواشيه ورقم أحاديثه: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية أسسها محمد علي بيضون، ١٩٧١م، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٨٧ـ معالم السنن، الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البُسني (ت ٣٨٨هـ)، وهو شرح سنن الإمام أبي داوود (ت٢٧٥هـ)، ط١، طبعه وصححه محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

٨٨ـ معاني الأخبار، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت٣١٨هـ)، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، طهران، مؤسسة دار العلم، قم، مطبعة الحيدري، ١٣٧٩هـ.

٨٩ـ معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في الميزان، عباس محمود

العقاد، ط٦، طبعة منقحة ومراجعة، نهضة مصر للطباعة والنشر، أغسطس، ٢٠٠٦م.

٩٠ـ المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ب.ت.

٩١ـ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ب.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المجمع العلمي العربي الأساسي، محمد الدايه، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٩٢ـ مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصبهاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، ب.ط، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان، ب.ت.

٩٣ـ مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون (ت٧٣٢-٨٠٨هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور: سهيل زكار، طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والاعلام والأماكن الجغرافية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ/ ٢٠٠١م.

٩٤ـ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبو محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، أشرف على تصحيحه وطبعه والتعليق عليه العلاَّمة الشيخ حسين الأعلمي، ط١، منشورات مؤسسة الأعلى، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٩٥ـ مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) شرح لجنة من الأساتذة، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، ١٩٥٦م.

٩٦ـ مناقشة مقال محمد عابد الجابري حول التراث ومشكل المنهج: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦م.

٩٧ـ المنتقى من أخبار المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية الحراني، وقف على تصحيحه وتعليق هوامشه: محمد حامد الفقي، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر لصاحبها: مصطفى محمد، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

٩٨ـ منتهى الآمال، الشيخ عباس القمي، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ب.ت.

٩٩ـ منهاج السنة النبوية، تح: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٩٨٦م.

١٠٠ـ الموسوعة الإسلامية لجماعة المستشرقين، إصدار أحمد الشنتناوي، تصوير طبعة ١٩٣٣م.

١٠١ـ النصائح الكافية، العلَّامة المحقق الجليل الشريف النبيل السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي المتوفى سنة ١٣٠٥هـ، تحقيق وتدقيق: غالب الشابندر، مراجعة: ع.ح.الخطيب، ط١، مؤسسة الفجر، لندن، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٠٢ـ نظريات الفكر السياسي الشيعي المعاصر، علي فياض، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي السلسلة: الدراسات الحضارية، ٢٠١٥م.

١٠٣ـ نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسبطين، محمد بن يوسف زرندي، ب.ط، مطبعة القضاء، النجف، العراق، ١٩٥٨م.

١٠٤ـ نهج البلاغة، تحقيق السيد هاشم الميلاني، المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، ط٥، ٢٠١٠م.

١٠٥ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار صلى الله عليه وآله، مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، ط١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

١٠٦ـ ينابيع المودة سليمان بن إبراهيم القندوزي، ط١، دار الكتب العراقية، الكاظمية، بغداد، ١٩٦٦م.

# المحتويات


**مقدمة المركز** ..... ٧

**مقدمة** ..... **٩**

على نية التوطئة ..... ١٤

أولاً: (صناعة الشبهة على هامش التوثيق) ..... ١٤

ثانياً: (مفهوم السيرة) ..... ٢٢

**الفصل الأول: بلاغة الولادة ومسرى البدايات** ..... **٣٩**

إضاءة ..... ٤١

نقطة البدء ..... ٤١

**الفصل الثاني: بلاغة القيادة** ..... **٨٩**

إضاءة ..... ٩١

نقطة البدء ..... ٩١

إشكالية الصلح ..... ١٠٤

ماهية الصلح ..... ١٣١

**الفصل الثالث: بلاغة التوثيق والحجاج ..... ١٤٩**

**الفصل الرابع: بلاغة العبادة ..... ١٩٣**

العبادة المعرفية ..... ٢٠٦

**الفصل الخامس: بلاغة الشهادة ..... ٢٢١**

ماهية الشهادة ..... ٢٢٣

المخطط الأموي للقضاء على الإمام الحسن عليه السلام ..... ٢٢٥

**قطاف الخاتمة ..... ٢٣٩**

**مكتبة الدراسة ..... ٢٤٥**

**المحتويات ..... ٢٦٣**